



أدب رحلات

ح

أسفار المشتاق

جمال الفيضان



سليمان العتيبي

دار سعد الصباح



حيث لا إحتكار للمعرفة

www.books4arab.com

أسفار المشتاق

الطبعة الأولى ١٩٩٢
جميع الحقوق محفوظة ©
دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفحة ١٣١٣٣ - الكويت
ص.ب : ١٣ المقطم - القاهرة

أسفار المشتاق

متتاليات في المكان والزمان

جمال النيطاس

.. قصدت المغرب ثلاث مرات ، عبر أحد عشر عاماً ، وقبل زيارتي لهذا البلد
العربي الاصيل ارتبطت به عبر تاريخه وثقافته ، وبعد ترددي عليه ، أصبح
جزءاً هاماً من تكويني الروحي . وتلك المتتاليات كتبت عقب كل رحلة من
رحلاتي الثلاث .

متنالیات مغربیة

١٩٧٩
١٩٨٩
١٩٩١

أسفار المشتاق

« .. يرتبط المغرب بما هو غير عادى ، قد يكون الغموض ، ربما مبعث ذلك فى نفسى ، هذا الرجل الذى كان يطوف حوارى الجمالية ، أو قرى الصعيد الجنوبية ، مرتديا الجلباب المغربى ذو غطاء الرأس المثلث ، ويمسك بحقيبة تتضمن السحر والأسرار ، كان ينادى : «افتح الكتاب» ، وإذ يستدعيه أحد ، يجلس متمتماً ، ثم يحاول النفاذ عبر المجهول إلى المستقبل ، وأحياناً كان يعد الأحبة المثلثة أو المستديرة ، تلك التى تعالج الأوجاع أو تقى من الآلام . ربما لأن المغرب كان يمثل فى الزمن السحيق حدود العالم القديم ، حيث تلامس شواطئه مياه البحر المحيط الذى لم تكن تبدو له ضفة ولا يدري أحد المجهول الذى يخفيه الأفق ، وكثيراً ما كان الخيال يجنح إلى المغرب العربى ، ومع حلول نهاية عام ١٩٧٩ ، كانت الطائرة المغربية تتوقف فى مطار «الدار البيضاء» ، بعد طيران استمر أكثر من خمس ساعات لعبور المسافة التى تفصل القاهرة عن المغرب .

كانت المناسبة هي إنعقاد مؤتمر الرواية العربية الحديثة في المغرب ، الذي نظمته إتحاد كتاب المغرب ، على نفس الطائفة معى الأديب ادوارد الخراط وكان صنع الله ابراهيم قد طار قبلنا بأربعة وعشرين ساعة ، اجتزنا صالات مطار الدار البيضاء الصغيرة التى تخللتها الاجراءات المعتادة من التدقيق في جوازات السفر ، والاستفسار عن النقود ، ومراجعة قوائم الممنوعين داخل الاكشاك الزجاجية ، كان في انتظارنا أدبيين مغربيين تطوعا لنقل أعضاء الوفد المصرى من الدار البيضاء إلى مدينة فاس التى تبعد حوالى أربعمئة كيلو متر عن الدار البيضاء ، كان محمد حميشى في حدود الثلاثين ، عربى الملامح ، بدا ودوداً ، كنت مرهقاً نتيجة للسفر الطويل ، وإنعدام النوم لساعات تتجاوز العشرين ، تلك الحالة من القلق التى تصحب الانتقال من مكان إلى مكان ، والتى تدفع إلى روى بدهشة بالغه عندما أرى بعض الركاب يسندون رءوسهم إلى المقاعد ، ويغطون في نوم عميق قبل أن تحلق الطائرة ، أو يسير القطار ، رحت أمنى النفس بإغفاءة محدودة فى السيارة ، وكنت أثق من ذلك كنتيجة طبيعية للإرهاق الشديد ، ولكن مع بدء دوران العجلات ، وتوالى الأشجار بسرعة إلى الخلف ، ورؤية مقهى صغير أقيم لخدمة المسافرين ، ولافتة بيضاء تشير إلى طريق مدينة الرباط ، وعلمى بأن محمد حميشى قائد السيارة قطع نفس الطريق في اليوم السابق ليصبح صنع الله ابراهيم ، وانه لم يتم ، مع هذا كله ، تبدد التعب ، وبدا الشعور بالإرهاك مؤجلاً ، يتخلل اليقظة نهم لرؤية كل التفاصيل واستيعاب الأشياء الجديدة التى تقع عينائى عليها لأول مرة ، كان هذا المكان كله أسماء مجردة أقرأ عنها في الكتب ، أو فوق الخرائط الصماء ، وها هو واقع أعيشه ، كنت حريصاً على أن أتحدث إلى محمد حميشى الذى بدت عيناه مجهدتين ، فيما بعد عرفت انه بلا عمل ، وإنه مفصول من وظيفته

كمدرس لأنه اشترك في اضراب كبير جرى في إبريل الماضي ، وانه يعيش في المحمدية المنطقة الصناعية التي تبعد عن الدار البيضاء عشرون كيلومترا تقريبا إلى الشمال . كنا نتحدث بالفصحى لأن العامية المغربية بدت لنا صعبة ، ومع الطريق غمرتنا هذه الحميمية التي تنشأ بسرعة بين أشخاص لا يعرفون بعضهم معرفة شخصية ، ولكنهم يعيشون هموماً متشابهة ومواقف متقاربة ، توالى الطريق بسرعة ، وعبرنا مدينة الرباط (سأعود إليها فيما بعد) ، كانت الخضرة كثيفة ، وبدا لي كأن الوجود في المغرب يعرض نفسه من خلال لونين ، الأبيض ، والأخضر ، الأبيض الشاهق ، الناصع يحتوى البيوت ، الحديث منها والقديم ، البيوت متعددة الطوابق ، وذات الطابق الواحد ، والخضرة كأطار ، ولكن هذه الخضرة تكتسب بعداً أعمق عندما بدأت السيارة تتجه لعبور جبال الأطلس الوسطى ، تصبح الأرض متعددة المستويات ، تعلو وتخفض ، ولا يبدو من الوديان إلا مقدماتها ، أما داخلها ، عمقها فتحجبها أشجار كثيفة تتجاوز متلاصقة لكنها تسمح لجداول مائية صافية بالترقرق البطيء ، تلك الجسور الصغيرة القديمة ، ثم غابات من أشجار القلين ، غابات من صنع الإنسان لأن الأشجار مصفوفة ، مع حركة السيارة تتعاق وتقاطع ، كنا نبتعد عن شاطئ المحيط ، نتجه إلى الوسط ، وعلى الرغم من تشابه الطبيعة هنا بآماكن أخرى رأيتها في أوروبا ، خاصة في الوسط ، أو شمال العراق ، لكن يظل للطبيعة هنا تكوينها الخاص ، وروح فريدة ، هل مبعث ذلك إلى ما ارتبط في ذهني من غموض ، أو بسبب ما أقامه الإنسان هنا والذي يؤكد لك بإستمرار مغربيته ، في الطريق توقفنا دقائق احتسينا أكواب الشاي الأخضر المحلي بالنعناع ، يقدم في أكواب زجاجية متسعة قرب الفوهة . وفي السائل الأخضر الحلو ترقد أوراق النعناع الخضراء ، هكذا يشربون الشاي في المغرب ،

ويطلقون عليه «أتاي» ، وذكرني العبق النعناعي بمقهى الفيشاوى القديم قبل هدمه ، والشاى الأخضر الذى كان يقدمه إلى الزبائن في أكواب صغيرة ، لقد انتهى ذلك الآن ..

نعود إلى الطريق ، ونمر بمدينة «مكناس» تبدو لنا أسوارها القديمة والضباب الشتوى يضىء عليها لون الحلم ، نستمر ، ندخل إلى مدينة فاس ، في الفندق وعند المدخل ، التقيت بالصديق الروائى العربى عبد الرحمن منيف ، كان قد وصل لتوه ، وكان قد مضى ثلاث سنوات كاملة منذ أن رأيته آخر مرة ، وكان ذلك في بغداد ، وسوف يتحدث منيف عن تجربته الروائية في الندوة ، وسيكون من أصدق المتحدثين ، تبدو ملامح منيف حادة ، وكأنه على وشك أن يتحدث بصوت مرتفع ، ولكنه يظل صامتا ، وعندما يتحدث يكون واضحا ، قليل الكلمات ، وتبدو من انفعالاته ذلك اللهب الذى يضطرم في أعماقه ، كانت الندوة بلا مبالغة من أهم الندوات الأدبية التى عقدت في العالم العربى ، إذ لأول مرة يجلس عدد من الروائيين المبدعين مع مجموعة من النقاد والدارسين ، ويتناقشون في الموضوعات المتعلقة بالرواية الحديثة في العالم العربى ، كانت الندوة رفيعة المستوى ، ومن خلالها أمكن لي ملاحظة بعض العناصر الأساسية المكونة للمثقفين المغاربة، ان قربهم من أوروبا ، خاصة فرنسا ، جعلهم متابعين لأهم التيارات الأدبية وأحدثها ، ولكن هذا لم يكن سببا في انفصالهم عن تراثهم العربى ، بالعكس ، فهم شديد و الصلة به ، ولا ينظرون إليه بتقديس أعمى ، أو تعالى مترفع ، واعتقد ان مسار الثقافة في المغرب العربى سيشهد تطورات هامة في المستقبل ، خاصة في مجال تلاقى الثقافتين العربية والأوروبية ، ولولادة مزيج منهما ، في الندوة التقيت بعدد من الزملاء والاصدقاء الذين مضت فترات زمنية متباعدة على رؤيتى لهم ، وكنت معنيا

بتتبع آثار الزمن عليهم، وما جرى لهم، خاصة الذين غادروا القاهرة، إلى أوروبا، أو بعض البلاد العربية، ربما يأتى يوم أتحدث فيه عن هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً.

فاس القديمة

ديسمبر ١٩٧٩

.. فى كل مدن المغرب قسمين رئيسيين ، الأول يضم المدينة القديمة ، تقبع داخل الأسوار ، أو فى الحدود التى لم تتجاوزها مع الزمن ، وعلى مسافة قد تطول أو تقصر حتى التلاشى تقوم المدينة الحديثة ، وهكذا تغلبت المغرب على المشكلة التى تبرز فى كثير من البلاد العربية وهى غلبة الطابع الحديث على المناطق القديمة والأثرية ، هكذا الأمر فى فاس ، هناك فاس الحديثة ، حيث الفنادق المكيفة ، والمباني الشاهقة ، والمقاهى ذات الطابع الباريسى ، ثم ننتقل إلى حي «الملاح» ، وفى كل مدينة مغربية يوجد أيضاً «ملاح» وهو المنطقة السكنية الخاصة باليهود ، أى «الجيتو» اليهودى ، صحيح أن هذه الأماكن لم تعد قاصرة على سكانهم ، ولكنهم يشكلون أغلبية فيها ، و«الملاح» يقوم دائماً فى مواجهة القصر الملكى ، كرمز لحماية السلطان المغربى لهذه الأقلية ، وهذا بعكس المدن الأوروبية التى يصبح فيها «الجيتو» منبوذاً ، منطوياً ، نتجاوز الملاح باتجاه «فاس» القديمة ، نصل إلى بوابة «أبو الجلود» وتشبه معظم بوابات المغرب ، والبوابات الأندلسية ، حيث الأعمدة تسند مقطعاً دائرياً يشبه الخطوط الخارجية لثمرة البصل ، الباب كبير ، مرصع بنقوش دقيقة ، انه مدخلنا إلى قلب مدينة «فاس» ، للمدينة سبعة أبواب ، رقم سبعة السحرى ذو الدلالة والمعنى ، هناك باب الحديد ، وباب المحروق ، وباب الفتوح ، وباب الحمرا ، وعلى عكس معظم المدن التى رأيتها ، فإن فاس عند اختيار موقعها لم تبني فوق مرتفع ، أو فوق جبل ، وذلك تفادياً للحصار ، أو الفيضان ، بل شيدت فى وادى منخفض تحيط به مرتفعات جبلية صخرية ، وقفت فوق نقطة مرتفعة

تشرف على قاس القديمة ، أو (قاس البالية) كما يطلقون عليها في المغرب ، كانت معالم المدينة تبدو بوضوح ، والبيوت الصغيرة البيضاء ذات النوافذ الخضراء ، بينما يحيط المدينة اطار جميل من الخضرة التى تكسو الجبال ذاتها ، لقد كان من الصعب على القوات المهاجمة فى العصور القديمة أن تتسلق هذه المرتفعات الوعرة ، وبالتالي فان المدينة تقبع فى السهل آمنة يحيطها السور الحجري ، بينما روعى فى تصميمها الداخلي اعتبارات حربية أيضا ، فالشوارع ضيقة إلى حد أنها فى بعض المواضع لا تتسع لأكثر من مرور شخص واحد ، وأحيانا كانت المسافة لا تكفى لفتح مظلة متوسطة الحجم للوقاية من المطر ، وكثيراً ما يكون مدخل الحارة محدوداً بارتفاع معين حتى يجبر الداخل على الإنحناء ، وهذا نجده متبعاً لغرض آخر حول مقام سيدى ادريس الثانى ، حيث تمتد عوارض خشبية لتصنع حداً من الإرتفاع لا يسمح لرجل متوسط القامة بالمرور إلى منطقة الضريح ، بدون أن ينحنى رأسه ، ورءوس كل الداخلين احتراماً ، لا ترى منشآت قاس القديمة من مسافة بعيدة أو متوسطة ، فجأة تجد نفسك فى داخل ضريح ادريس الثانى ، أو فى جامع القرويين ، المسافات ضيقة ، والجدران متقاربة ، والحركة داخل المدينة منذ اجتياز بوابة أبو الجلود تشبه الحركة داخل بيت كبير ، تتحقق هنا الوحدة المكانية نتيجة التكسد والتجاور ، ولكنه ليس تكسداً خانقاً ، يمكن أن أقول إنه حميمى ، جزء من طبيعة المكان ، إن المدينة تستدرجك إليها على مهل ، وفى ببطء من خلال طريقين رئيسيين، الطلعة الكبرى ، والطلعة الصغرى ، سلكنَا الطلعة الكبرى ، وبالطبع عند الدخول تصبح منحدرًا متجهًا إلى القلب ، وعلى الجانبين تتوالى الأسواق ، نفس التكوين الخاص بالأسواق العربية فى جميع المدن التى زرتها ، لكل سلعة قسم خاص ، ولكل حرفة مساحة معينة تحتلها ، وتتفرع الحارات الضيقة ، تبدو أبواب البيوت متواضعة المظهر ، أحلاها شبه دائرى ، ويبدو واضحاً أن الباب الرئيسي لا يؤدي إلى المدخل مباشرة إنما لا بد من اجتياز باب آخر يشكل

مع الباب الرئيسي زاوية قائمة ، وذلك لحجب الفناء الداخلي عن المارة لحظة فتح الباب الرئيسي وإذ تدخل البيت المغربى سواء فى قاس أو فى المدن الأخرى فكأنك انتقلت من العسر إلى اليسر ، أو ولى الضيق الذى حل مكانه فرج، تجد الدور فسيحة ، المضمون المريح ، المندش بالزخارف الجصية والمنمنمات الرخامية ، حتى تبدو وكأنها نقشت بأبرة رفيعة المقدمة ، وعادة تتوسط الدار نافورة مياه أو حديقة ، اننى أصف دور الطبقة المتوسطة ، أما القصور الصغيرة أو الكبيرة فلها شأن آخر ، ان الدار المغربية تعزل المقيم فيها عن ضجيج العالم وصخبه ، حيث الهدوء لازال كما هو ، بالضبط كما كان الأمر فى العصور الخوالى ، وفى الطابق الأرضى غرفة الاستقبال ، وحول الجدران تصطف أرائك بدون مساند خشبية (كتب) إنما توضع حشايًا لإراحة الظهر ، وعند تناول الطعام توضع مناضد منخفضة دائرية تشبه «الطبلية» التى تستخدمها الأسر المصرية الشعبية لتناول الطعام ، وهذه «الطبلية» يوضع فوقها مفارش بعدد أصناف الطعام التى ستقدم إلى الضيوف ، وعادة تقدم «البصطيلة» فى البداية ، وهى فطيرة مغربية لها طعم خاص ، وتجمع بين النقيضين ، السكر والملح ، باطن الفطيرة محشى عادة باللحوم أو الدجاج ، وسطحها يغطى بالسكر ، ثم يزال المفرش الأول ببقايا الطعام ، ثم يجيء الدجاج المطهو بزيت الزيتون ، ويليه اللحم الذى تتوسطه القراصيا حلوة الطعم ، أما الكسكسى فهو الطبق المغربى المميز ، ويوضع فوقه الخضروات المطهوه واللحوم ، وذلك بعكس الكسكسى المصرى الذى يؤكل بالسكر واللبن ، وهناك صنف آخر من الطعام اسمه «الحريرة» أو الشوربة المغربية ، ونفس هذا الاسم يطلق على صنف من الشوربة فى صعيد مصر يصنع من الدقيق ، واللبن ، وتشهد البيوت المغربية حفلات فنية خاصة فى المناسبات ، وتحبى هذه الحفلات فرق فنية تؤدى الموشحات الأندلسية ، أو «الملحون» وهو شكل من انشاد القصائد الشعبية على الحان بسيطة تؤدىها فرقة موسيقية مكونة من أربعة أو خمسة أفراد ، وعندما

تأخذ النشوة بأفئدة الرجال يقومون للرقص على أنغام الدف ، والرقص المغربي مزيج من الرقص العربي والأفريقي ، خلو تماما من التخثث ، فيه رجولة ، وأصداء داخلية وحشية .

تبدو الدار المغربية عالم قائم بذاته ، لا يسمح لعوامل الضجيج والكدر الخارجى بالتسرب إلى الداخل ، صاحب بيت مغربي أشار إلى جدران بيته المرصعة بالنقوش الجصية والرخامية .

« في فاس ، نقول إن دار كهذه تفرح وتفرح ، أى انها تفرح العائلة كلها في العرس ، وتحزن أهلها عندما يخرج أحدهم بلا رجعة . »



نعود إلى طرق فاس المتشابكة ، ولنمر بالدكاكين الصغيرة ، التي لا تتسع أحيانا إلا لصاحبها الذي يطل على المارة والزبائن من طاقة ضيقة ، ان الأسواق لا تتجاوز هنا فقط ، وإنما تتضمن الورش التي تصنع فيها الحرف ، معظم المتاجر هي أيضاً عبارة عن ورش ، تعتبر فاس عاصمة الصناعة التقليدية منذ العصور الأولى ، وقد وصف الحسن الوزان في القرن العاشر مصانعها ، ولاحظ أن الضفة اليمنى لوادي فاس كانت تضم مصانع التغذية والملابس والبناء ، بينما كانت صناعة الجلود والمعادن تعالج خارج عدوة الأندلس ، لقد أعطى مختلف الرحالة وصفا شاملاً عن صناعات فاس في عصور مختلفة ، كانت الصناعة الفاسية الكبرى تتمركز حول قنوات ساقية مصمودة ووادي فاس غربي المدينة وجنوبي غربها ، وكان بها ٥٢٠ معملًا للنسيج . و ٣٦٠ طاحونة ، في عام ١٩٠٤ كان قد تبقى منها ١٦٠ ، وجاء في «زهر الأس ص ٣٣» ان في زمن المنصور محمد الناصر كان عدد الأطرزة بفاس ٣٠٩٤ ، ودور الصابن ٤٧ ، ودور الدباغة ٧٦ ، والصباغة ١٦١ وتسكيك الحديد والنحاس ١٢ والزجاج ١١ ، وأفران الخبز ١١٧٠ .

قال المراكشي في «المعجب» ... «ما أظن في الدنيا كمدينة فاس أكثر مرافق

وأوسع معاش وأخصب جهات وذلك انها مدينة يحفها الماء .. لقد كان هذا الأزدهار نتيجة لتفاعل عناصر عديدة في فاس ، خاصة ازدهار الحضارتين الأندلسية والمغربية ، فقد هاجرت ثمانية آلاف عائلة من قرطبة إلى فاس ، في الوقت الذى وجدت فيه قبل ذلك جالية قيروانية سبقتها إلى المدينة ، كان العرب يعملون ويتاجرون ، وكان الأندلسيون يشتغلون بالفلاحة ، التقى في فاس علم قرطبة ، وعلم القيروان ، وصبا في رافد الثقافة المغربية ، ولا تزال فاس تنقسم إلى قسمين ، عدوة الأندلسيين ، وعدوة القرويين ، والمدينة التى نتجول فيها الآن أسست في زمن ادريس الأكبر سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) . فوق أحد المواضع هنا ، صعد المنبر ، بعد أن تم بناء المدينة والمسجد ، ودعا قائلاً «اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ، ولا مفاخرة ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مكابرة» اتسعت فاس في أيام بنى مرين ، اتخذها أمير المسلمين أبو يوسف على مقرأً للملكه في ٦٧٤ هـ (١٢٢٣ م)، وبني امتداداً لها يعد مدينة قائمة بذاتها ، كانت فاس مباركة ، لا يموت فيها خليفة ، ولا يخرج منها جيش قط إلا وعاد مظفراً ، ولم يعقد بها لواء قط إلا نصر ، هكذا يقول المؤرخون ..

وننتقل من درب إلى آخر حتى نجد أنفسنا في قلب جامع القرويين .. أهم معالم المدينة ، وأحد مراكز الإشعاع الحضارى في العالم خلال القرون الوسطى .



لأن المدينة ضيقة ، لا توجد فيها مساحات فسيحة ، أو ميادين متسعة ، لهذا لا يمكن رؤية جامع القرويين بشكل مكتمل إلا من خلال صحته الداخلى ، أو من فوق الجبل المحيط بفاس ، فجأة نجد أنفسنا أمام أسواره ، ونعبر رخامة بيضاء تصل بين ضفتى الطريق ، لم يكن يعبر فوقها إلا الطلبة ، عند خروجهم من الميضة ، وعند تجاوز الباب نجد قناة يتدفق فيها الماء بسرعة ، والماء لا يتدفق هنا فقط ، إنما يسرى في عروق فاس كلها ، تجده في الطرقات الضيقة ،

وخلال الجدران ، يسيل من ثقب ضيقة ، ويقال إنه لا يوجد مثل هذا النظام إلا في غرناطة ، وفي مدينة فاس ، حيث يتم تدفق الماء في جميع أوصال المدينة ، طبقاً لنظام دقيق ، إن هذا التدفق المستمر ، يكسب المدينة حيوية خفية خاصة ، إلى جانب حيوية الحركة ، والزحام ، واستمرار الحياة ، تحف بالصحن المكشوف للجامع زخارف أندلسية ، ومنمنمات دقيقة ، وخطوط مختلفة تعتبر متحفاً حياً للخط العربي الجميل على فترات تاريخية متفاوتة ، أقدم لوحة نجدها في القبة الرابعة ، يرجع تاريخها لأواسط القرن الثالث الهجري ، اكتشفت مدفونة تحت الجبس ، مكتوبة بالخط الكوفي العتيق ، طولها أربعة مترات وأربعة وسبعين سنتيمتراً ، نعرف منها أن فاطمة الفهرية التي تطوعت ببناء القرويين ، وأن الأساس حفر في أول رمضان ٢٤٥ هـ ، وانها لم تزل صائمة طوال مدة أعمال البناء ، وأن العمل كان يباشر بواسطة العاهل الأديسي يحيى الأول ، لقد استغرقت أعمال البناء ثلاث عشرة سنة ، إذ انتهت في ٢٦٣ هـ ، في القرن السادس الهجري قام المرابطون باصلاحات هامة في القرويين ، في الصحن المكشوف ساعتين شمستين ، وساعة مائية ، تعد الوحيدة من نوعها التي لا تزال متبقية في العالم ، هناك قباب سبعة ذات أبعاد واسعة ، في الصحن المغطى نجد ثلاثمائة وخمسة وستين عموداً رخامياً ، أي بعدد أيام السنة ، وتلاحظ شبهها قوياً بين هذا الصحن الداخل لمسجد الأزهر بالقاهرة ، ربما يرجع ذلك إلى أن الأزهر بنى في أول عهد الدولة الفاطمية بمصر التي جاءت جيوشها من المغرب ، في الداخل نجد منبراً خشبياً نفيساً ، وصل إلينا من عصر المرابطين ، طرز بآيات من القرآن الكريم بالصدف الثمين والعاج ، وتلاحظ أن الخط المستخدم به كوفي وأندلسي ، لقد خصص للمنبر في الزمان القديم غشائين أحدهما من الجلد ، والثاني من الكتان ، يزاخان عنه كل يوم جمعة ، وذلك حفاظاً عليه . ويضم جامع القرويين آثاراً هامة من عصر الموحدين ، إذ توجد أبواب داخل المسجد تنفذ من قاعة الصلاة ، إلى قاعة

الجنائز، تعرف تحت اسم «أبواب الروح»، مصنوعة من الخشب، تحمل نقوشاً منحوتة من الزهور والسلاسل، تحمل آيات قرآنية، وبيتين من الرجز..

يا واقفاً لدى أن أبصرت منى ما ترى
جد بالدعا لصانعي بجاه سيد السورى .

لقد صنعت هذه الأبواب في سنة ٥٧٨ هـ. من عصر الموحدين أيضاً، نجد الثريا الكبرى التى صنعت بفاس سنة ٦٠٠ هـ، وإذا عدنا إلى صحن المسجد فسنجد شباكاً من الرخام أبيض يحتوى على مائة وأربعة وعشرين خاتماً، ويحتوى هذا الشباك تكوين بديع عرف باسم «خصة العين» أو «الخصّة الحسنة»، ويوجد تحتها خطوط نسخية تؤرخ تاريخ الصنع، وتاريخ دخول الماء إلى المسجد، سنة ٥٩٩ هـ، في الجامع نجد ستة نواقيس كبيرة غنمهم المسلمون أثناء حروبهم في أسبانيا، أحد هذه النواقيس يحمل عبارة بالأسبانية:

«على الروح الطيبة أن تشكر الله على أن أنقذها من الضلال»

ويتصل بالجامع خزانة ضخمة للكتب، تضم تراثاً هائلاً من المخطوطات النادرة، لقد درس هنا ابن طفيل، وابن رشد وابن باجه وعدد آخر من المفكرين والعلماء المسلمين، بل إن كثيراً من الأوروبيين جاءوا إلى القرويين للدراسة، أحدهم أصبح باباً روما في القرن السابع عشر، كانت القرويين أحد ثلاثة مراكز في العالم الاسلامى، إلى جانب الزيتونة في تونس، والأزهر في القاهرة، يقف جامع القرويين، بتراثه الموهل في القدم، وما يحتويه من آثار عربية تمثل العديد من المدارس الفنية، يقف وسط صخب الحياة، مزروعاً في قلب مدينة فاس فكأنه جزء مما يحيطه من بيوت، عبر رحلة مقدارها أكثر من ألف سنة حتى وصل إلى عصرنا، ومع ذلك فلا زال غصا، يفيض بالحياة، والثراء.

نخرج من جامع القرويين ، نعود إلى الأزقة المثقلة بعبق تاريخي ،
نتوقف أمام متجر مغلق محل بزخارف غامضة ، يقولون إن النبي عليه
الصلاة والسلام جاء إلى فاس وقضى ليلة واحدة (مع أن فاس شيدت
بعد الهجرة بمائتي سنة تقريباً) ثم عاد إلى مكة ، يسمون هذا المتجر
متجر النبي ، هكذا تقول الأسطورة ، ولا يفتح في كل عام إلا مرة واحدة
ليلة المولد النبوي حيث ينطلق من أمامه موكب المولد ، ونمضي في
الطرق ، قاصدين خارج المدينة ، صاعدين الطريق الذي انحدر بنا
عند النزول ، ولنوع مدينة عرفت كيف تقاوم البلى مع أن اسمها فاس
البالية ، وتحفظ بحيويتها عبر مئات السنين ، وهذا ما أكسبها خاصية
مميزة ، قد لا يستطيع العقل إدراكها بسهولة ، ولكنها تترك في النفس
هذا الحنين البطيء الغامض إلى زمن مضى ، ولن يعود .

* * *

١٩٧٩

من الرباط إلى مراکش البعيدة عن الزمان والمكان

ديسمبر ١٩٧٩

... تقع مدينة الرباط على شاطئ المحيط الأطلسي ، أى أن البحر يحدها بلا نهاية ، فى الماضى كان يسمى بحر الظلمات قبل اكتشاف الجانب الآخر منه ويحد المدينة نهر ابو الرقراق حيث مدينة «سلا» على الضفة الأخرى إلا أن الإنسان لا يشعر بالمحيط ، ولا بالنهر ، طوال بقائه وتجوّاله فى المدينة !

والرباط تستدير مبتعدة عن المحيط الذى تطل عليه ، البيوت لا تفتح عليه والطرقات تتوارى بعيدة عنه ، الشئ الوحيد الذى يجاور المحيط مقابر المدينة التى تقع اسفل قصبة «السوداية» لم أجد تفسيراً فى تاريخ الرباط الطويل لهذا البعد عن المحيط إلا نظرة السكان القدامى للمجهول الذى كان يأتى من خلف الأفق الأزرق ، لم يكن البحر يأتى إلا بالشر ، القراصنة ، وأعداء الإسلام من الصليبيين ، والأساس الذى بنيت عليه الرباط يمت بصلة قوية إلى هذا السبب ، فكلمة الرباط تعنى المكان الذى يقيم فيه المجاهدون ليلاً ونهاراً لدفع الخطر الأجنبى !

رباط الفتح

يرجع الفضل فى انشاء المدينة إلى الموحدين ، كان الموقع الذى يطل على نهر ابى الرقراق مواجهاً لمدينة سلا ، أقدم مدن المغرب والتى شيدت فى العهد البونى ، وكانت سلا تقوم بصد هجمات الصليبيين ، ثم أنشأ رباط على الضفة

المواجهة للنهر الصغير ، وفي هذا الرباط استقر مجموعة من المؤمنين الصادقين الذين نذروا على أنفسهم الجهاد ، وفي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) اختار عبدالمؤمن رأس بيت عبد المؤمن الموحدى هذا الرباط (الحصن) ليكون منطلقاً للجهاد في الأندلس ، أقيم معسكر دائم زوده عبد المؤمن بالمياه العذبة عن طريق قناة تستمد مياهها من نبع مجاور ، واستمر المعسكر في النمو أيام أبي يعقوب يوسف ، خليفة عبدالمؤمن ، غير أن أبا يوسف يعقوب المنصور الذي خلف أبا يعقوب في رئاسة هذا البيت هو الذي أمر في بداية حكمه باتمام هذا المعسكر ، وأطلق عليه اسم «رباط الفتح» تخليداً للنصر الذي حققه الموحدون على الفونس الثامن ملك قشتالة عام ١١٩٥ م ، وكان يحيط بالمعسكر سور من اللبن تتخلله أبراج مربعة الشكل ، ولا يزال الجزء الأكبر من هذا السور باقياً ، ويبلغ طوله حوالى أربعة أميال .

وهناك بابان أثريان يرجع تاريخهما إلى ذلك العهد أحدهما يعرف بباب الرواح ، أما الآخر فيوصل إلى القصبية ، قصبية «الوداية» ، وقد أمر يعقوب المنصور أيضاً بتشييد مسجد عظيم داخل رباط الفتح لم يقدر له أن يتم ، ويبلغ طوله ٦١٠ أقدام ، وعرضه ٤٧٠ قدماً ، ولا يفوقه من مساجد العالم الإسلامي إلا مسجد سامراء بالعراق ، كان لهذا المسجد ستة عشر باباً ، وكان به صحن للصلاة يدعمه أكثر من مائتى عمود ، علاوة على ما في المسجد من ثلاثة أروقة أخرى ، ولا تزال مئذنة هذا المسجد قائمة مكانها كما هي لم تتم ، وتعرف باسم صومعة حسان ، وقد بنيت كلها من حجر متناسق ، وترتفع لمسافة ١٦٠ قدماً ، ويوصل إلى شرفتها العليا ممر منحدر هيناً يبلغ عرضه ياردينين ، وتوجد في المغرب مئذنة الكتبية بمراكش ، وتوجد مئذنة أخرى بالأندلس هي مئذنة الجيرالدة ، والمآذن الثلاث تنتمي إلى عصر الموحيدين ، وتبقى صومعة حسان الناقصة كلغز غامض وصل إلينا من أعماق التاريخ ، تجمد على مشارف المحيط .

الاستمتاع بالوحدة

ثم انتقلت الرباط إلى حكم المرينيين وخلال هذه الفترة وقعت حادثة أكسبت الرباط قدراً كبيراً من الأهمية ، إذ أن فيليب الثالث طرد من الأندلس آخر العرب الذين بقوا بها ، عام ١٦١٠ م ، رحل هؤلاء إلى الرباط ، وتكونت جالية من اللاجئين الأندلسيين ، وسرعان ما سيطر هؤلاء الأندلسيون المهاجرون على الرباط وسلا واحترفوا القرصنة ، وتكونت نواة جمهورية بحرية صغيرة ، ولم تعترف بسلطان الشريف الذي يحكم سائر المغرب إلا بصعوبة ، واحتفظ الأندلسيون بعاداتهم ولهجاتهم ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية أن سلالتهم لا تزال تكون الجزء الأكبر من أهالي الرباط ، واستمرت هذه الجمهورية الصغيرة تتمتع باستقلال يكتمل أحياناً وينتقص أحياناً أخرى ، إلى أن تولى العرش السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي عام ١١٧١ هـ (١٧٥٧م) ، فقد حاول أن يسيطر على النشاط البحري لهذه الجمهورية الصغيرة ، ولكن قام أسطول فرنسي بضرب المدينة عام ١٧٦٥م ، وعندئذ بادر خلفاؤه إلى الامتناع عن رفع راية الجهاد في البحر ، وسرعان ما خيمت مرحلة طويلة من الإضمحلال شملت الرباط ، وسلا أيضاً ، حتى احتلها الفرنسيون عام ١٩١١ ، وبعد قيام الحماية أصبحت مقراً للسلطان ، والادارات المختلفة.

وتوصف الرباط الآن بأنها مدينة إدارية ، وانعكس ذلك على إيقاع الحياة بها ، انها مدينة هادئة ، يبدو النهار فيها خالياً من المفاجأة ، تسير الحركة فيها وفقاً لإيقاع رتيب ، تبعاً لحركة الموظفين الذين يذهبون إلى أعمالهم في الثامنة والنصف ، ثم يخرجون في الثانية عشر ليعودوا في الثالثة إلى دواوينهم ، ويعودون إلى بيوتهم في السادسة ، ومع الغروب تتزايد الحركة خاصة في شارع محمد الخامس ، وفي أزقة المدينة القديمة ، ثم لا تحل الثامنة إلا وتخف فجأة ، وكثيراً ما مرت بي لحظات موحشة مع بداية الليل عندما تقفر الطرقات ،

وتغلق المتاجر ، كأن المدينة توقع في دفتر انصراف خفى ثم تمضى تماماً كالوظفين ، كنت ألوذ بوحدة معقمة داخل حجرة الفندق ، أطل من حين لآخر على مسجد السنية بسقوفه الخضراء وجدرانه البيضاء ، يقف هنا منذ منتصف القرن الثامن عشر ، كنت أغوص داخل نفسى . وأصل إلى حد الاستمتاع بالوحدة ، هذا الإحساس الغريب الذى عرفته فى أيام بعيدة ، لم يكن ينتزعنى من هذه الوحدة إلا رنين التليفون ، الصديق الدكتور محمد يراده رئيس اتحاد الكتاب ، أو أحد الأصدقاء الكتاب ، أو الصديقين المصريين مصطفى نجيب ، المستشار الثقافى بالمغرب ، وسمير شحاته مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط ، وكان السهر يمتد داخل أحد المنازل ، لا مقاهى هنا تسهر بعد الثامنة ، حتى المقهى القديم الذى أحببته ، والذى يطل على المحيط فى النقطة التى يبتلع فيها نهر أبي الرقراق يغلق أبوابه مع بداية الليل ، يبدو ليل الرباط بارداً ، طويلاً ، خلوا من الحيوية ، لكن النقيض تماماً ما وجدته فى مراكش .

قلب مراكش

كل المراثيات تبدو وكأن لها بعداً آخر خفياً يتجاوز وجودها المادى ، هذا ما تشعر به منذ اللحظات الأولى لدخول مدينة مراكش القائمة على حافة الصحراء ، اللون الأحمر أول ما يلتفت النظر ، لون أحمر طوبى يكسب المباني كلها بعداً متقارباً ، موحداً ، سواء المباني الحديثة المرتفعة . أو الفنادق الكبيرة التى لا تتناقض عمارتها مع الأسلوب السائد فى المنطقة ، تنتشر أشجار النخيل التى تنمو غزارة فى هذا المناخ الصحراوى ، ويحد افق المدينة سلسلة جبال اطلس ، وتستدير الشمس فى السماء لتتوهج أشقها المنعكسة على ثلوج القمم البعيدة ، بينما يبدو الفضاء منبسطاً ، رحباً ، ممتداً ، ومثل كل مدن المغرب تنقسم مراكش الى مدينتين المدينة الحديثة ، وقد شيدت بعد اعلان الحماية على المغرب عام ١٩١٢ ، والمدينة القديمة ، الأصلية ، ويحيطها سور قديم يصل إلى تسعة عشر كيلومترا وارتفاعه حوالى ثمانية امتار ، وهو متهدم فى معظم

أجزائه، يفصل بين المدينتين ساحة الفناء أو ساحة جامع الفناء ، لا يوجد مسجد يحمل هذا الاسم الغريب ، ويقول بعض اهالي مراكش إن عمليات الاعدام بالسيف كانت تتم في هذا المكان ومن هنا جاءت التسمية ، وفي هذه الساحة قضيت اوقاتاً طويلة أتأمل ما يجرى فيها ، والأحداث التى تشهدها ، وما يجرى في ساحة الفناء يتم كل يوم ، مع مطلع النهار وديبب النشاط اليومى تعلو دقات طبل ، أو لحن موسيقى بدائي ، أو صيحات مرتفعة ، وسرعان ما تتشكل حلقات الناس .

هذا رجل اسمر اللون . له ملامح زنجية ، يرتدى حلة أنيقة ، ونظارة طبية ، يتحرك في وسط حلقة من المشاهدين ، وضع في منتصفها كرسيًا فوقه حقيبة بنية اللون ، مفتوحة ، بها علب صغيرة ، وأعشاب ، إنه يتحدث في انفعال حاد مستمر ، وذلك حتى يحتفظ باهتمام سامعيه ، ويضم متفرجين جددا ، وليس ارتفاع الصوت وسيلته الوحيدة ، إنما حركات ذراعه وإشاراته المفاجئة ، ثم استدارته تجاه بعض الواقفين ، وتوجيه الحديث إلى شخص معين بذاته لثوان ، لا يلبث أن يفارقه إلى غيره فقد توصل إلى تركيبة ، عجيبة ، غريبة ، تزيل الآلام في دقائق ، ثم يشير إلى العلب الصغيرة التى تحويها الحقيبة ، ويتناول واحدة ، ويفتحها ، ويطلب من الواقفين الصلاة على النبى ، قسبل أن يشرح طريقة العلاج.

في حلقة مجاورة كان هناك رجل ضخم الحجم يرتدى عباءة زرقاء ، انه صحراوي ، فوق سجادة يضع مجموعة من الاوانى ، يتخللها جلد ثعبان ضخم بنى اللون ، كان يتحدث عن عادات اهل الصحراء ، كيف ياكلون اللحم ؟ وكيف يتسامرون ، وكيف يتذكرون أيام الكفاح بقيادة محمد الخامس .. رحمه الله .

في حلقة مجاورة ، أب وأم وطفلة نحيلة ، الأب يمسك طفلة ، والام تمسك دفاً ، والطفلة ترقص ، ترقص دقائق ثم تعود لتستريح ، وتكف الموسيقى الفقيرة حتى تستريح .

في حلقة أخرى امرأة عجوز ، كانت تقول كلاماً غير مفهوم ، وتلوح بذراعيها ، ويديها ، وفهمت أخيراً أنها تعد احجبة تقى من الحسد .
رجل آخر كان يتوسط اعمدة خشبية غريبة ، مثبت إليها أجراس ، وحمائم مشدود بسلاسل نحيلة ، لاعب حمام ..

وتجمع آخر يلتف حول رجل يعرض الشعابن ، ثلاثة ثعابين ضخمة من نوع الكوبرا ، غير أن أغرب ما رأيته ، حمار مدرب على الرقص ، وتسخين السيارة .. مجهود هائل يبذله كل من يعرض فنه في ساحة الفناء من أجل الرزق .. اليس هذا ما نفعله يومياً في حياتنا ، أليست ساحة الفناء نموذج مصغر للعالم وما يحفل به .

تقع ساحة الفناء في قلب مدينة مراكش ، وفي جانب منها توجد محطة سيارات النقل العمومي ، تحمل الوافدين والراجلين من وإلى كل مناطق المغرب ، خاصة الريف ، والصحراء ، وعندما يصلون إلى الساحة يجدون كل ما يرغبون في شرائه ، وفي هذه التجمعات مهرجاناً يمتعهم ويسليهم ، وكثيرون لا يمشون إلى الفنادق ، إنما يمشون الليل في الساحة فوق كرسى ، أو فوق قارعة الطريق .

نتجاوز ساحة الفناء إلى دروب وأسواق المدينة القديمة ذات اللون الأحمر الطوبي ، والهواء الجاف الذي يذكرنا بدروب قرى الصعيد الأعلى في مصر .

الصعود والهبوط

في قبر بسيط ، متواضع ، بدون سقف يقولون أن هذه كانت رغبة صاحبه ، حتى لا يفصله شيء عن السماء ، يرقد يوسف بن تاشفين ، اعظم ملوك المغرب في التاريخ القديم ، ومؤسس مراكش ، لقد اشترى موضع المدينة ، وكان ملكاً لرجل عجوز من المصامدة ، وجاء إلى الموضع بخيام الشعر . وبنى مسجداً لصلاه وقبة صغيرة لاختران ماله وسلاحه ، ولم يكن يوجد ماء ، حفرت آبار فظهر الماء قريباً ، عندئذ توافد الناس ، استوطنوا وبنوا بها . هكذا انشأ

المرابطون مراكش ، واتخذوها عاصمة لهم ، وعندما جاء الموحدون بالجامعة احتفظوا بها كعاصمة لهم ، وأنشأ على ابن يوسف مدرسة كبيرة ، تعرف الآن بالجامعة اليوسفية ، وهى جامعة مغربية خالصة ، لها طابعها الخاص ، المستقل عن القيروان والأندلس ، أسست عام ٥١٤ هـ (١١١٦ م) ، وازدهرت مراكش فى عصر المنصور يعقوب بن يوسف ، وفى أيامه جاء الى مراكش ابن طفيل وابن رشد ، وبني عبد المؤمن جامع الكتبية الذى لازالت مؤذنته الضخمة ، القريدة ، تنتصب شاهقة ، ويبلغ ارتفاعها مئة وعشرة أذرع ، وكان فى هذا المسجد مقصورة عجيبة ركبت بحيل هندسية بحيث تنتصب اذا استقر المنصور ووزرائه ، وتختفى اذا انفصلوا عنها ، وقد عمل الموحدون على تأكيد الشخصية العلمية لمراكش ، فأنشأوا فيها بيت الطلبة ، وكان يضم ثلاثة آلاف طالب ، وبنوا مستشفى ضخماً كان الطب يدرس فيه ، وعندما اتخذ بنو مرين فاس عاصمة لهم ، غربت الشمس قليلاً عن مراكش ، يقول ابن الخطيب متأملاً فى ذلك ..

بلد قد غـزاه صرف الليالى
وابـاح المصـون منه مبيع
فالذى خر من بنـاه قتيل
والذى خر منه بعض جريح
وكان الذى يزور طبيب
قد تاتى لـه بها التشريح
اعجمت منه أربع ورسـوم
كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المعانى
وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما

أصبح الدهر وهو عبد صريح
دوخوا نازح البسيطة حتى
قال ما شاء ذابل وصفيح
حيث شبت لهم من الباس نـسار
ثم هبت لهم من النصر ريح
اثر يندب المؤثر لما طال
بعد الدنو منه النـزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى
جسد بعد ما تولى روح

لكن الاهتمام بمراكش عاد مرة أخرى مع دولة السعديين ، والآن تعتبر مراكش من أهم مدن المغرب ، وأكثرها تفرداً ، فيها يلتقى العنصر الافريقي ، بالعنصر العربي ، والعنصر البربري . همزة الوصل بين الشمال والجنوب ، بين الريف والصحراء ، يحرسها سبعة أولياء لهم ترتيب ، وزيارتهم تتم وفقاً لمراتبهم ، أولهم يوسف بن علي وقبره خارج باب اغمات بالسور القديم ، ثم القاضي أبو عباس السبتي ، ثم الإمام عبد العزيز الدباغ ، والإمام أحمد بن سليمان الجازولي ، صاحب دلائل الخيرات ، والإمام السهيلي فيلسوف النحلة ، والشيخ محمد الغزواني ، وكلهم مدفونون بسور المدينة ، عدا الإمام السهيلي .

فلسفة الأناشيد

في مراكش حيوية دافقة تشعر بها طوال اقامتك . وتنوع خصب ، تلمح في الطريق ، الاهالي بزيتهم المغربي التقليدي ، ولا تخطئ العين خريجي جامعة ابن يوسف وزيتهم المغربي التقليدي وغطاء الرأس المبطن بقماش ابيض خفيف ، يقول مولاي الطيب المريني أحد أدباء مراكش ، الذي درس وتخرج وعمل

بجامعة ابن يوسف ، أن أهالي مراكش يتميزون بروح ساخرة ، والنكتة المراكشية ، يقول الشاعر المراكشي محمود إبراهيم :

**نكاتا يرسل النكتة اللطيفة سهما
والمصائبون في الحضور قليل**

ويخرج أهالي مراكش في حلقات إلى الصحراء القريبة ، يلعبون «الدقة» ، وهي لعبة تستمر طوال الليل ، وتتخللها أناشيد موسيقية ، تعزف خلالها الآلات المغربية التقليدية «التعريجة» وهي عبارة عن دف مستطيل ، و«القراقش» وهي النواقيس الصغيرة ، والصاجات و«النبير» أي الطبل ، و«النفار» أي البوق ، وتدور الأناشيد حول موضوعات دينية ، وغرامية ، وتأملات لها طابع فلسفي ...

* * *

يحل الليل ، ولا تهدأ الحركة ، لا تخفت الحيوية في تلك المدينة التي لا يشعر فيها الإنسان بالوحدة ، المليئة بالزحام ، في ركن من ساحة الفناء ، كانت هناك فتاة أوروبية ، حافية القدمين ، تبكي وتصرخ ، لقد فقدت أوراقها وحاجياتها وزملاءها ، وتجمع حولها بعض المواسين ، وأغلبية من المتفرجين ، في ساحة الفناء تغنى الجهود من أجل الرزق، ومن الممكن أن يضع الإنسان ، ليس في المكان ، إنما في الزمان الخاص أيضاً ، والذي يكسب مراكش طابعاً غامضاً ، بحيث تظل عالماً قائماً بذاته ، قريب جداً ، لكنه أيضاً .. شديد النأي ..

١٩٧٩

الحرف التقليدية الإسلامية في العمارة المغربية

١٩٨٣

«.. تتنقضى أربعة أعوام على رحلتى إلى المغرب ، ولا يزال الحنين يتصاعد إلى هذا البلد العربى ، والذى صان الأصالة العربية ، والجمال العربى ، والفن المعمارى العربى ، لا يزال انبهارى طازجاً ، وكأنه وليد الأمس ، كأن السنين لم تنقض ، والأيام لم تمر ، أحد عناصر انبهارى هذا بعد الشعب والطبيعة ، فن العمارة المغربى ، المدن المغربية القديمة ، المنمنمات ، والزخارف ، التى تتسم بعظمة الإنسان ، وصبره ، وسموه ، فالفن الإسلامى يستند إلى إلهام دينى بالدرجة الأولى ، وقد لخص الأستاذ الفرنسى جاك بيرك رؤيته فى هذا الصدد .

«يمكن تعريف الفن الإسلامى بأنه فن غير تصويرى طبقاً للأمر الإلهى، ونظراً لأن الله هو المصور الأعظم ، فإن كل تصوير تشبيهى وخصوصاً كل نحت يعتبر كفر لأنه غير جائز ، إذ فيه منافسة غير مشروعة للخالق ، كل شيء فى الزخرفة العربية هو تركيب وتلاق : إذ يجتمع قصد الفنان مع الإبرك الحسى والمادة فى تكامل وثيق .

الفن الإسلامى يتضمن إحساساً راقياً بالوحدة الجمالية ، إنه فن يرتقى بالإنسان إلى عالم الشفافية ، نجد فى العمارة الدينية ، أو المدنية ، وحتى زخرفة أبسط الأدوات ، شهادة إنسانية على وحدانية الله ودوامه ، ان فكرة الجمال - كما يقول المفكر الإسلامى المغربى على اللواتى - ترتبط عند المسلمين بالتسبيح

وهو الثناء على الله ، أو ببساطة ذكره تعالى . فأغاريد الطيور تسبيح ، والزهرة اليانعة تسبيح ، أما الجمال الإنساني فهو قمة التناسق وما الفن الإسلامي الزخرفي إلا تسبيح عميق تتعدد مظاهره وتملأ الكون ، وتأتي المرحلة الاندلسية المغربية لتشهد معها ولادة قمة فن التسبيح التي لا قمة فوقها ، قصر الحمراء الذي تجلت فيه غاية النضرة والروعة حيث تتجزأ المادة إلى أقصى ما يكون التجزؤ ، وتبدو في شكل تخاريم وشبائك دقيقة حتى وكأنها تفقد قوامها ووزنها فتبدو كهاجس في خاطر .

وإذا كانت منمنمات وزخارف الحمراء تمت إلى الماضي ، فإن هذا الفن الرائع لا يزال حياً في المغرب العربي ، لا يزال جزءاً من حياة الشعب اليومية ، وخلال السنوات الأخيرة شهد هذا الفن دفقاً جديداً من الاستمرارية كان المغرب هو البلد العربي الوحيد الذي لم يسيطر عليه العثمانيون الذين هيمنوا على البلدان الإسلامية الأخرى ، وتلك نقطة هامة في تأكيد الذاتية الصادقة للفن المغربي ، هذا الفن هو محور هذا الكتاب الضخم الذي صدر أخيراً في فرنسا بثلاث لغات ، الفرنسية ، والانجليزية ، والعربية ، المؤلف مهندس فرنسي ، أندريه باكار ، مهندس زخرفة منذ عام ١٩٥٤ ، ومنذ عام ١٩٧٠ ، كرس كل جهوده للعمل في المغرب في مجال العمارة ، سواء ترميم القصور والمباني القديمة ، أو انشاء العمارات الحديثة ، الدينية والمدنية ، والتي تستند إلى التراث المعماري المغربي ، وتنهل منه ، استهدف المؤلف غرضين أساسيين :

* تقديم وثائق مصورة لم يسبق نشرها لكشف بعض الجوانب التي لم تعرف بعد عن الفن المغربي التقليدي ، وقد أتاحت له فرصة نادرة ، عندما أمر جلالة الملك الحسن الثاني بفتح أبواب القصور الملكية لعدسة المصور لأول مرة في التاريخ .

* الهدف الثاني ، نقل شهادة المعلمين المغاربة ، أساتذة الحرف التقليدية في العمارة .

باختصار يكشف هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين ضخمين أسرار فن العمارة المغربي ، ويقدم ما يشبه قاموساً فنياً مصوراً لمفرداته ، ومن قبل ذلك البشر الذين يبدعون هذا الفن العظيم .

المسجد هو القلب

في العمارة المغربية أربعة مفاهيم أساسية ، أماكن الصلاة ، المساكن ، والتخطيطات النازمة ، والخط العربي ، يقول المثل المغربي ، «الدار أول ما يجب أن نملك ، وهي آخر ما يجب أن نبيع ، إذ هي قبرنا في الحياة الدنيا» ، وفي عام ١٩١٤ ، قال محمد ابن الرامي البناء الفاسي ، ان قواعد حسن الجوار تنطلق من عاملين أساسيين ، أولاً : لا تمنع جارك من تثبيت خشبة سقفه في جدار دارك الخارجي ، ثانياً : لا تبين دارك بحيث تكشف فناء جارك» .

وكل من زار المغرب بلا شك يذكر الدور المغربية ، حيث تطل على الشارع بجدران وأسوار أشبه بالحصون ، وينفذ الإنسان من المدخل فإذا به يفاجأ بالحديقة الفسيحة ، والفناء الواسع ، فكانه اليسر بعد العسر ، اليسر في مأوى الإنسان ، بيته ، تتركب الدار المغربية من وسط الدار ، فناء مربع الشكل ، مبلط بقطع الزليج (السيراميك) ، يتوسطه عادة حوض ماء من الرخام وتحلية شجرة برتقال أو ليمون ، وتقام الحجرات على ثلاثة أو أربعة أوجه من الفناء في طابقين أو ثلاثة أحياناً ، وتحمل الأعمدة سقف هذه البيوت ، وسواء كان البيت المغربي عظيماً أو متواضعاً فإنه يقام حول فناء فسيح يسمى وسط الدار ، ولا بد أن تبدو عليه المسحة الجمالية ، وعند مدخل الدار يقع مدرج يؤدي إلى قاعة فسيحة تقام فيها المآدب والاستقبالات ويوضح لنا هذا التنظيم حرص المغربي على أن يفصل بحياء بين حياته العائلية والحياة الاجتماعية ، وقد تحددت معالم المسكن المغربي على هذا النحو في القرن الرابع عشر الميلادي أثناء حكم المرينيين .

والمسكن المغربي هو الوحدة الأساسية التي تتشكل منها المدن المغربية ، غير أن المسجد هو القلب والمركز ، سواء المسجد الجامع الرئيسي أو مساجد الأحياء المختلفة ، وإلى جانب ذلك الحمامات العامة ، ويقضى تقليد أندلسي بأن يكون السوق قريباً من المسجد الجامع ، والسوق تتكون من مجموعة من الأزقة المظلة ، يحف بكل زقاق من الجانبين حوانيت أو مشاغل الطوائف . الطظارين والحدادين والنساجين والنجارين والنحاسين ، وتغلق الأسواق أثناء الليل ، وتفرض الحراسة على بعض الأقسام خاصة سوق الذهب ، وتقام الفنادق عادة عند مداخل المدن ، وفي الريف تنتشر الرياض ، وهي حدائق على الطراز الأندلسي تحيط بأحواض زهورها وأشجارها مسالك مبلطة بالرخام أو الزليج الملون ، وتوجد الروضة أحياناً في قلب قلعة حربية لتخفف من حدة تركيبها الهندسي الجاف ، وجدران الحديقة هي بمثابة سور قلعة العائلة التي تطل على الداخل ولا تتشرف على الخارج إلا من خلال باب صغير وندرة من الشبابيك الضيقة تفتح في الجدران العالية ، كما أن الرياض تمثل بصفة رمزية سمة مشتركة في جوانب متعددة للحياة الإسلامية ، وقد انعكس هذا على الفنون الزخرفية ، فنجد أن الأبسطة تستلهم أشكالها من غزارة الخضرة ، وتمثل مجموعة الزخارف المستلهمة أصلاً من المصدر ذاته وهو الطبيعة التي تشكل في الجص ، ولوحات الزوراق ، خاصة التشجير والتوريق ، مصدر الهام أيضاً لفن زخرفة الأواني الفخارية ، وبلاطات الخزف ، والأنسجة والمخطوطات .

يقول الاخوان تارو :

«إن كل من تفتح أمامه أبواب هذه المساكن يشعر انه يترك وراءه سعادته أو شقاءه ليدخل في هذه الدائرة التي تفقد فيها هذه الأحاسيس دلالتها على ذلك الواقع المؤثر والغامض في الوقت نفسه» .

ويخصص أندريه باكار قسماً للقصور الملكية المغربية ، وكما تحوط المسكن عادة روضة تتوسطه ، تتجه أبنية القصر إلى الداخل ، وتحيط الأجنحة

الملكية بالقصر ، ولكل قصر مسجده الخاص الذى يكون عادة أقدم ما فى القصر، وكقاعدة يشتمل القصر على أبنية أخرى تضم الخدمات اللازمة لتسيير أمور الدولة ، وكما هو الحال فى المساكن فإن القصر ينخلق على نفسه ، غير أنه لابد باعتباره صورة للدولة أن يكون ذا مظهر خارجى يعكس احترام الأمة واستمراريتها ، فإذا كانت التقاليد تقضى بأن تحتفظ الأسوار بتقشفها ، فإن بوابات القصور الملكية البديعة الصنع والمزوقة باتقان تشهد على ما يجب أن يكون عليه الترحيب بزائر كبير ، وتغطى سقوف القصر عادة بقراميد خضراء ، وهو كساء لا يقتصر على القصور الملكية ، إنما تختص به مختلف الأبنية الملكية مثل المساجد والمدارس ، ومن أقدم القصور الملكية فى المغرب ، قصر الباهية ، الذى يعود إلى القرن التاسع عشر ، شيده أبو أحمد وزير مولاى الحسن الأول ، فى «الباهية» وضع البنائون أنشودة تتغنى بأهم الفنون ، ألا وهو فن الحياة ، فشيّدوا قصرا بالغ الدقة ، ولم يتركوا شكلا من أشكال البلاغة المعمارية إلا استخدموه فى تأليف تلك الأغنية التى تشدو بالسعادة الأرضية الكاملة ، و«الباهية» تيه من المعابر التى تقود إلى بيوت (قاعات) ذات سقوف أبدع نقشها وكسيت جدرانها بلوحات الزليج الساطعة ، وزينت الأبواب بباقات التشجير والتوريق المتعددة الألوان ، أما أحدث قصر فى المغرب فهو قصر أغادير ، وفيه تم الحفاظ على تقاليد العمارة المغربية ، وتقرر العودة إلى تقليد قديم كاد يتلاشى وهو يقضى باستشارة المعلمين من مختلف المجالات حتى يلتزم الجميع بالعمل فينتج شكلاً من أشكال الابداع الجماعى .

الزخرفة المغربية

الدار المغربية منغلقة ، فهى من الخارج ليست دافئة المظهر وذات سطوح عارية ، وجدران صماء لا يتخللها إلا باب واحد ، غير أنك إذ تجتاز هذا الباب تدهشك فتنه خلابة ، فتكتشف عالماً ساكناً متعدد الألوان ، إن ارتفاع المبانى وعدم الاهتمام كثيراً بالاثاث ينسب أى فكرة للمسافة ، فيتيه الفكر فى استرخاء

بين ترددات الأشكال والألوان ، تحيط الزخارف سكان الدار فكانها صندوق الأحلام ، ولا يوجد في التقاليد المعمارية المغربية ذلك المفهوم السائد في الغرب في الوقت الحاضر عن العمارة باعتبارها فناً مستقلاً لتركيب وربط الأحجام في الفضاء ، فالمعلمون المغاربة يزدرون الأسمنت المسلح ويعتبرونه مجرد دعامة لمسطحات يكسونها من الداخل بالزليج أو الجص المنقوش ، أو الخشب المقرنص ، فالمعمار المغربي هو الزخرفة ، ومهما كانت المادة المستخدمة في تشكيل الزخرفة فإنها تلتصق بالجدران والأعمدة والسقوف كبشرة تكسو المسطحات الداخلية ، يقول أندريه باكار أن احترام التصميم هو القاعدة الذهبية ، وكل شيء ينفذ على أساس بعدين اثنين ، علاقات المساحات الملونة والاتصال فيما بين الألوان ، ويعالج الجص المنقوش حتى إذا كان النقش بالغ العمق بحيث يؤخذ كل مستوى على حدة ، فالأشكال الجصية لا تمثل أحجاماً وإنما على العكس ينظر إليها على أنها علامة بين الأبيض والأسود تنشأ من الظلال الممدودة التي تدور مع الضوء . أن فن المعلمين المغاربة فن حي وحساس تصنعه الأيدي الماهرة ، وسمو فن هؤلاء المعلمين تصنعه الجهود والأبحاث اليدوية ، أن الرسام يملأ الفراغات بانتظام فيستخدم عند الحاجة عناصر متكررة كخلايا النحل ، ويحدد المؤلف أشكال الزخارف المغربية بأربعة أشكال رئيسية :

* زخرفة متعددة الأضلاع تقوم على خطوط مستقيمة .

* زخرفة زهرية تقوم على خطوط منحنية ، التوريق ، والتشجير .

* عناصر المأل .

* الخط العربي .

ويورد المؤلف الأشكال المستخدمة في تفصيل بديع ، المربع ، والمثلث ، والدائرة ، واللؤلؤ ، والشكل الخمس ، والشكل المثلث النجمي ، والشبكات ، والعقد ، والصفائر ، ولا يكتفى بإيراد الشكل إنما يبين أصله التاريخي ، ثم

موضعه في الزخرفة الكلية عندما يصبح متحداً مع بقية العناصر ، ويتتبع نشأة الشكل في تطوراتها التاريخية المختلفة ، وهنا يعد الكتاب بحق قاموساً فنياً فريداً من نوعه لعناصر الزخرفة المغربية ، ويتتبع طرق التنفيذ المختلفة بدءاً من تخطيط الزخرفة تخطيطاً أولياً على الورق ، وحتى إكمالها في العمل المعماري نفسه .

الخط العربي

هناك أربعة أنواع للخطوط بصفة عامة في كتابة المغرب العربي ، القيرواني ، والأندلسي ، والقسنطيني ، والمغربي أو الفاسي ، في المغرب تسود الكتابة الأندلسية المغربية بتلافيها الرشيق وخطوطها الممتلئة والمشوقة المتنوعة بلا نهاية أما الكتابة الفاسية فإنها تتميز بالسبك الواضح لخطوطها الرأسية ، وبعدم وجود النقط على الحروف ، وقد جرت العادة على أن يتضمن الزخرف أية قرآنية ، أو حديث شريف ، أو مجرد أبيات شعرية ، ومن أكثر الكتابات شيوعاً البسملة وهي فاتحة الكتاب المنزل ، وقد كتبت هذه العبارة بمجموعة فائقة من الخطوط ، وينبغي للأفريز الذي ينفذه الفنان المغربي المسلم أن ينقل القارئ للتطلع إلى طريق الوحي ، ولا بد أن يمر كل شيء بالآيات الكريمة ويرجع إليها ، كما هو الحال في الكتابات الجارية ، التي يمثل فيها كل انحناء عودة ، وتغطي هذه الكتابات في المغرب ، أكثر من أي مكان آخر سواء أكانت شعراً أو نثراً الحوائط الضيقة وتلف القاعات بالكامل ، وهي أما تكون من ملاط الجص أو الخشب أو المرمر . والحروف في الخط الكوفي القديم زاوية وترسم بتأن على شبكة من الخطوط الأفقية والعمودية وتقع صواري الحروف على المستوى الرأسى وتزداد عرضاً في اتجاه القمة وتنتهي بحد مشدود مقعر ، وتبدو الكتابة دائماً كعنصر تكويني في الإطار الزخرفي العام وتكون إما في لوحات متجمعة أو في شرائط متصلة أفقية أو أسية . وقد أوحى الخط للفنانين بأشكال رائعة تندمج تماماً في الزخارف المحيطة بها اما بالتشابه أو بالتباين ،

وقد كان تزيين الكتابة بزخارف زهرية مثلاً للابتكار والتوازن على الدوام ، كما يشيع استخدام الرسم الكوفي وهو رسم مشتق من الكتابة الكوفية لكنه فقد وظيفته الكتابية ليتحول إلى عناصر زخرفية محضة ، والرسم الكوفي غنى بـذخيرة لا مثيل لها من الزخارف التى يجمع المعلمون بينها وبين زخارف التوريق والتشجير .

وإذ ينتهى المؤلف من الأجزاء الخاصة بدراسة عناصر المعمار المغربى ، يعود إلى الأصول ، إلى المواد الطبيعية التى يتم تشكيل المعمار منها ، ويخصص فصولاً مستقلة لهذه المواد ، الطين ، والحجر ، والجص ، والخشب ، والمعدن ، والماء ، ويشرح بأسهاب تقنيات الأعمال التى تحول كل مادة إلى عنصر من عناصر المعمار المغربى الجميل ، كذلك يخصص فصولاً مستقلة لشرح صناعة وأنواع أجزاء العمارة نفسها ، بدءاً من المداخل والأبواب حتى السقوف والمقرنصات ، وعبر المجلدين الضخمين تتناثر فصول يقدم فيها هؤلاء الفنانين المغاربة العظام الذين يقفون خلف هذا الإبداع الرائع ..

أكبر المعلمين سنأ

المعلم عبد الكريم ، يقول عنه المؤلف انه من أكبر المعلمين المغاربة سنأ فى الوقت الحاضر ، لقد سلك الدرب الذى سار عليه والده . ولد فى نهاية القرن الماضى ، ثم عمل لمدة أربعة وثلاثين سنة بشكل متواصل كان ذروتها عمله فى ضريح الملك محمد الخامس الذى يعد تحفة فنية عالمية بحق ، يقول المعلم عبدالكريم إنه يختار عماله بعناية ومن يقع عليه الاختيار يرافقه مرافقة تامة ، ويساعده فى جميع أعماله ، حتى يتعلم الصنعة بالممارسة ، ولا يصبح العامل معلماً بدوره إلا بعد وفاة أستاذه . يتحدث عن الجيل الذى سبقه ، خاصة عن معلمه القندوسى الذى عاش فى عهد مولائى عبدالعزيز ومولائى محمد حسن الود غيرى ، لقد كان معلمو الماضى يعيشون حياة أفضل ، انه يكاد يحسدهم على مساكنهم الجميلة ، يتحدث عنهم بإحترام وإجلال ، خاصة الاموات منهم ،

يقول إن المغرب هو مصدر جميع المواد الخام التي تستخدم في العمل ، الرخام الأحمر والأسود يستخرج من ضواحي بنى أحمد ، أهم أعماله هي :

- في سنة ١٩١٩ ، بنى دار المريني وقصر التازي بالرباط .

- في سنة ١٩٢١ ، مسجد مولاي يوسف بدرب السلطان بالدار البيضاء .

- في سنة ١٩٢٢ ، بنى مسجد أهل قاس بالرباط .

- في سنة ١٩٢٣ بنى حي الحبوس بالدار البيضاء .

- في سنة ١٩٢٤ ، قصر أعيابو بفاس .

- في سنة ١٩٧٠ ، بنى أهم أعماله ، وهو ضريح محمد الخامس .

- في سنة ١٩٧٥ ، أشرف على تجديد قصر الرباط .

والمعلم عبد الكريم يؤمن تماماً بأهمية العمل الفني الروحية ويدرك دور المعلم باعتباره دوراً حيوياً من أجل إضفاء الروح على كل مسكن يبنيه، لكنه يقول إن السر يكمن - في النهاية - في الساكن لا المسكن ويقول أكبر معلمى المغرب ، والذي يرجع إليه الجميع ..

«انه يجب أن يغلب الاعتبار الجمالى على الاعتبار النفعى ..».

ويتضمن الكتاب نماذج عديدة للمعلمين المغاربة العباقرة ، البشر الذين يقفون وراء هذا الجمال كله ، وهذا التراث الفني الاصيل ، الذى جعل المغرب من أغنى دول العالم العربى والإسلامى بتراث الفن البديع النابع من تقاليدنا الخاصة ، وروحنا ، ومن عناصر هذا الفن صاغ أندريه باكار المهندس الفرنسى هذا العمل الضخم الذى يعد المرجع الاول من نوعه لفن هذا البلد العريق .

* * *

ساحة الفنا ..

فبراير ١٩٨٩

.. عنصران .. لأحالي في مدينة مراكش يكسبانه بعضاً من الخصوصية التي تدفع بها إلى تلك الحافة الرهيفة الفاصلة بين الحلم والواقع ، بين الظاهر والخفى ، بين المرئى وغير المنظور . أولهما ذلك الجبل الذى يؤطر الأفق المحيط، المترامى ، جبال الأطلس الصغير المطلة بصحاف فضية كونتها الثلوج التى لا تغيب معظم شهور السنة فى لحظة تلاقيها بالبصر تلغى الحضور الصحراوى للمدينة التى يثبت أركانها شجر النخيل ويمنحها ديمومة الأزل .

ثانيهما ، ساحة جامع الفنا ..

ساحة فسيحة ، تتوسط القلب منها ، تطل عليها مثذنة جامع الكتبية العتيقة، الشاهقة ، المغروسة فى تاريخ عميق ، تمتد أمام مداخل السوق القديم المغطى ، المضموم ، المنبسط ، المتشعبة طرقاته ودروبه كالأوردة فى الجسد .

نزلتها أول مرة عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين ، جلست بها وتعلقت بمظاهرها ، إلا أن محدودية الوقت المتاح كانت حائلا ، وبعد عشر سنوات ، فى مارس الماضى ، جئت إلى المغرب لحضور حفل توزيع الجوائز الأدبية للكتاب ، ستة أيام مراكشية الحضور والإقامة ، خلالها سعت إلى الساحة الغريبة ، الغامضة ، مرة فى جمع ، ومرات بمفردى ، فى أوقات مختلفة ، فى الصباح الباكر ، فى الظهيرة الحادة ، فى العصر وما يحتويه من خُسْرٍ ، فى عمق الليل ، وفى كل مرة كنت أمعن فى الرحيل ، فى التأمل . فى المعاشية لما أرى، صرت مشدوداً

إليها، وعندما أقلعت عائداً إلى ديارى كنت عامر النفس بصور شتى ، ومعانى عديدة ، بعضها يمكننى الإفصاح عنه ، وكثير منها يظل فى هذه المنطقة التى يحس ما فيها ولا يمكن للكلمات احتواء مضمونه.

* * *

لماذا ساحة جامع الفنا ؟

لا يوجد مسجد يطل عليها ، أو قريب منها اسمه «الفنا» ، فمن أين جاء لفظ جامع الفنا ؟ لم يكن هناك فى زمنها القديم جامع يحمل الاسم ، إذن فاللفظ يعنى الجانب الآخر من المعنى ، الفنا بمعنى العدم ، التبدد ، التلاشى ، فى لسان العرب لابن منظور يرد لفظ الفنا بمعنى نقيض البقاء ، يقال أفنى القوم بعضهم قتلاً ، تقانوا أى أفنى بعضهم بعضاً فى الحرب ، ويقال يفنى فناءً ، أى هرم وأشرف على الموت هرمًا ، أما ابن الاعرابى فيقول ، دجل من افناء القبائل ، أى لا يدرى من أى قبيلة هو ، يقال هو من افناء الناس إذا لم يعلم من هو ، إفناء الناس تعنى أيضاً تشعبهم وانتشارهم .

أجول ببصرى فى ساحة الفنا ، كل من يقفون بها غرباء ، عابرون ، ومن يجىء اليوم ربما لا يظهر غداً ، وهذا الواقع ينفخ مزماراً يحرك بنغماته اشد أنواع الثعابين فتكاً لن تلتقا غداً ، وإذا لقيته غداً قلن يكون هناك بعد غد ، وهذا الرجل الذى يعلن قدرته على تفسير الأحلام ، وكشف غوامضها لم أره إلا مرة واحدة ، وفى اليوم التالى كان هناك غيره فى نفس الموضع ، ولكنه يفرش أمامه ملاءة من قماش عليها علب صغيرة بها دواء واحد لكنه قادر على شفاء كل الأوجاع ، ذكرنى بالرجل الذى كان يقف فى ساحات القاهرة القديمة يعلن بحماس مبالغ فيه ، وتأكيد عظيم ، ان شربة الحاج محمود تقنى كل أنواع الدود، وتحمى القوى ، وتجري الدم فى العروق .

من أين جاء هؤلاء الرجال الستة ؟ لا أحد يدرى ، ولم يسألهم انسان عن الجهة التى اقلعوا منها ، أو مقصدهم ، يمسون آلات موسيقية غريبة لا

اعرفها، يعزف خمسة منهم ، وينشد السادس مواويل حزينة بلهجة غامضة واسأل ، يقولون لى أنهم من قبائل الجبال ، أى قبائل وائى جبال ؟ وكم يربحون مقابل هذا الجهد المضنى المبذول فى ساحة الفنا ؟ ، ألمح دريهمات معدودات فوق منديل مبسوط فوق الأرض ، وكأنه حضٌ خفى للآخرين كى يدفعوا.

يتجمع العابرون من أهل المدينة ، وأهل المدن البعيدة ، والقادمون من ديار جد نائية مثل ، حول غرباء مثلهم نزلوا الساحة ، ولكن يختلف الغرض ، الأول جاءوا للفرجة ، لافناء الوقت ، والآخرين يقدمون ما اتقنوه ، من رقصات تبدو غريبة ، أو أغانى . أو مقاطع تمثيلية قصيرة يشتبك خلالها اثنان حتى ليخيل اليك ان أحدهما سيفنى الآخر ، ولكن الأمر تمثيل فى تمثيل لافناء المجهود من أجل كسب القوت الذى يجدده مرة أخرى ليفنى وليفنى .

أطيل النظر إلى رجل وحيد ، يتكلم بإنفعال شديد ، يشير إلى أعشاب مختلفة صفها أمامه ، بينها بيض نعام . وحرباء حية كلما أوشكت على الافلات أعادها ، يغمض عينيه ثم يفتحهما ، يلوح بأصبعه ، يضرب الأرض براحته ، وأهل ملامحه ، ملامح أخرى لسياسيين يخطبون ، وشعراء المديح ، وكلمات الثناء الزائفة يلقيها كتبة من عصور شتى . والوعود المبذولة .

أتجاوزة إلى موضع آخر ، يستوقفنى رجل يمسك قرداً مدربة على ألعاب معينة ، ومثل هذا أعرفه ، أما الذى لم أره فى مكان آخر فذلك الحمار الذى يدخل سيجارة ، احتطت لمجيئى فتزودت بدراهم معدودة ، أحياناً يخرج أحد رجال الساحة من حلقة الرقص أو الغناء ويلح ، ويدركنى خجل ، حتى اولئك الذين يعرضون ما عندهم من كتب قديمة فى صمت يليق بالسحر والتنجيم وتلك الاشكال الغامضة من مثلثات وزوايا ، وأرقام بسطوها أمامهم .

ها هو رجل يجلس وحيداً والى جواره شاب يرتدى الجلباب المغربى ، الرجل أمامه كتب عتيقة ، وأوراق مخطوطة ، يهمس إلى الشاب ، يفك له كربة ، أو يساعده على الخروج من ضيقته .

انتقل من حلقة إلى أخرى ، عبر الساحة مرات ، لا اجتاز موضعاً محدوداً
بمكان ، إنما اسبح عبر ملخص مركز ، وافي لكل ما تحمله وتضج به الحياة .
بينما افكر وامعن في تلك التسمية العبقريّة ، ساحة جامع الفنا ، قال لي صديق
مراكشي قح انهم أطلقوا عليها في الزمن القديم ، ساحة الريح ، لأن من يجيئ
إليها يعمل ليربح ، لكن مع إمعان الفكر والبصيرة ، اتضح أن هناك من يربح
ومن يخسر ، وأن من يربح اليوم يخسر غداً ، ومن يحل غداً قد لا يظهر بعد غد ،
وأن الكل عابر بها ، غير مقيم ، العارض والمتفرج ، لهذا جاءت هذه التسمية
ساحة جامع الفنا .

حتى لو أجهد البعض عقولهم ، وقالوا إن الفنا تعني الساحة ، فالغوص في
معاني لغتنا الرائعة يؤكد المعنى الأول ، يقول ابن منظور : الفناء ، سعة أمام
الدار والجمع أفنية ويقول عن ابن جني : هما أصلان ، وليس أحدهما بدلاً من
صاحبه ، لأن الفناء من فنى يقنى ، وذلك أن الدار هنا تقنى ، لأنك إذا تناهيت
إلى أقصى حدودها فنيت ، هكذا يقتزن الفناء بالعدم ، بالتغير ، التبدل ، الزوال ،
التجدد ، تماماً كما تشهد ساحة الفنا ذلك في كل لحظة .

* * *

في الليل تتكاثف الحركة ، الموسيقى هنا ، الخطب هناك ، الأفاعى ، القروء ،
السحر ، تفسير الأحلام ، الرقصات ، في الجانب القريب من مدخل السوق
القديم تنتصب عشرات الموائد ، مطاعم ليلية تستمر حتى الفجر في الهواء الطلق ،
يقدم بعضها الحريرة المراكشية ، ويقدم الآخر السمك المقلّى . أو اللحم ، رجال ،
نساء ، مراكشيون ، أغراب منهم أجنب . يلتهمون الطعام في نهم ، على مقربة
باعة عصير البرتقال ، وبين هذا وذاك امرأة شابة تغطي وجهها بالنقاب
المغربى ، تستوقف المارة لتبيع بعض الأساور أو السلاسل الفضية ،
في الليل يبلغ بذل المجهود أقصاه من أجل الرزق ، تتأجج الحياة ، وبقدر
تصاعد ديمومتها . بقدر ما يتسارع الفنا ..

* * *

من ساحة الفنا جئت بكتاب عن تاريخ المدينة ، مؤلفه ابن الشرقى حصرى أحمد ، أورد فيه وصف بعض الأجانب لساحة الفنا في أزمنة مختلفة ، لم أجد فيه ما يفسر لى قانون الساحة ، ولا اسمها أيضاً ، ولكن الأوصاف التى حفل بها تؤكد لنا ان المعنى والمظهر لم يتغير كثيراً . يقول اورييان زارا الساحة في بداية القرن :

«ومن جملة وسائل الاسترزاق تحت نسيج القصب الذى من خلال فجواته ينبعث النور والظلال المحبوبة لدى عشاق التصوير ، تمر أفواج من البشر تنبض بالحياة . مع انه يظهر على ملامحها الحرمان وبداية مرنة وخشنة في آن واحد في ألفة مرحة .

الاستان بيضاء ، والأجساد تحرك بدون عناء من لباس صوفى ملف يغطى نصف الجسد . اناس أتوا من جميع الجهات القروية ، من الجبال ، من السهول ، مع حميرهم ، وبغالهم ، وجمالهم ، برابر ، عرب ، سود ، شبه سود ، جميع أنواع الألوان البشرية ، من لون الخبز الناضج إلى ما تطبعه الشمس المحرقة على البشرة . كل هذه الجموع المتحركة تتجه نحو مقاصدها - وكل يحمل خنجراً بجانبه - أفكار وأمانى . حاجيات اجتازها بدون فهم لمضامينها ، وتقودنى دائماً تلك الموجة إلى ساحة غريبة حيث الجموع تتقاطر عليها كل يوم في بسيط أمام من يرفه عنها ..

وأنا بدورى خلب لى طيلة ساعات بانتباه مثل جاهل امام كتاب عظيم مفتوح ، نعم ، انها حقيقة ، ساحة غريبة يهرع إليها من كل فج اناس يطلون ليروا ما يجرى وسط الحلقة . في هذه الحلقات تجتمع وتتفرق من الصباح إلى المساء جموع من المتفرجين حول بعض المشعوذين المتحركين بخفة ذكية .

هناك حلقة راقى الثعابين والحيات . يتحرك مزبداً ، منقوث الشعر أمام كيس من الجلد ، تنطلق منه ثعابين سوداء لامعة ، والراقى يقفز حولها ذاكرة

تراثيله بعنف وخفة المشيدة بفضائل الأرض التى تدركها الثعابين أكثر من أى كائن حى ، ويطوح بشدة رقبته ورأسه ذى الشعر الطويل الأشعث .

وكثيراً من الأحيان يترك الساحر زواحفه ليهتم برجل أو امرأة تخرج من صفوف المتفرجين للتقرب منه ، وتسرع إليه بما يختلج فى صدرها فى أذنه وينتهى آخر فصل من الدراما ، بعض الراقي الثعبان ثم يعض الزبون ، أو يأخذ الثعبان ويضعه فى يدي السائل أو فى عنقه كما يوضع الوشاح الحريري البراق ، ثم على الصدر من تحت الملابس فى غمرته من حمى قرع الدفوف ، ودعاء الجمهور يبتعد عن المريض مزجراً يملأ زبونه بلعابه السحري الراغى بغزارة من شفتيه .

والقصاصون المرتدون لللبسة أنيقة ، يبدأون حديثهم بتلاوة أشعار مشفوعة بنقر منسجم يتخلل الحديث نقرتين أو ثلاثة حادة على دف صغير لاتزان الإيقاع ، وإيقاظ العقول والإيماءات الطويلة بالأصابع واليد ... الخ» .

* * *

انأى عن ساحة الفنا ، ولكن تفاصيلها تبقى عندي ، الحلقات ، المتفرجون ، العابرون ، الموسيقى ، الأغاني ، الأشعار ، حلقات المصارعة ، التمثيل ، تفسير الأحلام ، الوعظ ، الأعشاب الطبية ، الاشارات الواضحة ، الغامضة ، الكلمات المتتابة ، تقلص الملامح ، ابداء الجدية ، الإنفعال الزائد عن الحد ، ضرب الأرض أحياناً بقبضة اليد ، التلويح فى الفراغ ، الترغيب ، الترهيب ، الاقناع ، فى كل مشهد صورة لما يجرى فى هذا العالم الفسيح ، وفى كل لحظة تلخيص لما يتم فى لحظات معينة من عمر الدنيا التى نحيا ، والتى تقنى بمن فيها باستمرار ، باستمرار ..

فى ساحة الفنا أدركت أصول اللعبة !!

البينة

فبراير ١٩٨٩

مراكش ..

نزلتها أول مرة منذ عشر سنوات ، مدينة تقف عند حافة رهيبة تفصل بين
الحلم والواقع ، صحراوية الحضور والمناخ ، ولكن يوطرها عبر الأفق جبال
الأطلس المكلفة بالثلوج ، بريق فضي يتحد بزرقة السماء ، أينما وليت
الوجه يطالعك ، فيتضفر مع النخيل الراسخ ، وأشجار السرو فيحدث أمراً
عجيباً ..

مدينة يمشى التاريخ عبر دوربها ، وتنز الأيام القديمة من جدرانها التي
طلبت كلها بلون وردى طوبى ، لون واحد للمدينة كلها ، يوحدنا ، ويفرقها
أيضاً .

في المدينة مناخ احتفالي ، فرق الموسيقى تعزف في الطرقات ، وأمام البنايات
الرسمية ، نصبت الخيام المغربية البيضاء ، المزينة بزخرف واحد يشبه زهرة
اللويس ، تصطف داخلها الحشايا الوثيرة ، وتتناثر أباريق الشاي الفضية ،
وفي الساحة الفسيحة القريبة من القصر الملكي تجاورت الخيام التي تأوى
رجال ونساء وأطفال المغرب الذين جاءوا مع ركب القبائل كلها ، كافة
قبائل المغرب بدون استثناء ، لتقديم البينة إلى ملك المغرب ، اللافتات في كل
مكان تعلن التهنئة والبينة (لأمير المؤمنين في يوم اعتلائه عرش أسلافه
المنعمين) .

جئت لحضور حفل توزيع جوائز المغرب الأدبية ، هذا الحفل ما هو إلا أحد

مظاهر الاحتفال بعيد الجلوس الذى تقدم فيه البيعة ، اليوم الأربعاء يقيم الملك حفلا لاستقبال ضيوفه ، أمضى متشوقاً لدخول القصر الملكى ، منذ سنوات اشترت كتاباً من جزئين بعدة مئات من الجنيهات ، ألفه مهندس فرنسى اسمه أندريه باكار عمل فترة طويلة فى صيانة وترميم القصور الملكية المغربية ، ثم سجل الزخارف الجصية والخشبية والأشكال الزخرفية الرائعة التى تحفل بها الأبواب والجدران والأسقف والنافورات ، أضع هذا الكتاب على مقربة حتى إذا ما أنكه بصرى نتيجة القراءة الطويلة أفتح صفحاته لأريح عيني أثناء تأمل الزخارف والأشكال الملونة ، وها أنذا أناهب لأراها على الطبيعة ، وشتان ما بين الأصل والصورة .



أسوار متتالية ، وردية الطلاء ، تتعادم فيما بينها لتشكل ساحات صغيرة ، أو فسيحة ، لا بد من اجتيازها قبل دخول القصر نفسه ، المدعوين المغاربة يرتدون الزى القومى ، منذ سنوات أصدر الملك الحسن قراراً باعتبار الجلاباب المغربى زياً رسمياً ، فى إحدى الخطوات الواعية التى تستهدف تعميق الصلة بالتراث ، المشهد اسطورى ، مئات فى جلابيب بيضاء ، يعلو كل منها السلهم ، أو البرنس المغربى الذى يغطى الرأس ، الكل يرتدون البلغة البيضاء أيضاً ، من الصعب التعرف على الوزراء والنواب وأساتذة الجامعة الكل متساوين ، إلا إذا طالعت الوجوه ، الضيوف الأجانب مسموح لهم ارتداء الزى الأوروبى القاتم .

دخلنا إلى فناء مستطيل ، يحفه رواق قائم على أعمدة من الرخام ، تتوسطه نافورات جميلة التكوين ، الجدران مساحات من اللون الوردى كالصقو ، تنتشر عليها مربعات ومستطيلات ملينة بالزخارف ، زخارف الفتحة ، وحفظت عناصرها لطول مطالعتي وتأملى لها ، لنقاط التقائها ، وتفرقها ، ولكن رؤية الألوان على الطبيعة أمر جلل ، لن أنسى أبداً هذه الدرجة من اللون البنفسجى

الفتاح ، وتلك النقوش الجصية ، وهذا التجزئي الذي يفتت المادة المحسوسة ، حتى أن كينونة الحجر تنتفي عند لحظة معينة فكانه لا حجر ، ولا جص ، إنما خيالات ورؤى .

عشرات الآلاف من العمال ينشطون في مجال الحرف التقليدية المتصلة بالعمارة القديمة ، بحيث حافظ المغرب على تقاليد المعمار الاصيل وهويته ، إنه البلد العربي الوحيد الذي أحدث هذا التوازن المدهش بين القديم والجديد ، بين عناصر الأصالة ومقومات التطور الحديث في مجال العمارة ، في الطريق من الدار البيضاء لمحت مبنى جميلاً ، وكأنك ترى عمارة أندلسية أصيلة بلمسات المستقبل ، قرأت عليه ما يفيد أنه المركز الثقافي بناحية أسطوط ، وعندما أهديت اعجابي به للوزير المثقف حقاً ، النشط ، الواعي محمد بن عيسى ، قال لي إنه افتتح منذ أربعة أيام لاغير .

ينبهر العرب بقصر الحمراء في الأندلس الغاربة ، وفي المغرب العربي أكثر من ألف بناء يحاكى ويفوق الحمراء القديمة ، وهذا الحفاظ الواعي نتيجة الثقافة الرفيعة ، والوعي بالتراث الذي هو جزء من الحضور المغربي في مواجهة تحديات الغرب .

طالت وقفتنا في الفناء الفسيح ، ثم سرت حركت خفيفة ، يتجه الجميع صوب باب ضيق مقوس من أعلى .
حان أوان الدخول ..



يلي الباب الضيق ممرات متعامدة ، كنت حائراً ، هل أطلع إلى السقوف الخشبية البالغة الجمال ، أم أصفى إلى الأديب والباحث المغربي مصطفى القباچ يشرح لي ما أراه .

من الممرات الضيقة انتهينا إلى ساحة فسيحة ، تطل عليها شرفة خشبية ، حول الساحة موائد رصت عليها الحلوى والمشروبات التقليدية في منتصف الشرفة علم المغرب الأحمر بنجمته الخماسية الخضراء ، في

المواجهة يقف حرس الشرف ، يرتدون زياً أحمر وأغطية رءوس حمراء ، بينما يتناثر هنا وهناك حرس القصر بجلابيهم البيضاء ، وعمائم حمراء مثلثة ، بعضهم يحمل سيوفاً والآخرون أسلحة نارية ، إلى جانب اصطفت فرقة الموسيقى السيمفونية الملكية ، بينما وقف الحضور في الغناء ، وإلى الجانب الآخر المدعوين وكبار رجال الدولة الذين سوف يصافحون الملك .

سرت حركة ، ولحت رجال الحرس الخاص يسرعون ، ثم دوت صيحة ، وطبل كالرعد .

لمحت الملك يصعد السلم الخشبي المؤدى إلى الشرفة ، يتبعه ثلاثة شبان .



في الشرفة وقف الملك الحسن الثاني مرتدياً الجلباب المغربي ، إلى يمينه وإلى عهده الأمير محمد ، وإلى يساره ابنه الأصغر الأمير رشيد ، وإلى جوارهما ابن شقيقه الراحل .

عزف السلام الملكي ، وأدى الملك التحية للعلم الذي كان يحمله رجل عملاق من أطول الذين رأيتهم في حياتي قامة ، فاستنى القول إنه عند ظهور الملك ، كان هناك مجموعتين من الرجال الذين ارتدوا العباءات البيضاء ، بادروا بالركوع ثلاثاً ، مطلقين صيحات غامضة ، لم أميز كلماتها ، عرفت فيما بعد أنه دعاء .
«الله يطيل عمر سيدنا ..»

بعد المراسيم ، نزل الملك والأمراء ، وقفوا تحت العلم في الساحة ، ثم تقدم كبار الضيوف للمصافحة ، وكان بينهم أحمد فؤاد ابن الملك السابق فاروق ، ثم السفراء ، ثم رجال الدولة المغربية ، وكان كل منهم يقبل يد الملك ، وبعضهم يقبل يديه الاثنتين ، الوزراء ، أعضاء البرلمان ، ضباط الجيش ، الشرطة .. الكافة ، ينحنون مقبلين ، كان الملك يتحدث إلى بعضهم ، بعد انتهاء المصافحة تقدم الملك عبر الساحة محيياً ضيوفه داعياً إياهم إلى مائدة المشروبات ، عندما حاذانا رأيت وجهه مزدهماً بالتجاويد ، وكان لونه أسمرأ أكثر مما يلوح في

الصور ، اختلط المدعويين ، التقيت بالسفير المصرى فى المغرب منير زهران ، رجل دمث ، نشيط ، له سمعة طيبة هنا ، والوزير عاصم عبد الحق وزير القوى العاملة الذى جاء لحضور اجتماعات منظمة العمل العربية التى قررت عودة مصر إلى عضويتها ، التقيت بالصدىق سمير النجم سفير العراق فى المغرب والذى قضى أكثر من عشر سنوات فى مصر ، مازال مسكوناً بكل لحظة مرت به فى وادى النيل حتى النضاع .

كنت مرهقاً ، فقد طال وقوفنا أكثر من ثلاث ساعات ، والمناخ المراكشى حار ، لكننى كنت مازلت أطلع بينهم إلى نقوش الجدران ، متسائلاً عما يمكن أن يكون بالداخل ؟ ، وفى وسط الساحة ارتفعت تورته ملونة من الخشب عليها أعلام دول اتحاد المغرب العربى الكبير ، وعندما مررت بجوارها ، تعجبت كيف توضع مثل هذه التورته التى صنعت على عجل وسط هذا الثراء الفنى ، لكنها على أية حال رمزاً !

* * *

الجمعة :

إنه يوم البيعة ..

على جانبى الطريق الممتد حتى القصر ، وقفت الفرق القادمة من قبائل المغرب تقدم فنونها الموسيقية ورقصات وأغنياتها ، وفى الساحة الكبرى راح الفرسان يتسابقون بجيادهم مطلقين أعيرة نارية من بنادق قديمة الطراز تمت إلى القرن الماضى .

مشينا حتى الساحة الخارجية للقصر ، إجراءات أمنية صارمة ، يصطف رجال القبائل صفوفاً متراسة يواجهون باب القصر ، كافة قبائل المغرب تجيء لتجديد البيعة فى كل سنة ، بما يعنى انتخاب جديد ، أخبرنى أحد المتعمقين فى الشؤون المغربية إنه فى حالة امتناع قبيلة واحدة عن تقديم البيعة عندئذ يجب على الملك التتحى فوراً ، ولهذا سابقة فى التاريخ .

فى المساء أطلعنا على الجزء الذى لم نره من الحفل ، كبار المسؤولين وهم

يقدمون البيعة داخل القصر ، أولهم وزير الداخلية وكبار معاونيه ، ثم الوزراء ، والنواب ، وكبار المسئولين .

يخرج الملك ، يلوح موكب ، يتقدمه صف من الحرس الخاص يرتدى رجاله الجلابيب والعباءات البيضاء وأغطية الرؤوس الحمراء ، يتوسطهم رجل يمسك عصاً مفضضة ، يليهم الفرسان ، ثم عربة الملك ، بيضاء ، مكشوفة ، أعد المقعد الخلفى منها بحيث يصبح مرتفعاً ، مغطى بكسوة خضراء ، يجلس فوقه الملك ، وراءه عربة حمراء تجرها أربعة خيول ، وعلى الجانبين صفين من الخيول العربية الأصلية بدون فرسان ، على جانبي السيارة يمشى الأميرين محمد ورشيد وابن عمهما ، وبعض من كبار المسئولين .

يتجه الركب إلى الصفوف المتراصة ، الملك يتطلع إليهم ، وعندما تقترب العربة من الصف الأول ، تنحنى الصفوف الثلاثة الأولى ، ويعلو الدعاء ..
«الله يطيل عمر سيدنا ..»

ثلاث انحنايات عميقة ، فيصرفون بعضها ، ثم تتقدم السيارة إلى الصفوف التالية ، ويتكرر الانحنايات ثلاثاً ، ثلاثاً ، حتى يصل الركب إلى آخر صف ، تتم البيعة هكذا ، وتستدير السيارة عائدة على مهل ، هنا يلوح الملك للضيوف ، ولرجال القبائل ، يدخل إلى القصر ، ويبدأ انصراف الجمع ، ولكن الاحتفالات في الشوارع ، الرقص ، الغناء ، لا تتوقف طوال الليل .

تلك طقوس منحصرة من زمننا القديم ، ما تزال هنا حية ، لها بريقها ، وفي مناطق أخرى اتخذت البيعة أشكالاً أخرى لكنها تؤدي إلى نفس الغرض ، فمناها برقيات التأييد ، أو ارسال الوفود ، أو كتابة المقالات ، وأحياناً تصفيق وهتاف النواب ، أو خروج الجموع في مظاهرات حاشدة ، محشودة .
تتنوع المظاهر ، ولكن ما رأيته عصر هذا اليوم المراكشى في ساحة القصر سيظل ماثلاً في ذاكرتي إلى الأبد .

١٩٨٩

* * *

متناليات مغربية

الوقوف عند حد المحيط

أغسطس ١٩٩١

فجر السبت :

تقلع الطائرة المغربية فجراً . لم يتغير الموعد منذ رحلتى الاولى إلى المغرب الأقصى منذ اثني عشر عاماً عندما قصدت فاس للمشاركة في ندوة الرواية العربية كان ذلك عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف ، اما رحلتى الثانية فكانت في عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف ، لحضور حفل جائزة المغرب الكبرى ، وعيد الجلوس الملكي ..

للمرة الثالثة أتأهب لأسلك نفس المسار ، فهل ثمة أثر خلفته في الفراغات العلاء من الرحلتين السابقتين ؟ هل ستقع عيني على نقطة من الفضاء سبق لي أن سددت إليها البصر وأنا حسير ؟

لا أدرى ، ولكن تتعاقب الخواطر ، منها التطلع إلى ما سألقاه ، والخشية إلا أنثنى راجعاً إلى ما عهدته وهذا متصاعد ، متزايد عندي خلال الأعوام الأخيرة ، وأسبابه شتى ، أقصر عن ذكرها الآن حتى لا أحيد عن القصد .
الآن .. الثانية والربع فجر الثالث من أغسطس .

بينما أروح وأجىء في الصالة الرئيسية للمطار ، يعلن المذيع الداخلي عن وصول الطائرة القادمة من لندن .
إنذن .. فقد حطت أخيراً .

مثل هذه النداءات لم تعد تلفت نظري أو تشد سمعي .. ولكن

الامر يخلف بالنسبة لهذا الوصول .

في هذه اللحظات ربما يخرج صندوق مستطيل يحوى جثمان يوسف ادريس .

كنت مستسلماً لصور شتى ، ومشاعر حزن وأسى ، استيعد المرات التي سافر فيها عبر هذه الصالة ، آخر مرة صحبناه فيها في مارس العام الماضي ، عندما شاركنا في ندوة القصة والحرب التي عقدت في بغداد . كان يفيض حيوية، وتوقداً ، واختيلاً . والحق انه كان صعباً على اجراء المقارنة بين يوسف ادريس المتفجر بالحيوية ، ومحتوى هذا الصندوق الذي يستقر الآن فوق أرض الوطن .

سألت ضابط شرطة برتبة عميد عما إذا كان ممكناً السماح لي بالذهاب إلى مهبط الطائرة لأكون بين الصحفيين الذين ينتظرون ، ولكنه أخبرني أن هذا أمر صعب ، وأن الأمر كله لن يستغرق إلا لحظات ، بعدها يخرج الجثمان من بوابة رقمها خمسة وثلاثين ، وقال إن كل شيء اعد لانتهاء الإجراءات بسرعة ، قال إنه لا يوجد أى شخص على مستوى هام ، ولا مندوب من أى جهة ، فقط بعض الصحفيين العاملين في المطار .

هكذا مضيت إلى الطائرة المغربية التي استقرت في مكان ناء من المطار . وكعادتي عند السفر ، أتوقف قبل دخول الطائرة استدير للحظة ، مواجهاً الفراغ ، والأرض .

والمباني ، والعمق الذي لا يُرى ، سواء في المكان أو الزمان ، مودعاً بكينونتي هذا المعنى الا محدود الذي من اسمائه .. الوطن .

مطاردة الشروق

ثلاث ساعات ، فرق التوقيت بين أرض المغرب الأقصى وديارى المصرية . تشرق الشمس على القاهرة في السادسة صباحاً ، وتكون الساعة في نفس اللحظة الثالثة فجراً .

يتدرج الزمن أثناء الطيران غرباً ، فنرى الشروق مرات ، كلما تقدمنا فأننا نمضى عكس الزمن أو معه .

تقلع الطائرة في الرابعة ، تصل في السادسة صباحاً طبقاً للتوقيت المغربى ، مع أن مدة الطيران الحقيقية خمس ساعات كاملة ، وإذا كان الانتقال غرباً يضيف إلى العمر بضع ساعات فإن الزمن سرعان ما يستردها عند الاتجاه شرقاً ، مع العودة ، لم أغفو ، إنما كنت أتابع أطول شروق أمر به .

تنوع الألوان عند الأفق الشرقى ، وعبر النوافذ الأخرى من الطائرة كان الليل مازال سارياً في الكون ، حتى إذا بلغنا مطار الدار البيضاء كان الصبح مكتملاً ، والنهار واضحاً ، ساطعاً بالضوء .

ساعة انتظار بعدها كنا نطلق مرة أخرى في الطريق إلى طنجة ، تتجه الطائرة صوب المحيط ، المحيط مقصدى الحقيقى في هذه الرحلة ، ليس المحيط في امتداده ، إنما في جوهره ، في إمتداده ، وذلك لصلته الوثيقة بالرواية التى أعمل فيها الآن «هاتف المغيب» .

من النافذة المستديرة لمحت مسجداً هائل التكوين ، يقف مطلاً على البحر الأعظم ، المئذنة شاهقة ، لم يكن عسيراً على استنتاج انه مسجد الحسن الثانى الذى قرأت عنه منذ سنوات حيث يجرى فيه العمل بكثافة وتؤدة ، كانت زرقة الماء عميقة ، والغمامات البيضاء المنخفضة تختلط بها حيناً .

لم يعط تحليلنا ، بعد أربعين دقيق نزلنا مطار طنجة ، في المغرب العديد من المطارات ، وكل منها يمكن أن تطير منه إلى أى مكان في العالم . كانت الطائرة التى أقلتنا ستكمل رحلتها إلى بروكسل .

في المطار كان بانتظارنا الأديب بهاء الطود ، الأصيلى مولداً ، الطنجائى إقامة ، كنا التقينا في القاهرة خلال الستينيات ، في مقهى ريش الذى كان مقصد المثقفين المصريين والعرب . قبل أن يفقد مكانته في الثمانينات ، ويتحول إلى مكان سياحى ، كان بهاء الطود يستعيد التفاصيل ، وكنت استنفر ذاكرتى المجهدة .

مضينا عبر شوارع طنجة ، كنت أستعيد مجيئي إليها عامثمانين وتسعمائة
وآلف ، عندما استقبلت فيها ذلك العام ، مازلت اذكر وحدتى فى الفندق ،
واغفاءتى التى استيقظت منها على صياح الناس فى الشارع عند انتصاف الليل ،
كذا صحبتى للأديب محمد شكرى صاحب الخبز الحافى . وأحد مفاتيح المدينة
البشرية ، ذهبنا إلى زيارة قبر ابن بطوطة ، الراقد فى زنقة ضيقة بالمدينة
القديمة. بعد أيام قابلت محمد شكرى فى أحد مقاهى أصيلة ، كما هو ، لم تتغير
ملامحه، ربما ازداد نحافة ، عندما رآنى ذكرنى بجملة قلتها عند قبر ابن
بطوطة:

«اتسعت له الدنيا وضافت به زنقة ..»

أتذكر زيارتى للعالم الأديب عبد الله كنون ، ترى .. أين موقع بيته
الأندلسى الجميل الذى رأيت جدرانه مندرجة بالكتب والمخطوطات .
منذ عامين توفى العلامة عبدالله كنون .

حقا . لا يمكن للإنسان عند عودته إلى مدينة زارها أو بلد عبره من قبل أن
يجد الظروف كما عهدا ، يحدث هذا إذا تقاربت المدة ، فكيف إذا أصبح الفارق
أكثر من عشرة أعوام .

أدقق النظر فى بيوت المدينة التى تقوم على سفوح المرتفعات ، ثمة حركة بناء
نشيطه ، بيوت جديدة تقوم ، وشوارع تخط ، اين الطرق التى عبرتها من قبل :
لو أن الإنسان يخلف أثراً فى الفراغ ، لكن ما أكثر البشر الذين يقيمون ويرحلون
بدون أن يتركوا ما يدل عليهم ، وما أنا إلا فرد منهم ، لا امكث بطنجة طويلا .
تخرج منها إلى الطريق المحاذى للمحيط متجهين إلى مكان اقامتنا فى أصيلة .
مرة أخرى المحيط . أتطلع إلى أمواجه . أرقب ضباباً كثيفاً مرثياً يمكن لمسه .
يتقدم صوب البحر بسرعة ، يلف المكان والطريق ، تصبح الحركة حذرة ، لم أر
هذه الظاهرة فى البحار التى وقفت أو لزمتم شواطئها ، هل هى مرتبطة
بالمحيط، هذا البحر الذى كان يعرف ببحر الظلمات حتى خمسة قرون خلت ،

والذى كان محركاً للمخيلة العربية منذ أن بلغ شاطئه عقبة بن نافع ورفع يديه مشهداً ربه أنه لو كان ثمة أرض أخرى لما قصر أو توانى عن التقدم للفتح ونشر الإسلام .

اتطلع إلى المياه اللانهاية ، أراها بعين القدامى الذين كانوا لا يعلمون شيئاً عن وجود الأمريكيتين .

بماذا كانوا يشعرون عند تطلعهم إليه . مع وعيهم بالمجهول المغمور هناك ، كانت الأسطورة تقول إنه بعد الأبحار عدة أيام هناك تمثال من نحاس في وسط الخضم يرفع يده محذراً ، كتب عليه .

« لا خطوة بعدى »

بأى لغة ؟

لم توضح الأسطورة ، من أقامه ؟ لا أحد يدري ، ولكن ثمة حكاية تتردد في مصادر التاريخ القديم عن الأخوة الثمانية من أهالى الأندلس ، الذين عمروا مركباً وأبحروا في المحيط ، غابوا عدة شهور وعادوا ليحدثوا الناس عن قوم يعيشون وراء هذا الماء . هيئتهم غريبة وعاداتهم أغرب .

هل وصلوا إلى الشواطئ الأمريكية ؟

ربما .. فالمؤكد أن كولومبس لم يبدأ رحلته من فراغ ، وعندما زرت المكسيك منذ عامين ، أذهلنى الشبه القوي بين ملامح وجوه عبيدة والملامح العربية ، بحيث يمكن اعتبار وجهى أنا العربى الصميم ، سليل قبيلة جهينة ، مألوفاً في أمريكا اللاتينية .

مجرد خواطر تتداعى أثناء تأملى المحيط الذى جئت للوقوف على شاطئه ، تماماً كما يقف بطل روايتى (هاتف الغيب) في نهاية شوطه .

جموح البغل

تحيط الفندق الحديث منطقة فسيحة شبه ريفية ، استدعت إلى ذهنى دلتا النيل ، مع خصوصية ما . عند نزولى من السيارة لمحت بغلا بنى اللون مربوطاً

إلى عربة مزينة ، معدة لنقل السياح والزائرين ، بدأ يعدو فجأة بسرعة في اتجاه قنطرة تقع إلى الجهة الأخرى . في البداية ظننت أن قائد العربة يلهيه ليجرى . ولكن عندما اصطدمت بقائم معدنى يتوسط مدخل الجسر وانقلبت اكتشفت انها فارغة ، وأن البغل نفر فجأة «جمع» توقف مربوطاً ، مشدوداً إلى العربة المنقلبة ، كان يحاول الفكاك ، لكن عبثاً .

لماذا جمع الآن ؟

أى سبب كامن ؟

لماذا انطلق يعدو فجأة ؟

البغال من أكثر حيوانات العالم تحملاً وصبراً على المشاق ، وأذكر أنني تأملت طويلاً في شمال العراق عام خمسة وسبعين وتسعمائة ألف ، كان هو الحيوان الأكفأ والأمر في تسلق الجبال ، ونقل الأثقال . صبور ، لكنه إذا ضاق بالحال ، فإنه يلقي ما يحمله ، ويقفز إلى الهوة منتحراً ، الانتحار قرار داخلي . نتيجة معاناة هائلة ، لا يقدم عليه إلا الإنسان الذى ينهى حياته طوعاً ، ويقال إن بعض أنواع الحيتان تفعل ذلك .

لماذا ينتحر البغل ؟

لا بد أن صمته يخفى الكثير ، لابد أنه يعاني معاناة صامتة ، فهو لا ينهق كالحمار ، ولا يصهل كالفرس ، مع أنه نتاجهما معاً ، لا صوت له .

لماذا جمع بغل العربة ؟ هل شعر أنه يمثل دوراً سخيلاً أمام السائحين الأغراب ؟ هل انهكه الحنين إلى الوصال وهو العقيم الذى لا ينجب .

استعدت ما قرأته عنه في كتاب الجاحظ «القول في البغال» ، لكن لم تسعفنى معلوماتى . لم تفسر لى الموقف . لمحت صاحب العربة يتقدم نحوه بهدوء ، يقف إلى جواره . لم يعاقبه كما تصورت ، انما راح يربت عنقه بحنان . ومال يقبله .

وهذا البغل ، استكان تماماً .

عرس مغربي :

بعد افتتاح مهرجان أصيلة الثقافي ، الدورة الرابعة عشرة ، اقترح على الصديق بهاء الطود أن أصحبه إلى فرح مغربي في طنجه ، كنت مرهقاً ، فمئذ ست وثلاثين ساعة لم يغمض لي جفن ، مع كثرة أسفاري خلال السنوات الأخيرة كان المفروض أن أعتاد التثقل والتغير ، لكن للأسف ، تمضى أحوالي عكس ذلك ، فالقلق داخلي ، أظن أن المرجح تلك الحالة الشرسة من الاكتئاب التي تملكنتني منذ السبعينيات ، ومحورها الموت .

أخشى الموت المفاجئ خارج الديار ، كثيراً ما أسند رأسي إلى الوسادة ؛ أصغى إلى دقات قلبي عبر شراييني متسائلاً . أي خفقة سيتوقف عندها ذلك القلب المجهد الذي يستقر داخلي ولا أدركه . لا أحاوره ، أي دقة هي الأخيرة ؟ هل هي تلك ، أم تلك ؟

منذ سنوات انشغلت بتفاصيل غريبة ، مثل .. هل تصلح بطاقة العودة لشحن الجثمان إلى أرض الوطن ؟ سألت واستقصيت ، وبالطبع كانت الإجابة من صديق مسئول بشركة الطيران بالنفي ، هذا حال وذاك حال . في الفنادق التي أنزلها أحرص على الاحتفاظ بغرف أصدقائي وزملائي إذا كنت في جمع ، ومكتب الاستقبال إذا كنت وحيداً ، حتى أتمكن من طلب الغوث إذا وقعت أزمة ، وكأن المرء يمكنه مقاومة المنية إذا وافته بغتة ، تماماً كحال الإنسان في جبهة القتال ، يظن أنه الوحيد الذي سينجو عند بدء القتال ، أو القصف ، وأن بإمكانه أن يتفادى القذيفة .

كثيراً ما أرقب بدهشة زملاء صحفيين ينتقلون ما بين لحظتي الإقامة والسفر بسهولة بالغة ، بدون عناء ، بل إن منهم من يجيء إلى مقر الجريدة ويقافجاً يسفر ما فيمضى على الفور وكأنه ينتقل من غرفة إلى أخرى . وعند السفر أرى بعض الركاب يغطون في نوم عميق قبل اقلاع الطائرة ، أما بالنسبة لي فلا يغمض لي جفن إلا فيما ندر .

ان الخوض في قلقى أمر يطول قد يحيد بنا عن القصد ، ولكن ما تزال الرغبة في اكتشاف المجهول تغلب هذه المصاعب كلها . فالحمد لله اننى مازلت حياً أسعى !

كنت بحاجة إلى الراحة ، ولكن الاغراء كان قوياً ، فالمغرب بالنسبة لى بلد عريق حفظ الكثير من التقاليد العربية القديمة ، وصان الفنون العربية ، فى العمارة ، فى الفنون المتصلة بها ، وهنا لا بد أن أشير إلى توجهه لجلالة الملك الحسن الثانى فى هذا الصدد ، وتشجيعه للحرف والصناعات التى كان يمكن أن تنقرض الآن وتذوى ، ولى مع تلك الجهود وقفة أطول ، ولكننى لا أخفى انبهارى بهذه الجهود التى جعلت من المغرب أثرى البلاد العربية فى هذا المجال ، الحفاظ على الفنون القديمة ، وأحداث هذا التوازن المدهش بين القديم والجديد ، تم هذا كله بجهد واعى يعكس ثقافة أصيلة ، وتاريخاً عريقاً ، وبدون الاعتماد على ثراء نفطى طارئ . بل أن هذا الثراء لو وقع ربما أدى إلى طفرة فى غير الاتجاه الصحيح ، ولكن فى المغرب تقاليد عريقة ، ودولة قديمة واعية بالثقافات المتنوعة المنصهرة فى تجانس أخذ .

فرح فى طنجة ، يعنى أننى سأرى تقاليد لم أعدها ، فالعرس ليلة استثنائية ، ومثلها لا يسنح كثيراً للغريب .
إنن .. فلأذهب .

المسافة حوالى أربعين كيلو ذهاباً ومثلهاً إياباً ، فى سيارة الصديق بهاء ، كنت أفكر فى هذا العرس الذى قدر لى أن أحضره ، لا أعرف أهله . لم ألتق بهم من قبل . ومن المؤكد أننى لن أقابل اياً منهم فيما بعد ، ولن أسمع عن أحوال العروسين الذين سأشهد فرحهما .

إنها ليست المرة الأولى التى أمضى فيها إلى عرس أجهل صاحبه ، حدث فى عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف أن كنت مسافراً إلى موسكو على الطائرة اليمنية ، وبعد الاقلاع من استامبول محطتنا الأولى ، وقع خلل فى الطائرة عاد بعده الطيار بالطائرة إلى مطار استامبول ، اضطررنا إلى قضاء الليلة فى المدينة ،

مضينا إلى فندق مطل على شاطئ البوسفور ، وعندما حانت ساعة العشاء دخلت المطعم الذى خصصوا لركاب الطائرة جانباً منه، لاحظت أن هناك حفلاً فى قاعة أخرى مجاورة أكبر وأفسح ، بعد لحظات أصغيت إلى موسيقى تركية كلاسيكية أعرفها جيداً ، إذ أننى دائم الاستماع إليها أثناء القراءة أو الكتابة ، وقد جمعت خلال أسفارى ما يزيد عن مائتى ساعة من الأغانى والموسيقى التركية التى تحرك إشجاناً قديمة وأخرى مستحدثة عندى ، وفى الليالى الصافية أدير المؤشر لأستمع إلى راديو أنقرة ، أو استامبول ، أو ديار بكر مباشرة خاصة خلال شهر رمضان الكريم الذى يمتد فيه الإرسال إلى ما بعد صلاة الفجر .

قمت واقفاً ، اقتربت من مدخل القاعة ، رأيت الفرقة فى الصدارة ، فى مواجهة العروسين تماماً ، أما المدعويين فقد اصطفوا حول المناضد المستطيلة ، كانوا يصغون فى وقار ، واذ تنتهى المقطوعة يصفقون ، بدا لى معظمهم منتعماً إلى الطبقة الوسطى ، بعد الفرقة الموسيقية ، دخل إلى القاعة مغن رائع الصوت ، الألحان أعرفها جيداً ، كنت أهز رأسى متفاعلاً معها عندما اقترب منى رجل باسم . أشار بيده يدعونى إلى الدخول ، لم يكن يتكلم الانجليزية ، ولم أكن أعرف كلمة من لغته ، أو مات شاكرأ لكنه أصر .

هكذا وجدت نفسى وحيداً بين غرباء لا أعرفهم ، أبادلهم الابتسام وبيادلوننى ، وسرعان ما تطلع الجميع إلى المطرب التركى رائع الصوت بينما كنت أختلس النظر إلى العروسين ، متسائلاً : من هما ؟ ما هى الظروف التى جمعتهم ؟ ، الام المصير ؟ أين سيكونان وأين سأكون ؟ .

نفس التساؤلات كنت أرددها صامتاً فى ذلك الفرح المغربى ، قبل وصولنا إلى مكانة عرج الصديق بهاء الطود إلى بيته ليصحب زوجته ، كانت هناك استعدادات عنده أيضاً لفرح شقيقة زوجته يوم الخميس القادم ، وقد قُدر لى أن أشهده أيضاً .

كانت زوجة الصديق بهاء ترتدى قفطاناً مغريباً أخضر اللون ، مؤطر بالقصب ، ومحلّ بزخارف عربية ، القفطان المغربي زى جميل ، يرتديه الأثرياء والفقراء على السواء ، يختلف القماش طبعاً ونوعية الزخارف ، ولكن الطابع العام واحد ، وخلال الفرحين الذين قدر لى أن أشهدهما لم أرى سيدة مغربية واحدة ترتدى غيره ، بل كان ممكناً التعرف على الأجنيبيات فوراً من الزى ، القفطان يشبه الزى القومى للمرأة ، وتمسكها به يدعو إلى الإعجاب .

قطعت السيارة بنا شوارع ترتفع وتنخفض ، تقوم طنجة على مرتفعات عديدة ، وعندما اقتربنا من العرس لم يكن عسيراً على استنتاج اقترابى من المكان ، قصفوف السيارات طويلة ، حديثة كلها ، وكان بعض الحافلات السياحية .

إلى اليمين أضواء كثيفة تتخلل الأشجار .

ليلة مغربية

طريق مرتفع مؤد إلى مدخل البيت ، والحق أن كلمة بيت مجازية ، فما رأيته قصر صغير . الطريق محفوف بالأشجار . على جانبيه وقف رجال ينتمون إلى فرقه موسيقية ، يرتدون ملابس فولكلورية قديمة ، وبأيدى كل منهم آلة موسيقية تمسك بكلتا اليدين ، بمجرد ظهور قادم جديد ، تعلو أنغام الموسيقى الراقصة المنبعثة من تلك الآلة التراثية ، بينما يقومون بأداء رقصة يحركون خلالها أقدامهم وجذوعهم .

اجتزنا مدخل الحديقة الفسيح المحيطة بالبيت ، تتوسطها بحيرة صناعية صفت حولها الموائد ، وفي المواجهة نصبت (الكوشة) تحت خيمة زرقاء مذهبة ، تحتها أربع مقاعد وثيرة زرقاء أيضاً ، فالليلة عرس اختين ، هما شقيقتا صاحب البيت ، أحد أثرياء طنجة المحدثين ، أى يمت إلى طبقة الأثرياء الجدد ، فى الحديقة أقيمت أعمدة صناعية لتستدعى أجواء القصور العريقة ، خاصة القرميد الأخضر الذى يغطى السقوف ، كان القرميد كله صناعياً ، كذا

الاعمدة التى أحاطت حضور الرخام ، البيت فوق مرتفع صخرى ، وكانت المناضد مصفوفة بأعلى أيضاً ، إلى جوار الكوشة من ناحية اليمين مكان وضعت به مقاعد وثيرة خصصت لكبار الضيوف ، إلى اليسار وفوق مرتفع من الأرض اصطفت فرقة موسيقية حديثة تعزف الحاناً شرقية لمحمد عبد الوهاب ، ومحمد القصبجى . مكبرات الصوت ضخمة جداً ، الأنغام تجاوزت فضاء المكان المحدود إلى المدينة ، قدرت عدد المدعوين بحوالى ألف ، وربما أكثر. فى المواجهة كان هناك شلال صناعى يدفق المياه من أعلى إلى أسفل ، إلى البحيرة التى أطلت عليها الكوشة وخيل إلى أننى ألح آثار طقس قديم يتصل بعلاقة الإنسان بالماء ، بالخصوبة ، وتذكرت الآية الكريمة «وجعلنا من الماء كل شئى حى» ..

بعد مكثنا قليلاً ، إنطلق طابور متدفق من الرجال الذين يقومون بالخدمة ، يحملون صوانى عليها أكواب المشروبات ، عصائر فاكهة وعصير اللوز . كانوا يمضون بسرعة ليقدموا إلى المدعوين الاكواب فى لحظة واحدة ، ثم انسحبوا ليخرجوا من الحديقة عبر سلالم مؤدية إلى ما يشبه أنه طابق أسفل . بعد قليل يظهر الطابور من جديد ولكن فى هذه المرة ليقدموا أقراص الحلوى الافرنجية .

دخول الطابور بهذا الشكل يبدو أنه مظهر منحدر من الأفراح المغربية التقليدية ، حيث يدخل حملة الطعام تزفهم موسيقى قديمة ، مرحة ، مبهجة ، ولكن هؤلاء كانوا يتقدمون صامتين ، أما الموسيقى فمصدرها الفرقة الموسيقية التى احتلت الموقع المرتفع .

بعد الفرقة الموسيقية ، تقدم شاب جميل الصوت ، قوى الحنجرة ، بدأ ينشد الملحون ، وهى قصائد من الشعر الشعبي ، باللهجة المغربية ، ملحنة.

تعرفت على الملحون أول مرة فى زيارتى الأولى للمغرب ، عام تسعة وسبعين وتسعمائة وألف . عندما دعا أحد أعضاء البرلمان الأدباء المشاركين فى ندوة الرواية بفاس إلى داره ، ومازلت أذكر المنشد المغربى وفرقته ، كان صعباً فى

البداية أن أقهم اللغة الدارجة ، ولكنني أحببت إيقاعات الانشاد الفريدة جداً .
كان الشعر هو أساس الملحن ، إذ اقترن بالموسيقى ، ولاقى رواجاً كبيراً
في مختلف الأوساط الشعبية . وتتألف قصيدة الملحن من افتتاحية وأجزاء ،
يستهل العازف على العود أو الكمان القصيدة بتقسيم حر ، ثم تدخل الفرقة
الموسيقية لتعزف واحداً من ثلاثة أشكال معتمدة ، هي طبقاً للمصطلحات
المغربية : السرابية ، الموال ، أو التموليلة . معظم مؤلفي السرابية مجهولون ، لذا
سميت السرابية الحرامية ، والسرابية هي أغنية قصيرة تؤدى على المقام
الموسيقى عينه الخاص بالقصيدة ، وتتألف من أربعة أجزاء ، الدخول ،
الناعورة ، الأبيات ، والدومة .

أما الأجزاء فهي الأقسام وتلك مقاطع تغنى فردياً وتقاطعها الحربة .
أما الحربة فيعود أصلها إلى القرن السادس عشر وهي لازمة تتكرر بين
المقاطع ، وتنتهي القصيدة بإيقاع سريع اسمه الدريدكة .
تتكون فرقة الملحن إلى آلات وترية ، تشمل العود وفيه ستة أوتار ، خمسة
منها مزدوجة ، والوتر الأغظ مفرد ، الكمان ويعزف عليه أثناء وضعه عمودياً
على المركبة ، وهذا وضع تتميز به فرق الموسيقى الأندلسية المعروفة في المغرب
بالآلة .

أما السويدي أو السويسن فهو عود شعبي صغير . صوته حاد وجاف . إلى
جانب ذلك الآلات الإيقاعية وأهمها (الدربوكة) أي الطبلية و(الهندفة) أي
الصنوج النحاسية الصغيرة .

للملحن إيقاع فريد ، جميل ، لا مثيل له في الموسيقى العالمية ، سواء كانت
كلاسيكية أو فولكلورية ، والإيقاع الخاص لهجة المغربية موقع هام في تشكيل
جمالياته ، هكذا كان يدوى في الليل صوت منشد الملحن عبر مكبرات الصوت
الضخمة ، كان صوته قوياً . ولكن لم يعجبني أنه كان يرتدى حلة أفرنجية ،
مع أن الجلباب المغربي والطربوش والسلهام ، زي رسمي في المغرب ، وخلال

الحفلات الرسمية التى تقام ، خاصة فى القصور الملكية يرتدى الجميع الملابس التقليدية ، وأولهم الملك نفسه ، وهذا من الاجراءات والعادات التى يبرز فيها الحفاظ على التراث ، وملامح الشخصية المغربية الخاصة ، ولكن فى سلوكيات بعض أبناء الطبقة الجديدة ما يتنافى مع تلك التقاليد ، ويبدو التطلع إلى الشاطئ الآخر هو الغالب .



الموسيقى الأندلسية

عندما رأيت فرقة الآلة ، أى الموسيقى الأندلسية تحتل أماكنها سرى عندي ابتهاج ، فتلك الموسيقى العربية الأصيلة تصاحبنى دائماً ، حتى أثناء عملى فى رواية أو قصة أو عند كتابة تأملات أو يوميات أو أثناء القراءة ، الموسيقى الأندلسية أحد أنواع الموسيقى التى ارتبطت بها وأحرص على تردد انغامها فى خلفية وقتى ، والحديث عنها يطول . تتعدد فيه المؤلفات والكتب ، لكننى أقول إننى أعشقها فى كافة تطوراتها ، فى الجزائر تعرف بالغرناطى ، وفى تونس وليبيا بالمالوف . وفى مصر وفى سائر بلاد المشرق بالموشحات ، وقد انتقلت إلى تركيا ، وإلى شعوب آسيا الوسطى .

أذكر اننى عندما نزلت طقشند منذ حوالى خمس سنوات ، ان فتحت المذياع كعادتى عند الحلول ببلد غريب لأعرف محطات الاذاعة التى يمكننى ان التقطها، فوجئت بغناء أوزبكى ، ولكن مصدر المفاجأة ان الايقاعات والمقامات كانت تردد أصداء الموسيقى الأندلسية .

طبعاً هناك فارق كبير بين أن تسمع من العازفين والمنشدين مباشرة . وبين سماع التسجيلات ، إنه الفارق بين هواء المروج الطلق ، والهواء الصناعى المحلب !

ولما كان الاستماع إلى فرق الآلة الأندلسية المغربية نادراً فى القاهرة ، لذلك

كان من مصادر سرورى وانتشائى بدء عزف هذه الفرقة . الموسيقى الأندلسية فى المغرب هى نفس موسيقى الأندلس ، انها الأصل ، حفظها المغرب ، وتوارثها العازفون والمنشدون أبا عن جد ، ومن أشهر شيوخها وفنانيتها فى المغرب الآن عبد الكريم الريس ويعيش مع فرقته فى فاس ، وقد استمعت إليها عدة مرات ، فى المغرب ، وفى القاهرة خلال الأسبوع الثقافى المغربى ، وفى باريس عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف فى المركز الثقافى العراقى ، واحتفظ بعدة ساعات من تسجيلات الفرقة ، وهناك أصوات جميلة منفردة فى الفرقة ، منها صوت المنشد عبد المجيد بوزوادة . وصوت المنشد عبد الفتاح بنيس ، والآخر صوته جميل ، شجى يبدو كأنه قادم من الزمن الأندلسى نفسه .

مع بدء العزف تدفق طابور الرجال القائمين على الخدمة ، كل منهم يحمل صينية مغطاة بما يشبه القمح الكبير ، الاناء اسمه (المكب) معدنى ، مطلى بالقضمة ، فى نفس اللحظة تستقر الاوانى فوق المناضد ، وفى لحظة واحدة يزال غطاء (المكب) ، انظر إلى فطيرة (البصطيلة) . فطيرة فريدة ، ذات مذاق تجمع بين الحلو والمالح ، سطحها مرشوش بالسكر الناعم ، وداخلها رقائق محشوة باللحوم المختلفة من دجاج وحمام وكبد ، وإلى جوارها زبيب وعين جمل وبندق مفروم ، الفطيرة دسمة جدا ، وأذكر أننى ذقتها لأول مرة فى فاس ، فى منزل الدباغ المحامى ، الذى دعانا خلال مشاركتنا فى ندوة الرواية ، أذكر أننى أقبلت على الفطيرة بحماس لطيب مذاقها وفراة طعمها ، وأنا أحب الطعام المتقن الجيد .. إذا وُجد وأتيح استمتع به تماما ، وإذا لم يكن فى المتناول اكتفى بأيسر المتاح .

لاحظ أحد الزملاء حماسى فى أكل البصطيلة ، فقال على قائلنا :

.. عد الشراشف ..

تطلعت إليه متسائلا ، أشار إلى المنضدة .

.. بعدد الاغطية ستأتى الأصناف ..

احصيتها فوجدتها خمساً ، وبالفعل ، جاء الرجال فحملوا الأنية التي تحوى البصليلة ، ومعها الشرشف الأبيض ، ثم توالى الأطباق الأخرى ، أذكر منها ، لحم الضأن المسقى بزيـت الزيتون والمخفوق بالمشمش والقراصيا ، ثم الحمام المخل ، وبعده الدجاج المرصع بالزيتون ، وأخيراً طبق الكسكسى وعليه قطع اللحم أو السمك ، كان ذلك فى بيت صديقنا الدباغ ابن فاس العريقة ، طبعاً فى الأفراح العدد كبير ، ولا توجد شراشف مصفوفة فوق بعضها ، إنما غطاء من البلاستيك . كان الطعام دسماً ، رحت أداعب النادل الذى يأتى إلينا به ، أسأله بصوت خفيض

ـ هل هناك شىء آخر ؟

فيهز رأسه إيجاباً ، كان الطبق الثانى عبارة عن خروف صغير ، حمل رضيع ، راح المناول يفك الخيوط التى تحيطه ، ثم شقه فأتضح أنه محشو بشىء يشبه الشعيرية عندنا ولكنه نبات ، مستورد من الصين . كان مذاقه غريباً ولكنه ليس خارقاً للعادة ، وخيل إلى أن الغرض من حشو الخروف به هو الابهار أكثر من المذاق .

ـ بعده شىء ؟

ابتسم النادل الاسمر ، أوماً برأسه مرححاً ، كان الطبق الثالث دجاج مضمخ بزيـت الزيتون .

ـ وماذا بعد ؟

الشأى الأخضر المنعنع ، والحلوى المغربية ، الكعك المستدير وكعب الغزال . مع الطعام لاحظت حماس المدعوين للموسيقى الأندلسية ، كان بعضهم يتمايل طرباً ، ويستبقب كلمات القصائد ، يحفظونها ، إذن .. ليست الموسيقى هنا مجرد تراث منعزل ، ولكنه جزء حى من بهجة الحياة ، يتمايل على أنغامها الثرى والفقير . مما أخبرنى به صديق مغربي أن الموشحات التى تنشد قبل بدء الطعام تختلف عن تلك التى تنشد أثناء تناوله ، أما معزوفات الختام فمغايرة تماماً .

مما شغلنى كميات الطعام المتخلفة عن الموائد ، كانت ضخمة جدا ، سألت
النادل بصوت خفيض
- اين تذهب هذه البقايا ؟
بدا حائراً ، ثم قال ..
- لا أدرى .. ربما يرسلونها إلى الخيرية
والخيرية تعنى هنا ملاجئ الأيتام والفقراء .

* * *

الزفة

مع انتهاء العشاء علت موسيقى مغايرة من ناحية البيت ، وبدا زحام على
الممر المحفوف بالأشجار المؤدى إلى المكان الرئيسى للاحتفال حول البحيرة .
هذا موكب العروسين .

يتقدمه رجال يحملون ما يشبه البيارق ، بينما يعزف بعضهم موسيقى
راقصة ، ثم وصيقات العروس ، ثم العروس نفسها محمولة في هودج خشبى
اسمه هنا «العمارية» ، يشبه المحمل ، تجلس العروس داخله ، ويحملها أربع
نساء ، من خلال مقابض خشبية برز من «العمارية» . ويقمن بالطواف بها ،
وأثناء الطواف يؤدين بعض الخطوات الراقصة التى تسمح بها حملتهن .
«العمارية» من الخشب الملون ، مزخرفة بالزهور والأغصان ، كانت العروس
الأولى ، تجلس داخل العمارية الأولى من الخشب أخضر اللون ، يبدو أنها الأخت
الأكبر ، ترتدى ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها تاج ذهبى . وتبدو يدها
الممسكة بقائم العمارية الخشبى ، مزينة بنقوش الحنة الدقيقة . كانت الصغرى
تجلس فى عمارية وردية اللون ، وتبدو مبتسمة ، مريحة بعكس ، شقيقتها الأولى
التى خيل لى أنها عصبية إلى حد ما ! لاحظ أحد الشباب الواقفين ارتجاف
إحدى الخاديمات الأربع كانت نحيلة ، كبيرة السن ، متسارعة الانفاس ، تقدم

بسرعة، حل مكانها، واستمر الطواف بالعروسين ثلاث مرات حول بحيرة الماء، إلى أن انزلت العمارتين أمام الكوشة، وأحاطت الوصيفات بهن وبدأ الرقص المغربي التقليدي .

تتشابه طقوس الفرح عند الأثرياء والفقراء ، وجلوس العروس في عمارية أمر حتمى ، وكذا الطواف بها ، وفي مدينة شوفشاون الواقعة في جبال الريف ، رأيت عمارية مغلقة تماماً ، كصندوق تجلس داخلها العروس وأعلامها ثقوب مستديرة للتنفس .

هذا ما شاهدته بعيني في فرح تلك الليلة ، وقد قدر لي أن أشهد في آخر ليلة لي قبل سفرى فرح شقيقة زوجة صديقى بهاء الطود .

لم أشهد إلا جزءاً يسيراً من طقوس العرس المغربي ، وحتى تكتمل الفائدة كما يقولون في كتب أجدادنا الأقدمين أورد وصفاً للعرس كما ذكره أحد أبناء المنطقة الأجلاء .

طقوس عريقة

يقول العلامة الحاج بن عيسى عبد الكبير العيساوى في كتابه عن مدينة أصيلة بين الماضى والحاضر . أن العرس ينقسم إلى قسمين . خطبة وحفلة عرس، تبدأ الخطبة بقيام وفد مكون من أم العريس وبعض الأقارب بالذهاب إلى عائلة العروس ، ومعهم هدية مناسبة . تكون غالباً من قوالب السكر وعلب الشاي . فتستقبلهم أم العروس بترحاب . وتجلسهم في أجمل حجرات البيت ، ثم تختلى أم العريس بوالدة العروس ، وتشرح لها الغرض من الزيارة وتطلب رؤية الفتاة ، وعندئذ تمشى الأم وتطلب من ابنتها أن تحضر كوب ماء أو بعض الحاجيات ليراهن أهل العريس ، طبعاً العروس تكون متأهبة ، تعود أم العريس إلى دارها فتحكى عن جمال العروس لزوجها وعن الحفاوة والكرم . عندئذ يقوم الأب بزيارة إلى والد العروس ، صحه بأ ببعض رجال عائلته وغالباً ما يصحبه أحد الصالحين من علماء المدينة ، وبعد الاتفاق تبدأ مناقشة

التفاصيل وغالباً ما يتكلم في الموضوع شخص آخر غير أب العروس ، وكثيراً ما يكون العالم الذي يصحب الوفد ، يقول مثلاً :

سيدى فلان قد جئنا إلى أعتابكم الشريفة طالين بنتكم فلانة البكر العذراء لولد السيد الفاضل فلان على سنة الله ورسوله .

يصمت الجميع ، لا يجيبه أحد ، يكرر الطلب مرة ثانية ، ثم ثالثة ، حينئذ يجيبه الأب أو أخوه وغالباً ما يكون الأخير ، بالقبول ، فترفع الأكف بالدعاء إلى الله أن يوفق العروسين إلى ما فيه رضاه .

مع قرب موعد العرس ، يستعد أهل العريس وأهل العروس ، بتهيئ أنواع الحلويات ، وإعداد الثياب الرقيقة ، والفرش ، وأنواع الحلويات ومنها القفاص وهو نوع من الخبز الصغير المصنوع من الدقيق المعجون بالسمن والسكر . والغريبة وتلك معروفة في المشرق ، وكعب الغزال وهو عبارة عن حلوى مصنوعة من اللوز والسكر في شبه قوس من العجين الرقيق .

طبعاً تجتمع هذه الأصناف الثلاثة في حفل المترفين من الناس ، أما المتوسطون فيقتصرون على نوع أو اثنين ، والفقراء غالباً ما يقتصرون على أصناف المأكولات . وربما يبيع والد العريس عقاراً لينفقه في فرح ابنه أو ابنته . يقول العلامة ابن عيسى عبد الكبير العيساوى معلقاً :

«وأما في الوقت الحاضر فحدث ولا حرج . فقد بلغ السيل الزبى في الأعراس ، والمصيبة أن الفقير يقلد الغنى ، بدافع من ربة البيت وعائلتها . فقد حضرت ختان ولدين لأحد أصدقائي بإحدى المدن المغربية فكانت حفلة الختام أعظم من حفلة العرس ..»
نعود إلى العرس كما يصفه العلامة العيساوى .

* * *

مع الوصول إلى اليوم المتفق عليه ، تبتدى أفراس العرس ، وغالباً ما تبدأ يوم ثلاثاء ، وذلك حتى يكون الدخول بالعريس ليلة الجمعة ، وهى ليلة عظيمة عند الله وأجر من يحتفل فيها جسيم .

الثلاثاء ، أول أيام العرس ، هو يوم الهدية ، وهو عبارة عما يرسله العريس إلى زوجة ، وتزف الهدية على أنغام الموسيقى . حيث تحزف حوالى نصف ساعة قبل بدء تحرك الموكب . وبعد اكتماله يخرجون ، في المقدمة ثور أو بقرة أو بعض الغنم ، وهذا بالنسبة للعائلات الموسرة في الركب أكياس دقيق . وأنية سمن ، وأخرى من الزيت ، وقوالب سكر ، وأحياناً بعض الاحذية للذكور ، والاناث مختلفة الأحجام لعائلة العروس .

يتبع موكب الهدية عائلة العريس ، وشرفاء المدينة ، وعلية القوم ، يتلوهم عامة الناس والصبية . ويمرون على أضرحة الأولياء والصالحين ، يذكرون الله ويصلون على سيدنا محمد ، وغالباً ما يقولون :

«صلوا على الهاشمى طه . ما خلق الله في السماء ولا في الأرض فقالوا (مثل) احمد مولاى التاج سيدنا» .

هكذا يمضى الموكب مخترقاً أزقة المدينة ، داعين عند كل ولى أو صالح بدوام العشرة والتوفيق لعامة المسلمين ، إلى أن يصلوا دار العروس ، فيجدون عند مدخله أب العروس وجميع أفراد عائلتها ، فيستقبلون بالترحاب ، ويتعانقون ، يتسلم الأب الهدية ويدخلها إلى الدار . وترتفع الايدى بالدعاء .



الليلة الثانية

في الليلة الثانية ، الأربعاء ، تعقد حفلتان مختلفتان في كل من دار العريس والعروس ، وتكون كل منهما خاصة بأفراد بمائلة العريسين . وتصاحبها فرقة موسيقية تنشد خلالها الموشحات الأندلسية ، أو شعر الملحون . في هذه الليلة يتم تحنية أيدي العروسين ، كل في داره .

يبدأ الحفل بذكر الله ، ثم المدايح النبوية ، ثم الموسيقى الأندلسية ، ثم يجتمع الطلبة على شكل دائرة وسط الدار ، وحولهم الشعب بمختلف طبقاته . وفوق الاسطح النساء ، ثم يؤتى بأنية فيها الحناء والحليب ، ثم يشعل الشمع ،

ثم يؤتى بالعريس مرتدياً ملابس بيضاء ، محفوقاً بإخوانه وأعز أقربائه .
تعلو الزغاريد . والموسيقى ، والمدائح ، أما كل من يصحب العريس فيحمل
شمعة بيده ، ويرش أهل العروس الحاضرين بماء الزهور وماء الورد .

طبعاً تحدث هذه العناصر كلها جواً أسطورياً ، مبهجاً ورهيباً معاً ، يقول
الشيخ العيساوي انه كثيراً ما رأى العريس يبكي والمقدم يضع في يده الحناء ،
طبعاً من السعادة والرغبة والفرح وسائر المشاعر التي يثيرها هذا الحفل
المهيب .

بعد الانتهاء من حفل الحناء ، تقدم الأطعمة المتنوعة ، وغالباً ما تشمل
أواني الكسكوس بالدجاج والزبيب والبصل ثم تتبعها أواني اللحم المطبوخ ،
ومعه اللوز والبيض أو البرقوق .

في النهاية يؤتى بالطاس ويغسل الجميع أيديهم .

بعد الطعام يجيء دور الحلويات . ثم يقدم الشاي الأخضر ، المحلى
بالنعناع .

بعد الشاي يأتي دور الهدايا التي تقدم إلى العريس ، ويطلقون عليها في
المغرب (كادو) وهي كلمة فرنسية ، وفي مصر (النقوط) يؤتى بصينية من
الفضة أو النحاس ، مغطاة بمنديل كبير من الحرير يسمونه (السينية) . فتجعل
أمام العريس الذي يجلس على كرسي رفيع لابساً أرفع اللباس ، وحوله
أصدقاؤه الذين يطلق عليهم تلك الليلة الوزراء ، لأنه هو نفسه يعتبر سلطان
الليلة ، في يد كل منهم شمعة مضاءة ، ثم يأتي أحد الطلبة من حفظة القرآن
الكريم . يبدأ بتلاوة فاتحة الكتاب وسورة الاخلاص (في معظم الأحوال) ،
وبعد الصلاة على الرسول الكريم يرفع صوته متسائلاً :

* أين إخوان العريس .. أين أبناء عمه ؟ أين أصدقاؤه ؟ فيتقدم أولاً إخوان
العريس . كل باسمه فيرفعون هديتهم كل على حدة . وغالباً ما تكون مقداراً
معيناً من المال ، يصيح الشخص الذي يطلقون عليه اسم (البراح)

* اللهم مع فلان ابن فلان ، أخ مولاي السلطان أهدى كذا وكذا ..

ويعلن مقدار الهدية ، ثم يقول :

* سيرجع إليه إن شاء الله في فرحه .

ثم يضع القدر المعين من المال في الصينية ، ويغطيه ، ثم يتقدم الثاني

والثالث والرابع وهكذا . كل حسب درجة قرابته من العريس أو درجته

الاجتماعية في البلدة ، ويستمر الحفل إلى قرب الفجر ..

بالطبع لا يخفى عنصر التضامن والتكافل الاجتماعى المتمثل في تقديم

الهدية المالية أو النقود كما نعرفه في المشرق .

* * *

الليلة الثالثة

ليلة الجمعة ، وهي ليلة الدخلة ، لأن العريس يدخل بعروسه فيها . يبدأ

الحفل بعد صلاة العصر ، حيث يجتمع أصدقاء العريس وأقاربه ، ويُستدعى

الحلاق ليطلق شعر العريس ويهيئه ، أو يزينه ، وفي المغرب يطلقون لقب المزين

على الحلاق تماماً كما يعرف في مصر .

يبدأ الجوق الموسيقى في انشاد الأناشيد الدينية والوطنية ثم ينصب مقعد

صغير فوقه قطعة صغيرة من السجاد ، ووسامة ويجلس العريس على المقعد .

بعد اتمام عملية الحلاقة يمضى إلى الحمام ، ثم يرجع العريس إلى الدار

متوسطاً موكب الحفل .

بعد صلاة العشاء يجتمع المدعوون قرب دار العريس باستدعاء من صوت

الطبال ، ويستمر عزفهم كأنه دعوة للجميع ، بعد حضورهم كلهم يأتون

بالعمرية التى سبق وصفها في عرس طنجة الذى شهدته في أول ليلة لى

بالمغرب ، يزينونها بالحريز الملون ، ثم يجعلونها فوق فرس أو بغلة ، ويقصد

الركب إلى بيت العروس ، على الباب ينتظرهم الأب وعائلته وصحبه ، يرحبون

بالزائرين ، يدخلون بالعمرية إلى باحة الدار ، يصحبون العروس التى تخرج

لتدخل إليها وتجلس فيها . يحملونها وسط الزغاريد ، والأناشيد ، يشدونها إلى ظهر الفرس أو البغل شداً وثيقاً . ثم يولون الأدبار قاصدين دار العريس . هنا يستقبلهم أهل العريس ويدخلون العمرية إلى حجرة العريس ، وترتفع الأكف بالدعاء للعروسين ، ويمضى كل إلى سبيله . صباح اليوم التالي . ضحى الجمعة . بيعث والد العروس إلى دار أبى العريس أنية كبيرة تشبه قارباً صغيراً مليئة بالكسكس . وفوقها خروف محشى ، مشوى ، وزبيب ، وبصل ، يتم استقبال الهدية بالترحيب . بعد صلاة الجمعة التى يؤديها أفراد العائلتين معاً ، يمضى الجميع إلى دار العريس بما فيهم صحبه ، ويتناولون شيئاً من طعام القصعة .

ونلاحظ المنزل الخاصة التى يحتلها الطعام فى الفرح المغربى ، ونظراً لتعدد لياليه ، وضخامة التكاليف ، يقل إقبال الشباب على الزواج ، وفى الفرحين اللذين أتبع لى حضورهما كان واضحاً مدى الانفاق الذى تكبده الأهل.

ما أورده سابقاً ذكره العلامة الحاج بن عيسى عبد الكبير العيساوى فى كتابه عن أصيلة بين الماضى والحاضر ، وتحفظ التقاليد حتى الآن بالعديد من التفاصيل التى ذكرها ، وتشابه الخطوط العامة عند الأغنياء والفقراء ، الفارق فى المستوى الاجتماعى . ولكن الطقوس واحدة ، فى أول ليلة لوصولى دعانى صديقى الأديب بهاء الطود إلى فرح لا أعرف أهله وصحبه ، فرح ثرى من أبناء الطبقة الجديدة التى أثرت ثراءً شديداً فى فترة وجيزة ، ويشاء القدر أن أففتح رحلتى المغربية بعرس وأن أختتمها بعرس .

بعد أن أمضيت اسبوعاً فى أصيلة . كان من الفروض أن أغادرها صباح الجمعة ، ليلة الجمعة كنت حريصاً على حضور ليلة عرس أخرى ، تخص الصديق بهاء هذه المرة . فرح الشقيقة الصغرى لزوجته ..



وصلت إلى مكان العرس ، بيت الصديق بهاء ، هذه المرة لم أكن بمفردى ، صحبنى الدكتور حسن حنفى وزوجته وبعد وصولنا قدم الرواى العربى

الكبير الطيب صالح ، والدكتور محمد ابراهيم الشوش . ولطفى الخولى ، وعدد من الصحفيين الذين كانوا يتابعون مهرجان أصيلة ، والوزير محمد بن عيسى، وزير ثقافة المغرب . جاء كأحد أفراد عائلة العروس ، فهو شقيق بهاء الطود .

البيت من ثلاثة طوابق ، منزل أسرة متوسطة ، عندما وصلنا كان مغطى بالمصابيح الكهربائية ، ومن الطابق الأسفل تعلو أنغام الموسيقى الأندلسية، لم تكن موشحات ، إنما أنغام سريعة مختلفة ربما تنتمى إلى هذه الموسيقى التي يعزفها الطبال على باب العريس، كان الطابق الأول مخصصاً للنساء . لمحت العروس داخل (العمارية) المصولة فوق الأعناق . كانوا يطوفون بها داخل الحجرات الفسيحة . في الطابقين الثانى والثالث كان الرجال يجلسون إلى مناضد مستديرة ، كان الجو حميماً ، سرعان ما شعرت بالآلفة مع الحاضرين ، وكأنى أحد أفراد العائلة ، عائلة العروس أو العريس ، كان معظم الحاضرين ممن لهم صلة أو علاقة بالأدب . هكذا دارت المناقشات حول الأدب العربى وكاننا في منتدى أدبى .

تعرفت إلى مصرى مقيم في طنجة ، أحد ثلاثة أو أربعة مصريين استقروا نهائياً في طنجة ، محمد عبد القادر خليل ، يعمل في التعليم ويمتلك مدرسة ثانوية خاصة ، متزوج من مغربية ومستقر هنا . سألته :

– هل مررت بكل هذه الطقوس ؟

ضحك قائلاً :

– بالضبط ..

قلت :

– وكل هذه التكاليف ؟

قال مبتسماً :

– الأفراح هنا مكلفة جداً .. خراب بيوت !

محمد عبد القادر سعيد بحياته هنا . إنه متخصص في اللغة المصرية القديمة ، ومن أغرب ما قال لي أن هناك عناصر شبه عديدة بين البربر في المغرب والمصريين القدماء ، وخاصة في اللغة . ومن أغرب ما قاله لي أن كلمة (كوسكوس) وهي الأكلة الوطنية في شمال إفريقيا كله هي كلمة فرعونية أصلاً ، تعني القمح المكسر .

فوجئاً بالعروسين يصعدان إلى السطح الذي كنا نجلس فوقه لتحية المدعوين ، مرا بالجميع وفي بساطة صافحوهم ، وكانت هناك سيدة تمشي خلفهما تطلق صوتاً غريباً يشبه النداء الممدود في وادي فسيح ، استقر العروسان إلى منضدة مستديرة ، وذهبنا لتحيتهما ، قال لي العريس رشيد أمحجور . انه تعرف الى من قبل في باريس ، خلال ندوة أقامها معهد العالم العربي عن الرواية وأن أرائي التي شاركت من خلالها في النقاش كانت مهمة جداً بالنسبة له ، جلست بجوارهما وتحولت القعدة إلى حديث في الثقافة ، رشيد متخصص في المسرح ، ويزداد شعوري بالآلفة والحميمية ، خاصة عندما بدأ الجوق الأندلسي يصدح بالموسيقى والموشحات الأندلسية ، ذهبت إلى قائد الجوق ، وطلبت منه الاستماع إلى موشح جميل أذكر من كلماته ..

أجمل ما في القدود الوجوه

وأجمل ما في الوجوه العيون

وأجمل ما في العيون الفتور ..

أوما الرجل مسروراً ، وعدني بتلبية الطلب ، وأثناء تناولنا العشاء المغربي الفاخر ، كان يشير إلي بما يعني أن المقطع قادم .
كان الطعام ذو النكهة الأسرية الخاصة مكوناً من عدة أصناف ، مقبلات ، ثم فطيرة البصطيلة المدججة باللوز ثم الخروف المشوي المرصع بالزيتون واللوز والفسق ، ثم الدجاج الذي اتخذ لوناً أخضر لغزارة زيت الزيتون المستخدم في طهيهِ ، ثم الحلويات والشاي ،

خلال توالى الأطباق ، أشار الادريسى رئيس الجوق الموسيقى بما يعنى أن المقطع الذى طلبته قادم ، ولم تمض إلا دقائق معدودات ، وكان الجميع ينشدون

«أجمل ما فى القدود الوجوه ..»

كان خاتمة نوبة موسيقية طويلة ، وكانت الانغام الاندلسية العتيقة الأصلية تصدح فى الفضاء الطنجاوى ، الذى يجمع بين الجبل والبحر .
حوالى الثالثة صباحاً ودعنا أهل العروسين ، وكان العريس رشيد فى مقدمة المودعين ، حتى اننى داعبته قائلاً :

- اذهب إلى عروسك .. أما مناقشات الثقافة فلها وقت فيما بعد ..

فى الليل استدارت السيارة متجهة إلى أصيلة ، وكنت أشعر أننى شاركت حقاً فى عرس ، تعمق عندى الإحساس بأننى واحد من أهله ، كان أكثر دفئاً وإنسانية، ربما لأننى لم أكن غريباً فيه .

* * *

الليل غميق ، الطريق محاذى للمحيط الأعظم ، المحيط الأطلنطى . السماء غزيرة بالنجوم ، ومجرة درب التبانة تبدو أوضح ، كنت راغباً فى الوقوف على مواقع النجوم والفارق بينها هنا وبين سماء مصر فى المشرق ، كنت أمعن النظر عبر العتمة أيضاً إلى مياه المحيط الجبارة . إلى هذه الضفاف العظمى التى ما جئت هذه المرة إلا للوقوف عندها .

متتاليات مغربية

أصيلة ..

أغسطس ١٩٩١

أصيلة ..

التطلع إلى المحيط بحذر .

مواجهة اللامدى ، اللانهائى . بالحرص الإنسانى الذى لا يمنع من الخروج إليه ، ومواجهته . والايغال فيه ، الاسوار الحصينة التى يحرسها الاحياء والموتى ، البوابات المؤدية ، منها ما يفضى إلى المحيط الشاسع . ومنها ما يؤدى إلى الخلاء الذى كان فى الماضى موحشاً ، قد يأتى منه الخطر ، بوابات تؤدى الى الفضاء الفسيح . من جانب ، ومن ناحية اخرى إلى الازقة الضيقة ، إلى الزنقات المتصلة ، المتقاطعة ، تبدو أحياناً وكأنها وصلت إلى النهاية ، ولكن تاتى الانفراجة عند زاوية او حافة غير متوقعة . غير معروفة خاصة لمن يجهل المكان . أما أبواب البيوت فتظل على الطرق وكأنها تلخيص للحذر الذى كان يميز الطابع العام لتكوين المدينة فى الزمن القديم وحتى وقت قريب . فالمدينة تقع عند الحافة ، عند آخر حد البر ، البر الذى بلغه الاسلام وتوقف عنده القائد العربى عقبة بن نافع ليشهد الله أنه لو كان ثمة أرض أخرى لما توقف عن الفتح والغزو ، ناشراً الإسلام .

كيف تطلع عقبة إلى المحيط الأعظم ؟ إلى بحر الظلمات كما كان يعرف قديماً قبل إكتشاف الأمريكيتين حديثاً ؟
بل أين توقف عقبة بالضبط ؟

في أصيلة ؟ في طنجة ؟ في المهدية ؟ في الرباط ؟ ، لا أدري على وجه التحديد ، لكن منذ وصوله وصار قدر بلاد آخر الحد . آخر البر أن تدفع الخطر المتربص بالديار الاسلامية ، خاصة بعد أن جرى في التاريخ ما جرى ، وسقطت الأندلس، واتصلت الحروب الصليبية في المغرب بعد توقفها في المشرق واستمرت حتى العصر الحديث .

مرة الأسبان ، ومرة البرتغال ، ومرات أخرى أمم شتى من الطرف الآخر . وعند آخر حد البر . رابط رجال القبائل العربية ، والبربرية . وزادوا حقاً عن الاسلام .

كانت أشرعة السفن المعادية تبدو دائماً قادمة من هذا الأفق ، أيضاً قراصنة البحر ، وكفة الأخطار ، لهذا لا تلتقى المدن القديمة مباشرة بالمحيط ، على الرغم من أنها تحاذيه تماماً . يفصلها عنه سور ، الأمواج لا تهدأ عن الاصطدام به ليلاً ونهاراً ، تاركة أثراً لا تراها العين مباشرة ، إنما تبدو مع مرور الوقت والازمنة ، على الاسوار أبراج المراقبة ، وأربطة المجاهدين . وأيضاً .. أضرحة الصالحين .

(أصيلة) المنسوخة شوارعها وزنقاتها كالدانتيل ، يوحد حضورها اللون الأبيض للبيوت ، والأزرق للنوافذ ، وموجات البحر التي تتخلل شوارعها متمثلة في هذا التصميم الفريد الذي وضعه فنان من ابنائها محمد المليحي . أصيلة التي أمضيت ساعات طويلة فوق أسوارها ، وعلى شواطئها ، أرقب لانهاية المحيط . وأبديته ، واستعيد ما كان . واستدعى ما سيأتي ..



اللقاء الأول

سمعت اسم أصيلة لأول مرة في بداية الستينيات ، كان ذلك عام واحد وستين وتسعمائة وألف ، وربما .. اثنين وستين ، لا تسعفني الذاكرة الآن على التحديد ، في ندوة الروائي الكبير نجيب محفوظ التي كانت تعقد في كازينو

الابرا التقيت بالصديق جميل عطية ، كان عائداً لتوّه من المغرب ، حيث كان يعمل بالتدريس ، وحدثنا عن مدينة جميلة تقع على حافة المحيط اسمها أصيلة ، ولسنوات تالية كان الاسم يطرق سمعى أثناء حديث جميل عن أيامه هناك . وكان ثمة شيء ما يشدنى إليه . ولكن لم يخطر ببالي اننى يوماً سوف أزور المدينة . او امضى فيها بعضاً من أيامى .

فى رحلتى المغربية الاولى . وفى أول أيام عام ألف وتسعمائة وثمانين ، خرجت بالسيارة صباحاً وآثار الاحتفال بالعام الجديد تغطى مدينة طنجة ، قاصداً مدينة الرباط ، بعد مرحلة سيرة من الطريق قرأت اللافتة «أصيلة» إنها المدينة التى حدثنا عنها جميل ، تطلعت إلى مبانيها ، مرقت بها مروقاً وان بقى فى الذاكرة شيء ما منها .

فيما تلى ذلك قرأت كثيراً عن أصيلة من خلال مهرجانها الثقافى الذى بدأ عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، لأول مرة ، دعيت إليه مرتين من قبل ، ولكننى لم أستطع الحضور لظروف شتى تتعلق بكثافة عملى وازدحام الوقت.

ها أنذا أطأ أرض أصيلة . لا اجبى عابراً بسرعة ، إنما ستمتد إقامتى بضعة أيام ربما تمكننى من التعرف جيداً على المدينة ، وتأمل حافة البر المطل على المحيط الأعظم فى أوقات مختلفة ، وهذا هو الدافع الحقيقى والأول لقدمى إلى تلك البقعة من العالم ، دافع يتصل مباشرة بهاتف المغيب ، عملى الروائى الذى بدأت كتابته منذ حوالى عامين .

ها أنذا فى أصيلة ، ولأننى أعرف عن خلال رحلتى المغربية الاولى والثانية ان هناك تنوعاً هائلاً فى المدن المغربية بحيث يمكن القول انه ما من واحدة تشبه الأخرى ، وهذا التنوع نتاج ظروف تاريخية وجغرافية وسياسية متداخلة ، نزلت إلى المدينة القديمة أو القصبة كما تعرف فى بلدان الشمال الافريقى دفعت بنفسى عبر شوارعها الضيقة المتوالية ، المتصلة على غير هدى ، لم أخش أن

أفقد طريقي . فكل الطرق تؤدي إلى بعضها ، وفي لحظة ما سأجد نفسي عند نقطة البداية ، كنت أأمل منبهرًا اللون الأبيض للبيوت ، والنوافذ الزرقاء . غميقة الزرقة ، السماء القصية ، والبحر القريب ، البحر الذي لا يمكن رؤيته من شوارع أصيلة ولكن حضوره يستمر طاغياً ، فياضاً ، أينما ولت وجهي ، ربما لعمق الإدراك بحضوره اللانهائي على بعد خطوات ، ربما لرائحة اليود القوية أحياناً . ربما لوشيش الأمواج عند اصطدامها بالصخور . أثناء قطعي الطريق من طنجة إلى أصيلة ، هبت الرياح بقوة . ولاحت من أعماق المحيط سحبات دانية من سطحه . غمامات متحركة ، أو أمواج من الضباب ، لا أدرى توصيف هذه الظاهرة علمياً ، لكنها سرعان ما تقدمت بسرعة إلى البر ، تجاوزت الشاطئ إلى الطريق ، إلى الجانب الآخر . ضاق مدى الرؤية ، وتوارى قرص الشمس ، ان موجات الضباب التي تكاد الأيدي أن تمسك بها تلف البيوت أيضاً ، وربما كانت أقسى في الشتاء . وصلت إلى حافة المدينة ، إلى السور المطل على المحيط ، ثمة درجات حجرية قديمة تؤدي إلى شرفة على هيئة لسان مستطيل شبه مثلث ، تطل على المحيط ، بعض من أهالي المدينة يجلسون على الأسوار الحجرية العريضة ، وجوههم متجهة إلى الماء الأعظم ، بعضهم يتأمل ، وفي ملامحه ترمق آثار حقب طويلة من التوقع ، والحذر ، والأمل . قلة يتحدثون ، بعض السائحين الأجانب يتطلعون مرة إلى البر ، ومرة إلى البحر ، وما بين طلة وطة يلتقطون بعض الصور . جلست وحيدا . امعنت النظر إلى الشاطئ الصخري الوعر الممتد بأسفل ، كثيرون يسبحون في الخالجان الصغيرة ، كان المكان مزدحماً ، وإلى جانب الدرج الحجري ضريح شيخ مهيب ، بسيط معاً ، جدران وقبابه من لونين ، أبيض وأخضر ، كنت متوحداً بمضموني ، مدركاً لغربتي هنا ونائي ، ولكنني كنت تواقاً إلى معرفة المدينة في الظاهر والباطن ، لكل مدينة سطح يمر به العابرون والغرباء وأبناء السبيل ، وأعماق لا يمكن إدراكها إلا من خلال زمن المكان وأسراره ، والزمن يمكن تحصيله من التاريخ المدون أو

المعروف ، أما الاسرار فلا يغص بها إلا البشر الذين ولدوا وعاشوا هنا ، وإلى هؤلاء كنت اسعى، لكن قبل سعيي هذا لا بد من ادراك تاريخ المكان .

عبر الأزمنة والعصور ..

يقول المؤرخ الناصري في كتابه الاستقصا انه لما توفي مولانا ادريس الأزهر رضى الله عنه ترك اثني عشر ولداً اكبرهم سيدى محمد ، فخلف أباه في ملك المغرب ، ووزع اقاليم المغرب على اخوته بايعاز من جدته السيدة كنزة رضى الله عنها فخرج على سيدى محمد الخليفة اخوه سيدى عيسى . فقاتله وانتصر عليه ، ثم امره بقتال اخيهما سيدى القاسم فقاتله وانتصر عليه كذلك ، فلما هزم سيدى القاسم اعزل الامارة وبنى له ولعائلته داراً قرب أصيلا . صار يتعبد فيها إلى ان آتاه اليقين . وقبره معروف بين طنجة واصيلا يزار .

وبقيت أصيلاً أيام ملك المولى محمد بن المولى ادريس تحت امره المولى يحيى ابن المولى ادريس الأزهر ، وكانت عاصمة ايالته التي كانت تضم أيضاً مدينة العرائش ومدينة البصرة التي كانت بين اصيلا وطنجة .

هكذا يبدأ العلامة الحاج بن عيسى عبد الكبير العيساوى كتابه عن اصيلة الماضى والحاضر . ينقل عن مؤرخين عرب وأجانب ، ومنها يتضح حساسية الموقع الذى احتلته أصيلة ، موقع المقدمة ، كالمخفر الاسامى للعالم الاسلامي مع سائر المدن المغربية ، تاريخ طويل ، لم يخل من الحوار يوماً وان تنوعت أشكاله ، من اقتتال جرى منذ فتح المدينة على ايدى الجيش الاسلامى سنة أربعة وتسعين هجرية (٧١٦ ميلادية) ، كان يحكمها وقتئذ الحاكم القوطى «كيلا» .

كانت أصيلة تسمى زيليس ، وهى كلمة بربرية تعنى «الجميلة» ، عاصرت قرطاجنة . وربما كان موقعها قريباً من موقع المدينة القديمة الآن ، لأن أصيلة الحالية بنيت في عام مائتين وتسعة وعشرين هجرية (٨٨٤م) وكانت أرضها ملكاً لمدينة لواته ، وعن سبب بنائها يقول البكرى في كتابه المسالك والممالك ان

النورمانديين (ويسمىهم المجوس) حاولوا الرسو بمينائها مرتين للبحث عن كنوز قديمة ، فسمع السربى بذلك ، وسارعت قبيلة كتامة إلى بناء رباط جعلت منه سوقاً عمومية تتعقد ثلاث مرات فى السنة ، فقصدتها الناس من سائر الامصار فخيّموا بها وبنوا شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مدينة معمورة .

يقول عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة المغربية المعاصر ، فى مقدمة كتاب أعدته جمعية المحيط الثقافية عن أصيلة ان المدينة صارت بعد ذلك من مراكز الصراع بين المروانيين خلفاء قرطبة وبين العبيديين ائمة افريقية على حكم المغرب. كما انها صارت واحدة من المراكز التى التجأ إليها آخر الأدارسة عندما ضيق موسى بن أبى العافية بهم وامعن فى التنكيل بهم ومن حسن الحظ أن التاريخ حفظ وثائق ترجع إلى هذا العهد .

عاشت أصيلة جميع الاحداث الكبرى التى عرفها العصرين المرباطى والموحدى ، وذلك لقربها من ملتقى البحرين ، المحيط الأعظم والبحر الأبيض ، حيث مدينة طنجة ومدينة سبتة الاستراتيجية . فى عام ستمائة وتسعة وتسعين هجرية (١٢١٢ ميلادية) كادت أصيلة ان تخلو من سكانها بعد هزيمة الجيش المغربى بقيادة الخليفة محمد الناصر الموحدى أمام الجيش القشتالى الذى كان يقوده الفونسو الثامن . وخشى الفقيه أبو القاسم صاحب سبتة عاقبة خلوها من جيش ومن اهلها ، فأرسل إليها اسطوله وهدم جنوده اسوارها حتى لا يستولى عليها الفرنجة ويتحصنون بها ، ولكن إسم أصيلة لم يهن ولم يختف ، إذ يبرز خلال الاحداث التى وقعت بعد مقتل السلطان يوسف ابن يعقوب المدينى عام سبعمائة وستة هجرية ، إلا أن تهديم أسوارها لم يكن عملاً صائباً ، إذ سهل ذلك للبرتغاليين احتلالها أثناء هجومهم الواسع على المغرب عام ثمانمائة واثنين وسبعين هجرية ، استولى عليها البرتغاليون بعد معركة شرسة ، دارت داخل الدروب والازقة ، وفى المساجد ، وبلغ عدد الشهداء

الفين ، والاسرى من المسلمين خمسة آلاف، وتلك أرقام كبيرة جداً بمقاييس العصر.

هذا القتال ، وذلك الزود والاستشهاد ، جرى في نفس موقع المدينة الحالى ، حيث القصبة والزنقات والدروب التى تؤدى من اللحظات الآنية إلى الزمن النائى بمواجهه ، وآلامه . وهذا ما كنت احاول ان أصغى إليه ، وان أراه فى المكان . ليس فى أصيلة فقط ولكن فى كل موضع نزله ، أو حطت به ، العلاقة بين ما جرى فى الزمان المندثر والمكان الذى لا يتغير .

حول البرتغاليون الجامع الكبير إلى كنيسة وتحولت أصيلة إلى ميناء نشيط ترد عليه بضائع مرسيليا والبندقية وجنوده ، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحولت أصيلة إلى قلعة محصنة . وابراج تطل منها المدافع ، وأصبحت قاعدة للهجمات البرتغالية على المناطق المجاورة ، وعلى مقربة منها جرت معركة كبرى تعد من أشهر المعارك فى تاريخ المغرب فى العصر الوسيط ، بدأت عندما قاد ملك البرتغال سباستيان الأول جيشاً من عشرين ألف مقاتل ، انطلق من أصيلة فى جمادى الأولى عام تسعمائة وستة وثمانين (يوليو ١٥٧٨) أى بعد الغزو العثمانى لمصر بحوالى ستين عاماً . وبدأ التقدم صوب القصر الكبير ، اعترضه الجيش المغربى يوم ٤ اغسطس عند وادى المخازن وسحقه سحقاً ، وقتل ملك البرتغال وحلفائه من الخونة . بعد هذا النصر الساحق لم يسع أسبانيا التى اتحدت مع البرتغال إلا أن تسلم أصيلة إلى السلطان احمد المنصور السعدى فى ذى القعدة عام تسعمائة وسبعة وتسعين (١٥٨٩ ميلادية) عرفت أصيلة بعد ذلك أحداثاً هامة . منها هجوم الاسطول النمساوى عليها سنة ١٨٢٩ ميلادية ، وهجوم اسطول الاسباني عليها سنة ١٨٦٠ خلال حرب تطوان ، كما تردد اسمها كثيراً فى بداية القرن الحالى خلال ثورة احمد الريسونى ، وقد استطاع ان يستولى عليها عام ١٩٠٦ ، وأصبحت مقراً لقيادته ، وبني فيها داراً فخمة واسعة تواجه الحيط ، لا يفصلها عنه إلا السور ،

هذه الدار حولتها جمعية المحيط الثقافية إلى قصر للثقافة الآن ، يصبح مركزاً نشطاً خلال مهرجان أصيلة السنوى ، وفي المدينة التى شهدت هذه الصراعات الدموية وتغير الأحوال من نقيض إلى نقيض . فى نفس المكان تقوم الندوات ويتم الحوار بين المسلمين والمسيحيين ، بين الافارقة والأوروبيين ، لقد حل الحوار محل الصراع ، هذا التاريخ المزدهم بالتفاصيل ، لا يقابله ثراء فى المراجع المكتوبة بالعربية ، وخلال بحثى فى المكتبات لم أعثر إلا على مواد ضئيلة جداً .

يقول الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، إنه اطلع فى المكتبات الوطنية البرتغالية ، والأسبانية على مجاميع مطبوعة تضم مئات الوثائق تلقى أضواء على أحوال أصيلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال مراحل الصراع ، ويعتبر أن نقل هذه الوثائق إلى اللغة العربية من أهم واجبات المثقفين من أبناء أصيلة .

محاولة للتواصل ..

كنت أظن أن اقترابى سيبدأ من ناحية المحيط ، ولكن قادنى الصديق عبد الكريم البسيرى إلى جهة البر لنبدأ منها ونوغل فى المدينة ، لننتهى إلى البحر .

هكذا خرجنا معاً من فندق الخيمة مقر إقامتنا ، على مقربة منه شاطئ المحيط ، ويومياً فى الصباح الباكر كنت أعبّر الطريق السريعة التى تربط طنجة بالرباط ، ومدن أخرى ، وأبدأ مشيى بحذاء المحيط متأملاً أواجه الصباحية ، ولون الضوء عند بدء طلوع الشمس ، وملمس هبوب الرياح ، أو النسيمات . ما من لحظة تشبه الأخرى قرب المحيط ، هناك أماكن تثير التأمل ، وتدفع بى صوب حالة خاصة اتجاوز فيها اللحظة الآنية . منها شاطئ البحر ، وتخوم الصحراء ، والوقوف عند حد البحر أمام المحيط .

ما الفرق بين البحر والمحيط ؟

ما الفرق بين غروب الشمس في مياه البحر الأبيض المتوسط ، وقد راقبتها
مئات المرات أثناء مضيها بقرصها البرتقالى فى الخضم الأزرق الغميق؟

وباختلافاتها توقع على دورة مدركة لنا من دورات الزمن ، انها لا تمضى،
انما هى اعمارنا التى تمضى ، تنسل يوماً بعد يوم ، وغروباً ، بعد غروب ، وما
الشروق إلا إشارة إلى الغروب ..

ما الفرق بين غروب الشمس فى البحر . ومغيبها فى المحيط ؟ أليس الكل
متصلاً ؟ والأمواج كل منها يؤدى إلى الآخر ؟

لا .. المغيب فى المحيط جد مختلف ، جد مغاير . ليس لأن المدى أبعد ، وليس
لأن الإدراك بشسوع المسافة أطول .

لماذا إذن؟. لماذا تختلف الوقفة عند المحيط ؟ لماذا تبدو مغايرة عن البحر؟ ،
على مقربة تقع طنجة قرب ملتقى البحرين ، الأبيض والمحيط الأطلسى ، ومن
نقطة معينة يمكن رؤية الاثنين معاً ، فاذا وليت وجهك هنا .. سترى مياه البحر
الأبيض ، واذا تطلعت جهة الغرب فتلك مياه المحيط ، أما فى لحظات صفار
الطقس فيمكن رؤية جبل طارق ، الميساهى ، والأمواج هى هى ، ولكن
الإحساس مختلف ، هذا بحر ، وذاك محيط .

ربما لوقع الكلمة نفسها ، فالمحيط من الاحاطة ، أى الاطباق على كل
الجهات، والمحيط عند الجغرافيين العرب القدماء ، كان محيطاً بالدنيا كلها ،
وهناك عند نقطة قصية منه يقع جبل قاف الذى يتردد اسمه فى الأساطير
البعيدة القديمة كناية عن المكان المستحيل إدراكه .

ما زال ادراكى لاختلاف الوقفة على حافة المحيط يزداد جلاء ، كذا البحث
عن الاسباب .

ربما تترسب داخل آثار النظرة القديمة قبل الوصول الى الضفاف الأخرى
البعيدة الآن ، التى لم تكن مدركة وقتئذ . عندما كان الانسان يقف فى فجر

البشرية ويتطلع إلى قرص الشمس إذ يغرق في مياه البحر ولهع بتملكه خشية
الا ترجع مرة أخرى فتدوم العتمة إلى ما لا نهاية .

ربما ..

هكذا حاولت أيضاً التواصل مع لحظات المغيب ، شاهدتها من أصيلة . من
طنجة . من الرباط . صحبني صديق عزيز من العراق في سيارته بعد أن وقفنا
طويلاً عند ضريح المغفور له محمد الخامس .

تجاوزنا باب الوداية ، والقصبية ، كان الطريق يصعد بنا ، لم أكن أقصحت
لصاحبي عن نيتي ، عن رغبتى في الوقوف على لحظة نزول الشمس عند المغيب .
أن أقف على موضع غروبها ، هذا الموضع النسبى ، قتلك الشمس قد غربت في
موطنى القاهرى منذ ثلاث ساعات ، وفي تونس منذ ساعتين ، كذا قابس ،
وجربة ، وسائر المدن الواقعة إلى الشرق ، فرق ساعة أو دقائق ، هنا أو هناك ،
وهى في نفس تلك اللحظة تطلع على قوم آخرين ، الأمر نسبى ولو أردت رؤية
الغروب مرة أخرى في عين اللحظة لاستحال ذلك ، لن يتحقق هذا إذا اتجهت
شرقاً . فقد اكتمل الغروب منذ زمن ، ولن أرى ذلك إذا اتجهت غرباً فهناك
غروب سيبدأ وربما لن ألحقه .

لكل مكان غروبه .

ولكل إنسان إمكانية الإطلاع على مغيب واحد لا غير ، في المكان عينه ، إنه

غروبه هو ..

لذلك يستحيل التواصل مع تلك اللحظة ، يستمر الركض تجاهها ، حتى إذا
نفذت الطاقة وقع الكف واستمرت هى . وإذا كان العجز عن بلوغ
الادراك ادراك كما يقول شيوخنا القدام من المتصوفة ، فهل يعنى ذلك الرضا
بالحال ؟

فلاحاول التواصل مع المكان . لعلّ بالغ سره ، إذا كنت مازلت ألتهت في اثر
لحظة اعى تماماً أننى لن احتويها أبداً ..

الجواهر الخفى ..

المدن ليست المباني ، والشوارع ، والمنحنيات ، والعمارة الماثلة . إنما هي أيضاً الحكايات المتوارثة ، والأمثال المضروبة . والذكريات التى ينسخ بعضها بعضاً .

مضيت بصحبة عبد الكريم ابن المدينة ، ورأيت فى سعيه سعي عندما اصحب نفراً أحبهم إلى القاهرة القديمة فأرغب فى رؤيتهم كل التفاصيل ، وإن أكشف لهم ما أعرفه .

للمدينة أبواب رئيسية ، منها باب القصبة الكبير ، وهذا عرفته ، إذ اجتازه يومياً منذ وصولى فى الطريق إلى المركز الثقافى الحديث الذى تقام به الندوات ، وباب البحر ، يواجه المحيط ، وباب الحمُر .

السور من الحجر الذى يميل لونه إلى صفرة غامقة ، عريض ، بناء البرتغاليون بعد استيلائهم على المدينة ، فى كل ركن منه يوجد ولى صالح يرقد ، كأنه يحرس المدينة مسئول عن تأمينها من جهته .

مضينا بحذاء السور حيث تمتد المقاهى السياحية ، ويشتد زحام الواقدين من أماكن قصية . مررنا بضريح الامام الاصيلى ، أكبر الأولياء وأشهرهم . انه ضريح رمزى ، لأن الإمام مدفون فى الأندلس .

عبرنا الطريق الخاص بالأجانب ، اتجهنا الى ضريح سيدى العربى ، المكان بسيط ، ثمة غرف متجاورة يمكن تأجيرها للإقامة على مقربة من الشيخ الذى يرقد فى تربة بسيطة تعلوها قبة بيضاء . البناء قديم يذكرنى بإسلوب المعمارى العظيم حسن فتحى . اللون الأبيض للحجارة ، والأخضر للأبواب والنوافذ وكساء الضريح ، الأبيض والأخضر هذا ما يوحد أرجاء المغرب فى الذاكرة . كذا الأبيض والأزرق .

على الأرض آثار أضحية . دماء جافة تختلف بعد ذبح الخرقان تقريباً وتوزيع لحومها على الفقراء كان المكان فى العصور الوسطى مكاناً للمجانين ،

كان مستشفى للأمراض العقلية وكان المرضى يربطون بقيود من حديد مثبتة إلى الجدران ، ويضربون بالسياط أحياناً.

يؤلنى الوقوف في أماكن تراكم الألم الإنساني ، في مدينة شوفشاون المغربية المعلقة عند قمتي جبل الريف ، رأيت في قلعتها سجنًا قديمًا . وانهلني التشابه بينه وبين سجن مملوكي قديم مازال قائماً داخل سور القاهرة بجوار باب الفتوح ، نفس الأدوات الحديدية. بعضها مثبت إلى الجدار للاحاطة بمعصم اليد فقط ، وبعضها يتدلى من السقف بواسطة سلاسل . بحيث يظل السجن معلقاً طوال الوقت ، واقفاً ، وهؤلاء أفضل وضعاً من سجناء آخرين تحاط رقابهم بقيود حديدية متصلة بالجدار قرب الأرض ، فيرقدون متمدين موثقى الرقاب والأيدي ، لا يقدرّون على الحراك ، أو التلفت هنا أو هناك .

حقاً ما أبشع وسائل التعذيب ، وما أشدّ معاناة الإنسان وما أعظم قدرته على التكيف ، وقد خبرت ذلك بنفسى! في أصيلة لم تهدأ الحروب طوال احتلال البرتغاليين لها ، ومن يقرأ تاريخ هذه الفترة يقف على التاريخ المجيد العظيم لقبائل المغرب من بربر وعرب في الدفاع عن الإسلام وحمايته خاصة بعد سقوط دولته في الأندلس .

يصف المؤرخ البرتغالي (ادولفو خيفارا) الذي عاصر الاحتلال البرتغالي لأصيلة في القرنين الخامس والسادس عشر بعضاً مما كان يجري. إن الدوريات البرتغالية كانت تخرج من المدينة وتجول في الأماكن القريبة بحثاً عن بعض الأهلالي من المغاربة . وعندئذ يأسرونهم ويأتون بهم إلى حاكم المدينة أو نائبه حيث يستجوبهم بنفسه عن الحالة الداخلية للمغرب ، عن نية السلطان ، هل سيهاجم أصيلة المحتلة هذه السنة ؟. ماذا عن الجيش المغربي وأحواله ؟

ويقول المؤرخ إن الاستجواب يكون مصحوباً بالتعذيب ، ويضغطون عليهم لاعتراف المسيحية ، شريطة منحهم الحقوق المخولة لرعاياهم داخل المدينة.

نلاحظ هنا الفرق بين طرفين ، فلم يحدث أن قرأنا لا في مصادرنا ولا في مصادر الغرب عن كنيسة تحولت إلى مسجد بعد الفتح . منذ أن استن سيدنا عمر سنة ومبدأ ، عندما حان وقت الصلاة وهو في القدس ، فصلى بعيداً عن كنيسة القيامة .

أما أحكام غير المسلمين فكانت جلية واضحة ، ولكن لم يحدث أن عذب مسيحي أو يهودي لاعتناق الإسلام ، وربما كانت أراضى الأندلس والمغرب من أوضح الميادين التي يمكن فيها إجراء المقارنة بين مفهومين وموقفين مختلفين .

يقول ادولفو خيفارا ، إن من يمتنع عن إعتناق المسيحية كانوا يزجون به في مطامر وأنفاق تحت الأرض . أو يبيعونهم في سوق الرقيق . وكثيراً ما كان جند السلطان يهاجمون المدينة بهدف تحرير الأسرى .

تتشابه أماكن تقييد الحرية ، سواء في الزمن القديم أو الحديث . تماماً كما تتشابه بنايات أجهزة الأمن ، سواء كانت المخابرات الروسية في موسكو (كى. جى. ب) أو وزارة الداخلية الفرنسية ، أو المصرية ، أو الأردنية ، أو قلعة من القرون الوسطى كان يمارس فيها التعذيب .



نطوف بمقام سيدى العربى ، بعض المواطنين يتمددون فوق الأرض للجائرة للضريح ، بعضهم مغمض العينين ، ربما يغط في نعاس عميق ، وربما يفرق في همومه ، ومحاولته التماس العون من الموتى ، بعد أن شح العون من الأحياء . للمقام شيخة ، سيدة متقدمة في العمر ، رحبت بنا مبتسمة ، ولكن عندما استأذنت لتصويرها ، أبت بشدة ، قالت ..

— عمرى ما تصورت .

نفارق الضريح ، نعود إلى المشى بحذاء سور المدينة ، نجتاز الباب المؤدى إلى داخلها ، هكذا ندخلها من ناحية البحر ، يحدثنى عبد الكريم عن الزوايا المباركة

بأصيلة ، كافة الزوايا تقع داخل المدينة ، زاوية سيدى مبارك . زاوية القادرية ، زاوية الدرقاوية ، زاوية سيدى على بن حمدوش ، زاوية سيدى بن عيسى .

الأضرحة تقع فى الأركان ، على مقربة من الأبواب ، أما ضريح لا لا منانة فيواجه المحيط ، يقع عليه ، ولا لا تعنى السيدة .

الزوايا والأضرحة ، بمثابة المراكز الروحية التى تحفظ اتزان أصيلة ، علامة الوصل ما بين الأول والآخر ، بين ما كان وما يكون وما هو كائن . ملاذ الضعفاء وأبناء السبيل ، والغرباء مثل ، بالأمس عندما كنت أتجول فى هذه الأزقة الجميلة ، النظيفة ، كنت أتطلع إلى أبواب البيوت ، أتمنى أن أجد أحداها ، أن أتعرف على سكانها ، ولكن استحالة ذلك ، فلا الاقدام ممكن وقوعه من جانبى ولا الدعوة لاحت من جانبهم ، فما أنا إلا غريب ، وعندما تملكنى التعب دخلت المسجد الكبير . وأمضيت وقتا ملثقا بظلاله وأريجه .

تتصل زنقات القصبة ، كل منها يؤدى إلى الآخر ، مثل الشرايين والأوردة . الوجهات بيضاء والنوافذ زرقاء ، الخطوط تلقائية ، وبعض الابنية توشك أحجارها أن تصير همساً ، الجمال مصادره بسيطة ، أخاظة . تتساوى فيه البيوت الفقيرة ، أو تلك التى اشتراها أثرياء أو بعض الفنانين القادرين وبدأوا يجرى عليها تعديلات تستهدف تحديثها من الداخل ، مع تجديدها بما يتلاءم مع الإطار العام للمدينة من الخارج ، وللدوق المعماري فى المغرب شأن عظيم ، لا يمكن الخروج عنه ، ولا يرجع هذا إلى صرامة قانون مكتوب ، بقدر ما يعود إلى التزام داخلى من الناس ، التزام تكفل الثقافة المتوارثة ، والحضارة القديمة . والمجهود الذى تم لاستنفار كافة عناصر الأصالة .

من زنقة إلى زنقة ، أو من زقاق إلى زقاق - بالتعبير القاهري - أمضى بصحبة عبد الكريم ، وما كنت أراه أمامى بالأمس عندما تجولت بمفردى موصداً ، بدأ يتضح لى الآن ، وتتيسر سبله . ليس من الضروري أن أجد كل

الأبواب كى أقترب من الجوهر ، يكفى أحياناً باب واحد . وربما يكون غير مرئى أو ملموس .

كنت أطلع إلى النوافذ المعلقة . بعضها مغلق ، وبعضها مفتوح ، والبنائيات المتضامة ، المتجاورة ، في أصيلة كل البيوت على مستوى واحد متقارب ، بعكس شوفشاون المدينة الجبلية الأندلسية التى زرتها في رحلتى تلك زيارة سريعة ، وكنت أستحضرها دائماً أثناء جولاتى الصباحية في أصيلة ، شوفشاون تبدو على مهل ، كحلم من الزمن القديم ، تلوح عبر الطريق الصاعد وتبدو كلها في مجملها لأول وهلة ، ثم تتوارى مع منحنى الطريق . بيوت بيضاء . ترصع القمة وتتعلق بها . تتجاور المنازل والبنائيات كالسلم الموسيقى ، النغمات الأندلسية ليست في التفاصيل ، ولكن أيضاً في الكليات ، الفراغ أشد مدى .. ربما لأننا أكثر قرباً من السماء ، وفي الخلفية تقوم نهاية الجبل الذى يحجز أحياناً الرياح فترتفع درجة الحرارة صيفاً ، ولكن الغرض العسكرى من بناء المدينة هنا لم يكن ليخفى على أى ملم ولو الملمة سريعة بتاريخ المنطقة ، كانت شوفشاون أيضاً نقطة ارتكاز هامة في جبال الريف حيث يعيش البربر المسلمون . ويتصدون عبر قرون متوالية للهجمات الصليبية الأوروبية ، وحتى العصر الحديث ، كانت الحملات العسكرية تخرج من شوفشاون إلى أصيلة للاشتباك بالبرتغاليين ، أو الأسبان ، والمسافة ليست بالقليلة حوالى مائة وستين كيلو متراً ، عبر جبال وعرة ، هذه المدن المبهرة جمالياً ذات نواة صلبة استعصت على القهر ، ونواتها هم ابنائها ..

في شوفشاون ، وقفت أ تأمل المدينة ، اشارت رفيقة رحلتى إليها الفنانة المغربية لطيفة التيجانى إلى ناحية منها ، قالت ..
.. هنا عدوة الأندلسيين ..

عندما بدأ النزوح من ديار الأندلس ، جاء الأهل المطرودون عنوة إلى هنا ، إلى شوفشاون ، إلى أصيلة ، إلى فاس ، إلى الرباط ، إلى المغرب ، احتواهم المغرب ،

وأقاموا فيه ، عادوا إلى أرض الآباء والأجداد ، وفي كل مدينة اتخذوا ناحية أقاموا فيها ، سمعت تعبير «عدوة الأندلسيين» لأول مرة عندما زرت مدينة فاس منذ اثني عشر عاماً ، في رحلتي المغربية الأولى .

وقفت أتأمل عدوة الأندلسيين في شوفشاون . هكذا تعرف حتى الآن ، لسبب ما تذكرت عمان في الأردن ، عمان أيضاً تقوم على جبال ، تختلف مستوياتها . بيوتها أيضاً بيضاء يوحد بينها اللون الأبيض ، وإن لم يكن لها الثراء المعماري الفني المغربي .

في عمان أيضاً عدوات أخرى ، ولكن لا يسكنها أندلسيون طردوا من موطنهم . بل يعيش في مخيم الوحدات وغيره فلسطينيون مطرودين ، لاجئين ، بعضهم منذ عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، وبعضهم منذ عام سبعة وستين وتسعمائة وألف ، ومن فترات أخرى .
هنا عدوة ، وهناك مخيم .

فما أشبه وما أعجب التماثل ، ولكن في المغرب وقف فرسان الريف البربر ، ورجال القبائل العربية ، بإختصار حارب المغاربة الأشداء ذوى البأس بمفردهم في ديارهم ضد الخطر الأوروبي الصليبي الذي أراد الاستمرار وغزو دار الاسلام . لم ينجح إلا في الحصول على موطئ قدم ولفترة مؤقتة ، وجزر صغيرة منسية من ذاكرة العرب والمسلمين . الذين أصيبت ذاكرتهم بنسيان مبين لأمور شتى . واخطار اقطع في عصرنا الحالي ، على مرأى منهم . ومسمع .
أوقف المغاربة الشجعان الخطر وحاربوه ، وعانوا في سبيل ذلك كثيراً . فهل سيوقف المشاركة الخطر الجديد ؟

خواطر عديدة تتداعى إلى الذهن وأنا أقف في شوفشاون الجبلية متأملاً عدوة الأندلسيين . أو أثناء تجوالى بجوار أسوار أصيلة الحصينة التي تمترس وراءها المسلمون ثم البرتغاليون ، ثم المسلمون .
نمضى في زنقات أصيلة ، أرضية المدينة تتدفق في حركة قوية ، صممها

الفنان محمد المليحي ، بعض الجدران عليها لوحات ضخمة رسمها الفنانون المشاركون في مهرجانها أو موسمها الثقافي الذي بدأ منذ عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين واستمر حتى أصبح علامة ثقافية . جداريات أصيلة من أبرز أنشطة موسمها الثقافي ، توقفت مسروراً أمام جدارية الفنان المصرى جورج البهجورى المقيم في باريس الآن . رسمها منذ ثلاث سنوات ، الأصيليون يعرفونه ، ويذكرونه حتى وإن لم يأت . بعض الجداريات تبدو متسقة مع جمال المدينة ، وبعضها يبدو متنافراً معه ، خاصة تلك المنتمية إلى مدارس الفن الحديث جداً ، حيث الاشكال غير المفهومة ، والتي أتذوقها بصعوبة ، أو أنفر من بعضها ، وأرى فيه نوعاً من الاستسهال المخل .

أجمل جدارية في أصيلة ، هي أصيلة نفسها ، بساطة واجهاتها خطوط العمارة التلقائية ، وقفت في ساحة ابن خلدون ، في مواجهة قصر الثقافة الذى بناه الثائر القديم احمد الريسونى ، وبعض البنايات المحيطة ، لا أظن ان جدارية أخرى يمكن ترقى إلى هذه المهابة ، بل إن بعض الجداريات بألوانها المتنافرة تبدو كالصراع في حضور المدينة .

يقول شيخنا محيى الدين بن عربى ان الأبيض أصل الألوان ، ولا أدري إذا كان المغاربة قد استوعبوا هذا القول أو إنهم عبروا عنه بطريقة أو أخرى . يغادر المرء المغرب واللون الأبيض في ذاكرته يؤطر كل شىء حتى اللحظات القانية .

في شوفشاون ، في بعض زنقاتها الفقيرة اختلط الأبيض بالازرق النيل ، المتخذ من النيل الزرقاء ، صبغت به مداخل البيوت غير المستوية ، فأحدثت إنفجاراً مبهراً من الضوء الخفى أضفى على المداخل المتواضعة أبعاداً سحرية تفوق الواقع ، هكذا ببساطة ، بأقل الإمكانيات .

لن أنسى هذه اللحظة في تلك الظهيرة الحارة ، عندما وقفت لطيفة التيجانى المغرمة بأبواب المغرب . والأبواب هنا عالم متكامل من الذوق والفن والثقافة ،

وقفت تلتقط صوراً لأبواب خشبية زرقاء ، لحت احدها موارباً . اقتربت منه ، كانت ثمة درجات قليلة مؤدية ، ولكن ما رأيته من خلال الباب هالنى .

انفجار الضوء الخفى عبر لقاء اللونين ، الأبيض سيد الألوان جميعها . والأزرق أحد الألوان الرئيسية الثلاث ، التى تدخل فى تركيب الألوان كلها ولكنها لا تُركب ، اما اللونين الآخرين فهما الأصفر والأحمر .

فى عبقرية فنية تلقائية ، مزج المغاربة اللونين فأوجدوا تلك الدرجة المضيئة ، التى تحول المداخل المحدودة مادياً إلى أفق رحب ، لا نهائى .

اللون الأبيض فى أصيلة لم يمتزج بلون آخر ، ولكنه يتلقى تأثيرات زرقة المحيط الأعظم .

أثناء سعى فى المدينة ، كنت أفكر فى مركز المدينة القديمة ، أين هو بالتحديد؟ . كلما حددت نقطة ما تقلت منى ، يصعب اعتبارها نقطة ارتكان . أو انطلاق إلى سائر جنبات المدينة .

فجأة .. خطر لى أن المركز هناك ، فى نقطة ما ، يصعب إدراكها ، كامنة فى أمواج هذا البحر المطلق ؛ المحيط بالدنيا ، الذى تلتصق به أصيلة ، وتحذره أيضاً ..

البعد والقداسة

أخيراً .. خرجنا من الزنقات المتصلة ، المتوالية ، إلى المحيط ، إلى الشرفة الممتدة على هيئة لسان حجرى نابع من السور ، تصعد إليها بدرج . إلى جدارها ضريح سيدي أحمد المنصور ، بالقرب من المكان موضع مدفع قديم . كان وسيلة لمعرفة الأخبار الهامة . وللإعلان عن ثبوت هلال رمضان .

قال عبد الكريم مرافقى أن من ذكريات طفولته خروج أهالى المدينة إلى السور ، تطلعهم إلى السماء بحثاً عن الهلال الوليد ، هلال رمضان .

إذ تثبت رؤيته ، تنطلق زغاريد النساء من فوق تلك الشرفة منتقلة

إلى فضاء المدينة ، تتولد الأصدااء فتجاوز المدينة إلى المحيط ، إلى البر ، كانت لحظة مهيبه ، غريبة .

إلى هذه الشرفة كان الأهالى فى الزمن القديم يجيئون ليرقبوا غروب الشمس .
لماذا ؟

لماذا كانوا يتجمعون عند بدء الغروب هنا على حافة المحيط ، هل كان يحركهم دافع غامض يتأثير موروث قديم ، أو هم يشبه همى ؟ الانشغال بالمغيب ، بالوضع الذى تغرب عنده الشمس فى عين حمئة ؟
لا أدرى ، ولكننى عندما جئت إلى الشرفة لحظة الغروب وجدت الرجال والأطفال والنساء جالسين متطلعين إلى الغرب ، وكان عددهم أكثر من أى لحظة تمر بالنهار أو الليل .



فى مواجهة ضريح سيدى أحمد المنصور ، باب صغير يؤدى إلى درج ضيق مفضى إلى منطقة صخرية من المحيط . فى الخرائط الأوروبية القديمة التى رسمت لمدينة أصيله يمكن ملاحظة المكان بسهولة ، يعرف باسم صخرة المحيط ، الحقيقة أنها ليست صخرة واحدة ، بل مجموعات من الصخور المتجاورة ، تتخللها خلجان من المياه يسبح فيها الأطفال . العاقرات من النساء كن يقصدن المكان . يخضن المياه الضحلة فى أماكن معينة ، يرفعن ثيابهن لتتلقى أجسادهن رذاذ مياه المحيط عندما يكون المد مكتملاً والأمواج تصطدم بالصخور فى قوة . ويستمر تلقينهن الرذاذ المتناثر أملاً فى الإنجاب .

مرة أخرى يبدو ذلك الضباب الغريب القادم من أعماق المحيط ، يتقدم ليلف الشاطئ كله ، يبدو مشهد الصخور غريباً ، النساء والأطفال والرجال تغوص أجزاء منهم فى المياه وفى الضباب .

نجتاز الباب الضيق الذى يتخلل السور . نمر بضريح سيدى ميمون ، أنه على المحيط مباشرة ، ويقصده خاصة ذوى الأصول السودانية خاصة ،

والافريقية عامة ، يبدو انه جاء من السودان . ولكم قرأت هذه العبارة في كتاب «التشوف إلى أهل التصوف» للتادلي ، الذى حققه الدكتور أحمد حجى . تقول العبارة «وورد إلينا من المشرق» ، إشارة إلى قدوم الصالحين من الشرق ، حيث الكعبة أو الأزهر أو الزيتونة ، الكعبة التى كان موكب الحج المغربى يسعى إليها سيراً على الأقدام أو على ظهور الأبل شهوراً عدة .

من ذكريات طفولتى وصول الحافلات التى تقل الحجاج المغاربة إلى القاهرة. كانوا يقصدون القاهرة القديمة حيث الأزهر الذى بناه أجدادهم الذين جاءوا مع جوهر الصقل والمعز لدين الله . مع إخوانهم المصريين . كان هناك طريق برى للحج . توقف فيما تلى ذلك من سنوات لأسباب سياسية عارضة .

كان المغربى فى قريتى بأعلى الصعيد ، وفى حوارى القاهرة القديمة أيضاً مثيراً للاهتمام . خاصة بالزى الخاص السلهام والجلباب ، والذى جعله جلالة الملك الحسن زياً رسمياً لسائر رجال الدولة فى الاحتفالات والمناسبات. كنا ننظر إلى المغربى محاطاً بالغموض ، وبدرجة من الرهبة ، تماماً كما ينظر المغاربة إلى القادمين من المشرق فى ذلك الزمن البعيد ، فكان البعد يضيف درجة من القداسة على من قطعوا المسافات وتكبدوا المشاق من أجل تحصيل العلم ، وزيارة أضرحة القديسين ، والحج إلى بيت الله الحرام..

مقهى البحارة ..

فى كل مكان انزله لاقامة عابرة ، لا تدوم إلا يوماً أو بعض يوم ، أو تستمر أطول قليلاً أو أكثر ، لا يكتمل اتزانى إلا إذا وصلت إلى مقهى معين استكين إليه، واتخذته مقراً للتأمل اليومى ، واللقاء الأصدقاء والنظر إلى العابرين .

أما علاقتى بالمقاهى فى دار مقامى - القاهرة - فأمرها معروف ، وطيد . هكذا ، استقرت علاقتى بأصيلة عندما عرفت مقهى البحارة ، أو كما يعرف بإسم آخر ، مقهى زريق ، مقهى ملتصق بالسور المحيط بالمدينة ، لكنه يدير

ظهره إليها ، وينفتح على البحر اللانهائي ، يقصده محبو العزلة ، وينتظر فيه البحارة اقلاع السفن .

المقهى بسيط ، محجوب عن المارة بجدران من جريد النخل ، أشبه بالاقفاص ، تتخللها أوراق شجيرات العنب التى تتسلق السقف أيضاً ، وفي المقهى أشجار تين أيضاً ، وشجيرات أخرى لا أعرفها ، المقاعد والسدك أشبه بالعنجرير النوبى أو السودانى . المصنوع من جريد النخل أيضاً .

أوراق العنب والتين تضىء ظلالاً خضراء على المكان شبه المستطيل الذى لا يكشف أبعاده مرة واحدة للداخلين ، أحب شرب الشاي الأخضر بالنعناع وكما يسمونه فى المغرب (اتاي) ، واننى لاعتبر النعناع فى سائر صوره وأشكاله من نعم الله على الخلق .

دلنى على المقهى بشير القمرى . عرفته من خلال ما كتبه من بحث عميق عن روايتى «كتاب التجليات» ، وقد دهشت إذ أحسست أن الباحث كان يصحبنى خطوة بخطوة اثناء كتابتى للعمل ، وقد نشر فصل منه فى مجلة فصول عام ١٩٨٦ ، ونشر كاملاً فى كتاب صدر مؤخراً فى المغرب بعنوان ، «شاعرية النص الروائى» . لقد أفادنى هذا البحث كثيراً فى اضاءة جوانب من التجليات كنت أدرك ما فيها وربما لا أقدر على تحديده تفصيلاً ، مثل الإنسان يتنفس برئتيه ، ولكنه لا يعرفهما ، ولا يدرك ما بهما ، كذلك يصغى إلى نبض قلبه الذى يحفظ له استمرارية الحياة ولكن سماعة الطبيب ، وأجهزته ، هى التى تحدد حالته ، وما يجرى فيه تحديداً .

تلك أيضاً علاقة المبدع بعلمه من ناحية ، وعلاقة الناقد الجاد به ، وهذا ما لقيته فى دراسة بشير القمرى . وبشير ينتمى إلى جيل فى المغرب استوعب الثقافتين الأوروبية والعربية تماماً . وزواج بين هذه وتلك ، فى تطبيق خلاق للمناهج الحديثة على النصوص العربية ، واعتقد ان الحركة النقدية العربية ينتقل ثقلها الآن إلى المغرب .

لم ألتق ببشير القمرى منذ أن قرأت بحثه عن التجليات ، وكان الأصدقاء من مصر الذين يزورون المغرب ينقلون منى وإليه تحيات متبادلة . حتى إذا نزلت أصيلة ، ولم يكن قد مضى على وصولي إلى الفندق إلا ساعتين ، عندما لمحت شاباً وسيماً يتجه ناحيتي مبتسماً ، وبتلقائية قلت متسائلاً ..

– بشير ؟؟

وتعانقنا ، هو بالفعل ، هذا الحدس الغامض المستعصى على التفسير ، بدأنا حديثنا وكأننا نستأنفه بعد انقطاع لم يستمر إلا ساعة أو أقل ، وهكذا الحال مع الأصدقاء العرب الذين التقى بهم خلال ترحالي ، نستأنف الحوار ولا نبداه ، رغم أننا نلتقى للمرة الأولى ، الهموم واحدة ، المصادر واحدة ، والمصائر متشابهة .

في مقهى البحارة تحدثت إلى بشير طويلاً ، وإلى العديد من الأصدقاء المغاربة الذين لم ألتق بهم من قبل ، طلاب وأساتذة وموظفون . وقد أمضيت معظم وقتي في الأصفاء والحوار معهم على المقهى ، وكنت أفاقره مضطراً إلى جلسات الندوة التي انعقدت تحت عنوان ، الفكر العربى .. أى غد .. إلى أين؟ ، والتي شارك فيها عدد من أبرز المثقفين العرب . تتشابه الندوات في كثير من أنحاء العالم العربى ، وتكرر أسماء ، ولكن المفاجئ في أصيلة كان جمهور القاعة من الشباب المغربى الذى كان أكثر تقدماً ووضوحاً من بعض المشاركين الاعلام!

الشيء الايجابى الحقيقى بالنسبة لى هو تلك اللقاءات الجانبية مع اناس لم أعرفهم شخصياً من قبل ، تتحول مدينة أصيلة إلى مهرجان حقيقى طوال الموسم الثقافى الذى بدأ لأول مرة عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، وقام بمبادرة ذاتية من خلال اثنين من ابناء المدينة هما محمد بن عيسى ، الذى أصبح وزيراً للثقافة ، والفنان محمد الميخى . المسارح فى الهواء الطلق .

المعارض الفنية ، الفرق الموسيقية المختلفة ، فنانون من مختلف أنحاء العالم ، أدباء ، تغير شكل المدينة بمبادرات ذاتية من أهلها ، وقدمت تجربة موسم أصيلة الثقافي نموذجاً لكيفية التنمية بالثقافة ، لا شك أن أحوال المدينة قد انتعشت كثيراً اقتصادياً منذ بدء الموسم الثقافي والذي استمر بانتظام كل سنة في أغسطس .

في أصيلة التقيت هذا العام بالروائي البرازيلي جورج أمادو ، وجميل حقاً أن نلتقى شخصياً بمن قرأناهم وأحببناهم منذ بدايات العمر ، مازلت أذكر «فارس الأمل» و«دروب الجوع» و«جابريللا» وغير ذلك من أعمال روائية كبرى ، أمادو تجاوز الثمانين ، يبدو في منتهى الحيوية والنشاط . يسافر كثيراً ، يستمتع بالحياة ، كنت أنطلع إليه معجباً ، ومقارناً في نفس الوقت بينه وبين أدباء عرب في مثل عمره أو أقل لكنهم يبدوون طاعنين في الهم ، وتقصح ملامحهم عن معاناة هائلة . مع أن بعضهم لم يتجاوز الخمسين يبدو طاعناً في السن ، متجاوزاً عمر أمادو وغيره من أدباء أوروبيين قابلتهم ، يعيشون من عائد مؤلفاتهم السخى ، يتجولون في العالم ، لا تطاردهم أنظمة بلدانهم ، ولا يتعرضون لضغوط هنا أو هناك .

لفت نظري في أمادو تواضعه . ورقته ، وحضوره الإنساني ، أسباب شتى جعلتني أتذكر نجيب محفوظ .

لم ألتق بأمادو في مقهى البحارة ، قابلته في بيت محمد بن عيسى في قلب أصيلة القديمة ، هذا البيت الذي يشهد كل ليلة طوال الموسم ضيوفاً من شتى أنحاء العالم ، ويبدو أن عمل محمد بن عيسى في السابق كخبير في الاتصالات الدولية هو الذي يسهل عليه احتمال هذا الجهد العجيب .

لا أدري لماذا كنت على يقين أن أمادو لو عرف طريقه إلى مقهى البحارة المنزوى بعيداً عن الصخب لعشقه وارتبط به ، ربما لأنه قريب من عالم رواياته الواقعية العظمى .

كما أثنى لن أنسى وجه جورج أمادو . لن يغيب عن ذهني أيضاً وجه محمد ابن سودون .

مغربي ، تجاوز السبعين ، وربما الثمانين ، نحيل جداً ، عندما وصلنا إلى المقهى في الصباح الباكر قابلنا أحد العاملين فيه بود وترحاب ، تلفتتا حولنا ، كانت الأرض مرشوشة بماء ندي ورائحة البحر مختلطة بالزرع . رأينا العجوز المغربي النحيل في مواجهة الركن الذي اعتدنا الجلوس إليه ، ألقينا التحية فجواب بأحسن منها ،

جاء عامل المقهى يحمل إلينا تيناً طازجاً ، قال أنه من الشجرة ، قطفه للتو ، كان التين مفتوحاً ، مسفراً عن قلبه الأحمر وبذوره الصغيرة ، وما من ثمرة تثير حنيني إلى أيامي الأولى مثل التين ، أستعيد على الفور رائحته القوية عند منعطفات وجسور قريتي جهينة في صعيد مصر . وأشجاره ذات حضور قوي ، أما مذاقه العسلي فتعلقت به منذ الطفولة ، وبرغم ما يسببه لي من مشاكل في معدتي إلا أنني لا أستطيع التوقف أمامه ، التين في مصر ذو قشرة بنية اللون تميل إلى حمرة ، وفي المغرب لونها أخضر ، أما القلب فمتشابه . وربما كان مذاق هذا التين الأصيل الصباحي الذي قدمه إلينا الرجل بكرم فياض من المعالم التي ستعلق بذاكرتي خلال السنوات القادمة .. كذلك ابتسامة محمد بن سودون الذي أمسك بين أصابعه بالسبسي ، أي الغليون المغربي ، من الخشب ، طويل ، ينتهي برأس صغيرة ، يوضع فيها الدخان المخلوط بالكيف . يذكرني بالشبك الذي كان معروفاً في القاهرة حتى القرن التاسع عشر .. لا يتخلل محمد عن السبسي طوال حديثه إلينا .

* * *

سي حمد بن سودون أصيل صميم ، كان يعمل حائكاً لشباك الصيادين ، يصنعها ، ويصلحها . ومن هذه الصفة يتكسب عيشه .
- لكنني حساسي ..

أى أنه يحسب جيداً ، أوتى مقدرة على الحساب بدقة ، بحيث يمكنه أن يحسب مثلاً كم ساعة في الشهر ، كم دقيقة في السنة . كم ساعة ، كم دقيقة في القرن بأكمله ؟ يمكنه أن يحسب أيضاً . كم طوبة في البيت؟ كان سى محمد يؤكد خلال حديثه ..

- عمرى ما قرئت ..

أى إنه لم يذهب إلى المدرسة قط . ولا يعرف القراءة أو الكتابة .

ببساطة حكى لنا عن حياته أيضاً ، تزوج مرتين

- الحمقاء ديالى ..

زوجته الأولى كانت مجنونة ، أصابها مرض نفسى ، أمضت مدة في المستشفى اضطرت إلى الزواج بأخرى ،

- نعم .. كانوا يربطون المجانين بالسلاسل

وبعد أن يشفوا يطلقونهم ..

يتدارك سى محمد قائلاً ..

- ولكننى أطل عليها بين الحين والآخر ..

أتساءل :

- على من يا عم محمد ؟

يقول :

- على الحمقاء ديالى ..

يحتفظ وجهه طوال حديثه بإبتسامة صافية ، رائقة ، يصل في هذه اللحظة بحار عجوز أسمر ، مقعد الجلد ، جاء إلى المقهى ليشرب الشاي وينتظر ، الضباب كثيف هذا اليوم ، والابحار صعب .

أشار بيده إلى ثلاث جهات ، كان خلفه مباشرة سور المدينة ، يوماً خرج إلى المحيط . باغتته العاصفة ، أمضى وقتاً طويلاً يصارع الأمواج بعد أن تحطم

قاربه ، عندما وطئت قدميه أرض أصيلة ، فوجئ بأهله بكون ، ينوحون عليه ،
ظنوه غاب بلا رجعة .

تذكرت وجه حارس متحف تطوان ، كانت الساعة تدنو من السادسة عندما
خرجنا من شارع محمد الخامس إلى شارع جانبي ، كان الزحام شديداً ،
المدينة كلها تخرج إلى الشارع الرئيسي ، الرجال ، النساء ، الأطفال . عادة
اندلسية قديمة . حيث يتدفق القوم قبل نزول الليل إلى وسط المدينة
يروحون ويجيشون . طرقتنا باب المتحف حيث يقيم الرجل . اسمه محمد ميمون
التطوانى ، تجاوز الستين ، يجيد الأسبانية شأن معظم أهالى الشمال
المغربى الساحلى ، زوجته أسبانية ، ان الامتزاج والتأثير والتأثر في مناطق
الأطراف أمر يحتاج إلى دراسة خاصة . في العادات ، في اللغة ، في الطعام ،
في الأدب . الصراع الطويل لا يلغى انتقال بعض الطباع من هنا إلى هناك
والعكس .

سى محمد ميمون يتحرك متمهلاً ، زوجته مريضة راقدة في المسكن . كل ما
في الرجل يوحى بالنهاية ، كانت الفنانة لطيفة التيجانى تعامله برفق شديد ،
وكنت أتأمل وجهه الطيب ، وأشجار الريحان المبتوثة في الحديقة ، وأرضية
الفسيفساء الرومانية النادرة ، وشواهد القبور اليهودية المصقوفة ، كان
الرجل يتحدث عن زوجته بحب وعطف اثرا في ، طلبت من لطيفة أن تلتقط لنا
صورة معاً .

عندما ودعنا ، عدنا لتفرق في الزحام غير العادى ، الذى لم أر مثيلاً لكثافته
أنا المواطن القاهري الذى يعيش في مدينة يتجاوز تعداد سكانها الخمسة عشر
مليوناً .

قالت لطيفة التيجانى إن الرجل يعرف كل قطعة في المتحف ، خبير بها ،
يعيش فيه منذ افتتاحه ، وعندما بلغ سن التقاعد ، قرر المسؤولين في وزارة
الثقافة استمراره في المكان ، لقد أصبح جزءاً منه .

تطلعت إلى وجه الصياد في مقهى البحارة ، لقد كاد المحيط أن يبتلعه يوماً .
ولكنه غالب موجه ورجع بعد أن قطع أهله الرجاء .
ترى كم من البحارة ، أو المتطلعين إلى بلوغ موضع مغيب الشمس خرجوا
عبر الأزمنة المتوالية من أصيلة ومن مواضع أخرى ، ولم يرجعوا من المحيط
الاعظم .. كم ؟

سبتمبر ١٩٩١

مقتاليات مكسيكية

عبور المحيط

نوفمبر ١٩٨٩

الامر نسبي ،

من القاهرة إلى باريس ، رحلة أعد لها وأتاهب ، أربع ساعات من الطيران تقريباً ، أصل بعدها متعباً ، متطلعاً إلى لحظات سكون ، في أعماق اكتمال الرحيل ، والانتقال ، التهيؤ لما يليه . هذه الرحلة التي كانت في المرات السابقة شوطاً مكتملاً ، ما هي إلا مرحلة في سفر أطول ، تنزل الطائرة ياريس فجراً ، لن نغادرها ، التزود بالوقود قبل الايغال ليلاً فوق البحر المحيط ، نقف على حافة البحر وآخر البر الذي أعرفه ، خارج الطائرة يبدو رجال الخدمة مدثرين بمعاطفهم الثقيلة ، تبدو حركتهم آتية من بعيد ، الاضواء بحساب ، ولكل منها وظيفته هنا ، بدءاً من الكشفافات الضخمة التي تضيء الفراغات ، وحتى اللمبات الصغيرة المصقوفة على جانبي الممر ، افكر في الاصدقاء الحميمين الذين تضمهم المدينة ، اقف على تخومها ، خارج اطارها ، موجود وغير موجود فيها ، ما هي الا دقائق وانتقل مبتعداً بسرعة تقارب ألف كيلو متر في الساعة ، لتبدأ المرحلة الثانية من سفرى إلى المكسيك ، انها الأطول ، ثمان ساعات تقريباً بعدها نحط في نيويورك .

حقاً إن الامر نسبي ، استعيد تجربة من الماضي القريب ، البعيد ، منذ حوالى ربع قرن كان الشهيد ابراهيم الرفاعى ، يخرج للتدريب القاسى على رأس جنوده من قوات الصاعقة المصرية ، كانت القاعدة في مدينة انشاص بدلتا النيل ،

ويتم الاستعداد لطابور مشى ، يعلن انه سينتهى في مرسى مطروح ، أى قرب حدود مصر الغربية ، حوالى ثمانمائة كيلومتر يجب قطعها على الاقدام ، ترجلاً ، طبعاً المشية بترتيب معين ، كنت أبدأ على كمراسل حربى ، وبدأ لى الأمر شاقاً ، ولكنه قال لى إنه يؤمن أن الطاقة التى يمكن أن يبذلها الإنسان لا حدود لها ، وإنه على قدر الغاية تكون الطاقة ، فلو بدأ الرجال السير والهدف بعد مائة كيلومتر ، سيكون الاستعداد مختلفاً عن شروعهم وهم مدركين ان نقطة الوصول بعد ألف أو أكثر ، هكذا كنا نمضى ، كل منا يستمد قوته من الآخر ، فكما يتعاون جمع على قهر ثقل مادمى برفعه ، يتعاونون أيضاً على تجاوز المعنوى .

إننى لا أمشى ، ولكننى اجلس إلى مقعد محدود المساحة ، مريح ، البعض يقوم بهذه الرحلة الآن ربما مرتين فى الاسبوع ، ولكن حواسى جميعها مستنفرة وخزائن ذاكرتى تفتح لومضات ، ارى فيها ما كاد يخبو ، استحضر لحظات مارقة ، واورقاتاً نائية ، وقراءات خيل الى اننى نسيتها . امر عادى جداً عبور المحيط الآن ، خلال السنوات العشرين الأخيرة ، ومن أحاديث البعض فى موطنى تبدو السواحل الامريكية اقرب من سواحل مجاورة على مرمى البصر ، ألم تتحسن العلاقات ، والوفود لا تكف عن الذهاب والاياب ، والساعين إلى فرص اخرى فى الحياة ، كل تلك العوامل جعلت الرحلة عادية جداً ، ولكنها بالنسبة لى المرة الأولى التى اعبر فيها المحيط ، اندفع بوجودى الحسى إلى نقطة أبعد فى المكان والزمان ، تولى الطائرة مقدمتها صوب لحظة الاقلاع ، على الشاشة الصغيرة المعلقة فى مواجهة المقاعد ، تبدو البيانات الخاصة بالرحلة ، السرعة ، الارتفاع ، موقع الطائرة من العالم ، ولاننى فى الرحيل لايمكن لعينى أن تغفو ، رحت اتابع ، واقارن ، ولا أكف عن مزاجية اللحظة الأنية بلحظات عتيقة واخرى لم ابلغها بعد .

تجتاز الطائرة الفراغ الليلي ، ترحل من ليل إلى ليل ، فطبّقاً لزمان موطنى

تطل الشمس الآن عن الأفق ، ونحن الآن نتقدم غرباً ، صوب مغرب الشمس ، وكلما اوغلنا ، كلما تأينا عن ساعة الشروق ، ولكن التقدم لا يعنى الافلات فعند لحظة معينة سوف يتبدد الظلام ويتلاشى في نفس الوقت الذى ينزل فيه على ديارى وأوطانى . فأى زمن اتبع اذن في الرحيل ؟ ، مهما بلغ فرق التوقيت فإننى لا أغير وضع عقارب ساعتى ، وإن لزمت توقيت المكان الذى أحل به .

فوق الشاشة الملونة يبدو وضع الطائرة ، تجتاز شمال الجزر البريطانية ، تصبح فوق اللون الأزرق ، نحن الآن فوق المحيط الأعظم ، أو بحر الظلمات كما سماه الأجداد .



ترى ، أى صور جالت عند من وقف على حافة البر . سواء فى سواحل المغرب ، أو آخر حدود اليابسة فى بلاد الأندلس ، أى صور توالى ، أى احتمالات امام اللانهاية الجبارة للبحر الذى كانوا يتصورون أنه محيط بالدنيا . كما يحيط بياض البيضة بصفارها ، ألم يقدم أحدهم على المغامرة ، على خوض لجة المجهول قبل أن يجهز كولومبس قافلته ؟
بالتأكيد أقدموا .

تحتفظ المصادر التراثية العربية بإشارات عديدة إلى ثمانية أخوة من الأندلس أقبلوا فى البحر المحيط ، وغابوا عدة شهور حتى انقطع الأمل فيهم ، ثم رجعوا يوماً ، وأخبروا عن وصولهم أرضاً غريبة ، يسكنها قوم مختلفين ، فهل وصلوا إلى الساحل الأمريكى ؟ ، ربما .

هل كان كولمبس أول من حط على شواطئ أمريكا عام ١٤٩٢ ميلادية ؟
أشك أيضاً ، فى عدد الخريف الماضى من مجلة التراث الشعبى العراقية دراسة مترجمة بعنوان «الازتيك والمايا والأنكا ، هل كانت المعتقدات الشعبية سبباً فى سقوطهم ؟» ، عندما وصل كورتيز قائد الغزاة الأسبان إلى مدينة

«مونتيزوما تينو شتلان» وتعرف اليوم بمدينة المكسيك ، إنها محط رحلتى فى الذهاب ، التقى بالقائد الهندى مونتيزوما ، كان متألقاً بالذهب والفضة والريش الأخضر الغريب ، كانت المفاجأة كلمات الترحيب التى قاه بها أمام الغزاة الأسبان ، انحنى قائلاً :

«إلهنا .. إنك مُضْنى ، لقد أتعبك السفر ، ولكنك الآن قد وصلت إلى الأرض ، وصلت إلى مدينتك مكسيكو ، لقد تنبأ بهذا الملوك الذين حكموا مدينتك ، وها هى النبوءة قد صدقت .. لقد عدت إلينا .. لقد هبطت من السماء ..»

لم يحاول مونتيزوما إمبراطور الأزتيك إيقافه ، حتى عندما دمر كورتيز المعابد المقدسة ، ويرجع ذلك إلى عقيدة الأزتيك الهنود نفسها ، أنهم يعتقدون بوجود إله يُدعى كويتز الكويل ، جاء من الشرق ثم اختفى عائداً إلى الشرق ثانية ، تصفه الأساطير أنه طويل القامة ، ذو بشرة بيضاء ، وله لحية ، كانوا يعتقدون أنه سيرجع مرة أخرى ، ويبدو أنهم رأوا فى الأسبان تحقيقاً لهذه الأسطورة ، هل قامت عناصرها على أساس واقعى يمتد إلى زمن قديم ، سحق البعد جاء فيه رجال بيض من الشرق أثاروا المخيلة ، واختفوا ، ربما .. فما من شيء مؤكد فى حقب التاريخ البعيدة ، أعيد النظر إلى الشاشة ، توغل الطائرة فوق المحيط ، تصعد شمالاً ، ظننت أنها ستمضى فى خط مباشر إلى نيويورك ، ولكن الطريق على هيئة مثلث ، ويبدو أن هذه مسارات فى الجو تشبه الطرق ، تشير الخريطة إلى ريكيافيك عاصمة آيسلندا ، فى الخارج الظلام مطبق ، فراغ من العتمة ، ما من تفاصيل بادية ، لا يلوح لى شيء مما هو موجود بالفعل ، ولكن كل ما عندى يمت إلى ما لا يوجد حولى على المستوى المحسوس ، ملامح الأهل ، والصحب ، ونواحي معينة فى مدينتى ارتبطت بها ، وألفت أريجها ، عالم داخلى ، خاص بى ، عناصره عندى ، أحله فوق البحر المحيط ، كنت أحاول تخيل امتداد المياه المنبسطة تحت ، ما تحويه ، أصل عند لحظات معين إلى

مواقف شبيهة بتلك التى اجتازها أجدادى فى التراث العرب القديم ، كيف نظروا إلى هذا المحيط الأعظم .

* * *

فى كتبه الثلاثة التى وصلت إلينا ، تحدث المسعودى عن البحر المحيط ، نجد ذكره فى «أخبار الزمان» و«مروج الذهب» و«التنبيه والاشراف» ، صوره لنا على أنه بحر الظلمات ، فيه عرش إبليس لعنه الله ، وفيه هيكل سليمان ، وفيه أسماك طول الحوت منها عدة أيام ، ومدائن تطفو على سطح المياه وتغيب ، وقصور من البلور تضىء بقناديل لا تنطفئ أبداً ، وفيه مدينة من حجر أبيض براق يسمع فيها ضوضاء وأصوات ، لا يرى بها ساكن . وفيه جزيرة بها مساكن وقباب بيض تلوح وتتزيا للناس فيطمعون فيها وكلما قربوا منها تباعدت منهم فلا يزالون كذلك حتى يياسوا فينصرفوا عنها .

أما سراج الدين ابن حفص عمر بن الوردى فذكره فى كتابه «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» ، قال إنه كثير الأهوال ، أمواجه كالجبال الرواسى ، ظلامه كدر ، وريحه زفر ، وفيه صنم يشير بيده ، لا خطوة بعدى ، ثم يصف مجموعة من الجزر سبق للمسعودى أن وصفها ، وأطلق عليها «جزر الخالدات» ، وهذه الجزر موجودة بالفعل فى المحيط الأعظم ، أو بحر الاوقيانوس كما ذكرته المصدر القديمة ، أو الأطلنطى كما نعرفه الآن .

أتطلع إلى الشاشة الصغيرة ، الطائرة الآن فوق جرينلاند . المناطق الأبرد من العالم .

* * *

ايسلندا ، البحر الأعظم ، جرينلاند ، الساحل الكندى ، من نقطة إلى نقطة ، من لحظة إلى أخرى ، مدن هناك فى حشا الليل ، وجودها بالنسبة لى يتمثل فى

هذه الاسماء التى اطالعها فوق الخريطة ، لكنه وجود نائى ، بقدر قربته ، وفى نفس الوقت الذى ادركه ، يفلت ، ينأى ، فأى علاقة يمكن الوقوف عليها ، وجود هذه المواضع فى حقيقته ، وبين كينونتى أنا ، بمعنى آخر ، انا اظير الآن داخل حيز محدود ، متحرك ، يتغير موقعه باستمرار ، تشير المعلومات المتاحة ، إلى أننى فوق الساحل الكندى ، حيث تتجه الطائرة الآن جنوباً بعد أن صعدت شمالاً ، هل أنا موجود فعلاً فوق الساحل الكندى؟ أم انه مجرد علامة فوق الخريطة ، وكيف أكون موجوداً فى نفس اللحظة التى انفارق فيها الموضع الذى ادركه ؟ الحيز فى حركة دائمة مستمرة ، أما استمرارى وأمانى وضمان وصولى الى نقطة معينة هو هذا الفراق الدائم للمكان ، انتفاء الوجود فى لحظة ادراكه ، أما لو اتحدث كينونتى بالمكان الذى يشير إليه السهم المتحرك فوق الخريطة ، فربما يعنى ذلك الهلاك المبين ، لو توقفت حركة الطائرة ، لو حطت فجأة فوق مكان خارج الخطة ، لأتحدث بالمكان ، ولخرجت من الكينونة . ذات يوم بعيد فى زمن الحرب ضد إسرائيل ، كنت فى البحر الأبيض ، أركب قطعة بحرية تمخر فى الليل ، بدأت نوة ، رياح عاصفة ، وامواج عنيفة ، رأيت التجسيد الحى لذلك التشبيه القرآنى القوى «وموج كالجبال» ، خرجت إلى السطح ، تمايل عنيف ، أقبل نحوى ضابط بحرى شاب ، صاح يطمئننى ، «البحر كويس» ثم زعق «اطمئن لا خطر طالما نمضى ، الخطر كله إذا توقفنا..» . تماماً كالقلب ، تركض دقاته من ثانية إلى أخرى فى رحم الوقت ، وإذا سكن ، توقفت الحياة ، وانتقلت إلى الافق الذى لايبين !

أتابع من خلال النافذة خطاً نحيلاً أحمر اللون عند الافق الدائرى ، يتسع شيئاً فشيئاً ، حتى تتوهج السماء بحمرة كونية نادرة ، تكشف بحراً من الغيوم فوق المحيط الأعظم ، فكأنهما الأصل والظل ، الصوت والصدى ، لا يستمر الضوء القانى طويلاً ، ندخل الليل الطاغى مرة أخرى ، أى ضوء هذا ؟ اهو الفجر الكاذب ؟ أم أنه مصدر الفجر ، أم انه فجر المكان الذى مرقنا به ؟ ،

فُتِنَاه لاننا نتجه غرباً إلى الموضع الذى تغرب فيه الشمس ، والذى حاول الاسكندر المقدونى بلوغه لكنه فشل ، أما الذى ادركه فهو سيدنا الخضر الذى شرب من نبع الحياة . هذا ما يقوله المعتقد الشعبى الذى تردد فى سمعى منذ طفولتى .

تمضى ساعة أو أكثر ، الخط الأحمر من جديد ، لكنه لا يغيب عنا هذه المرة ، يستمر متوهجاً . منقلباً إلى نهار جديد .

غيوم ، غيوم . من بينها يمكن رؤية اراض يغلب عليها اللون الأخضر الصخرى ، أمواج المحيط تبدو أكثر وضوحاً بعد اجتيازنا طبقات السحب المتراكمة متجهين إلى الأرض ، يقولون ان اصعب لحظات الطيران الاقلاع والنزول ، صحيح الاقلاع صعب لكنه عندى لسبب آخر ، لاننى افارق أمى الأرض ، ولا يسرى الاطمئنان الحقيقى إلا عند الذنو منها ، بل إن شعورى عند الطيران فوق البحار يختلف عن الطيران فوق الأرض ، مع ان المصير واحد ، أليس الأصل ، والمثوى ؟ .

أمواج المحيط ، زبد أبيض يحدها ، لون زيتونى غامق ، انه الطرف الآخر الذى كان يتطلع إليه قومى لعبوره فى العصور السحيقة ، هذه الشمس الواهنة الضعيفة ، الواهنة . ما تزال عند الافق ، انها فى ذروة وهجها الآن فى قاهرتى ، استدعى إلى ذهنى كتب الميقات القديمة ، اتساءل كطفل ، أهى شمس واحدة؟ هل يمكن إدراك الشروق والغروب معاً ؟

أتأهب لمفارقة الحيز المكانى ، التحرك الذى سكن الآن ، الذى إندفع من شرق الكوكب إلى غربه ، كنت أفكر فى الدهشة الاولى والاحاسيس الإنسانية ، هل تتغير من عصر إلى آخر ، من حضارة إلى أخرى ، أى صور جالت بذهنى الأقدمين عندما نزلوا هذا البر أول مرة ؟

كنت أشرع فى التفكير هنا وهناك ، ما الرحيل إلا داخل . دائماً مغترب عن اللحظة الآنية ، تذكرت صاحبة لى ، قالت يوماً فجأة بعد طول نظر الى :

..أنت في غير زمانك باستمرار ..
فكرت ، والسفر داخلي : لا مكان إلا عندي. بينما كان وجهها الجميل القص
يطاليني من مسافات قصية ، فارضأ وجوده ، طاغياً على كل ما يحيطني ، مع
إن صاحبه لم تعد تسعى في هذه الحياة الدنيا !

توهم الصلات !!

بالقطع .. كانت هناك صلة .

الشواهد التي وقفت عليها ، والتي غدت حدسى ، تؤكد الصلة التي أقطع بها بين الحضارة الفرعونية وهنود المكسيك ، الملامح ، قسمات الوجوه بمجرد نزولى مطار مكسيكو سيتي ، وحتى مدينة موريلىا حيث عقد مؤتمر السرد الروائى ، كنت أطلع ملامح ذات ثلاث شعب ، الأولى والتي لفتت نظرى بشدة ، عربية الأصل ، مصرية الحضور ، ليس بسبب اللون الأسمر المنتشر ، ولكن القامات ، وشكل الرؤوس ، هل انتقل ذلك عن طريق عرب أسبانيا ؟ ، ربما ، ولكن الملامح جلية ، واضحة ، الثانية ، هندية ، وهؤلاء ذوى ملامح مغولية ، الوجنات العريضة ، والأجسام القصيرة ، والصدور البارزة ، أحياناً تخفت الملامح الهندية لتصبح عربية تماماً ، هؤلاء أقدم السكان . يقول علماء الاجناس ان ثمة هجرة بشرية واسعة جرت قبل الميلاد بحوالى عشرين ألف سنة عبر مضيق بيرنج في ألاسكا ، وان أمواجاً كثيفة من بشر آسيا ، بالتحديد من مغولها تدفقت إلى الأمريكيتين . وهؤلاء هم الهنود الحمر ، بالتأكيد ، الأصل مغولى ، لكن .. إذا كانت الهجرات قد بدأت من آسيا ، فهل إنقطعت الصلة بين آسيا والأمريكيتين فيما تلى ذلك من قرون ؟

لا توجد إجابة حاسمة حول هذه النقطة حتى الآن .

أما الشعبة الثالثة للملامح ، فهى الأوروبية ، وهؤلاء هم الأسبان الذين نزّلوا سواحل المكسيك في بداية القرن السادس عشر ، بعد وصول كولمبس إليها ، وهؤلاء تراهم بكثرة في المدن ، وعند خروجنا من مدينة مكسيكو إلى

الطريق الجبلى المتجه إلى موريليا ، والذى يبلغ طوله حوالى أربعمائة كيلو متراً ، كنا نمر بالقرى الصغيرة ، والمدن الجبلية ، لم تكن تطالعنا إلا وجوه هندية الملامح ، ولم يكن صعباً استنتاج المستوى المادى الذى يعيشون فيه ، وهو بالتأكيد متواضع ، ولا يعنى هذا عدم وجود بيض فقراء ، فالفوارق الاجتماعية فى المكسيك حادة ، والعاصمة نفسها تحتوى على مناطق فقيرة تنتشر على التلال المحيطة بالمركز ، وهناك منطقة للأثرياء رأيت فيها قصوراً تنم عن ثراء فاحش. وبيوت تشى بمدى ثراء أصحابها مبنية على نمط العمارة المكسيكية التقليدية، خليط من العمارة الأندلسية القديمة ، والعمارة الهندية ، التى لا تخلو من تماثيل الآلهة القديمة ، والحيوانات الأسطورية . والزخارف التى تستمد عناصرها من عالم النبات .



كعادتى خرجت فى أول النهار . أمشى مسافات محدودة حول الفندق ، ألزم أرصفة معينة ، واحدد علامات بارزة خشبية إن أضل طريق العودة ، شيئاً فشيئاً تتضح معالم المدينة التى أنزلها أول مرة وتبين . وتسفر النواحي . والميادين ، والمنحنيات ، والبيوت المنطوية على أسرار لا حصر لها، لا قبل لى بفضها حتى وإن تحولت من عابر إلى مقيم ، عربات صغيرة عند نهايات الأرصفة ، للطعام ، يقف عدد معظمهم من ذوى الملامح المغولية ، يتناولون طعام الافطار فى أطباق صغيرة ، قطع لحم مطهو ، أو قطع الكرشة الصغيرة ، تلف فى الخبز المصنوع من الذرة (التوريلوس) ، وهذا الخبز قديم ، وجده الغزاة الأسبان عند مجيئهم ، ومازال ، والكل يتناوله ، لا فرق بين ثرى جدا . وفقير جدا . رأيته بنفس المواصفات فى المطاعم الفاخرة التى دعيت إليها ، وفوق هذه العربات الصغيرة المنتشرة فى الميادين ، خاصة فى الصباح الباكر ، أو فى المساء ، استدعت إلى ذهنى على الفور صور عربات الفول التى يتجمع حولها نفر من قومى فى القاهرة والمدن الصغيرة ، يقف البائع ليغرف الفول فى الأطباق

الصغيرة ، أما إضافة الزيت أو الشطة ، كذا تناول الارغفة . والبصل الاخضر ، فأمر من شأن الزبون نفسه ، وعند دفع الحساب يذكر للبائع ما أكل . ولا أحد يغالط في حساب الطعام الذى أستقر مختفياً في المعدة ، شئ شبيه ذلك الذى رأيته في شوارع المكسيك . ولكننى تعجبت عندما تناولت الإفطار ، إلى جانب البيض المطهو استقر طعام آخر له مذاق الفول المدمس ، نوع من العدس أو البقول ، لكن طريقة تدميسه شبيه تماماً بطعامنا المصرى الشعبى ، وعرفت أن هذا منتشر في امريكا اللاتينية وأنه قديم .



قبل زيارتى موقعا يمت إلى العصور المندثرة ، أحرص على قراءة ما تيسر ، ما يلقى الضوء على الأحجار الصامته ، والنقوش ، ويفك بعضاً من طلاسم الرموز ، فما البال ، وأنا أمضى لرؤية الأهرامات ، هرمى الشمس والقمر ، أحد أهرامات المكسيك الشهيرة الغامضة ، إذا كان الإنسان قد شيد عمارة هرمية الشكل فوق سطح الكوكب الأرضى . فقد جرى ذلك في موقعين ، مصر قبل الميلاد بحوالى ثلاثة آلاف سنة ، وكانت الذروة هرم الجيزة الأكبر ، والمكسيك ويرجع العلماء تاريخ الأهرامات هنا الى ما قبل الميلاد بحوالى ستمائة سنة . كنت متشوقاً لرؤية الأهرامات المكسيكية ، فالهرم عندى ليس مجرد بناء من أحجار متراسة ، إنما هو فلسفة وفكرة .

فكرة تحاكي العمر الذى يبدأ ممتداً عريضاً ثم يتناقص حتى يصل إلى نقطة تتلاشى عندها الفروق بين المادة والفراغ ، فكرة التطلع نحو اللانهاى ، إدراك ما كان يطمح الانسان القديم إلى إدراكه في السماوات العلى ، ثم أن هندسة البناء نفسه حوت أفضل العناصر لمقاومة العدم ، لقهر الفناء بالمادة الصلدة ، فالبناء مصمم بحيث يخف الثقل كلما ارتفع ، وهذا يطيل أمده ، وينتقل به من زمان إلى زمان .

بعد حوالى أربعين كيلو متراً بدأنا نقترّب من وادى تيوتيهواكان . ثمة

مرتفعات جبلية ، تلال صخرية لكنها مكسوة بالحشائش الخضراء ، فيه قامت خلال الالف عام السابقة على الميلاد مركز حضارى هام ، وفي المائة العام ق. م أصبحت تيوتيهوا كان مدينة متكاملة ، تقدر مساحتها وقتئذ بسبعة عشر كيلومتراً ، وعدد سكانها من ثلاثين إلى ستين ألفاً ، وفيها تم تشييد هرمين عملاقين لمعبدى الشمس والقمر ، عبادة الشمس كانت هنا ، وكانت أيضاً في مصر القديمة ، سواء في الإله رع ، أو في قرص الشمس نفسه الذى دعا اخناتون إلى عبادته كإله واحد للعالم كله . اشطح بخيالى محاولاً سبر الماضى البعيد ، وكما يقف الإنسان إزاء المستقبل حائراً لا يدرى ماذا سيحدث غداً ، يقف أيضاً حائراً إزاء ما كان في الماضى البعيد الذى لفه الصمت ، ولم يعد ما يدل عليه قادراً على البوح حتى وان بقيت علامات مثل هذه الأهرامات أو المعابد .



نترجل ، بقدر ما أحاول إستيعاب الأهرامات المائلة أمامى ، بقدر ما أحاول عقد المقارنة ، أهرامات مصر من حجارة ضخمة يتسق لونها مع الصحراء الرملية الممتدة ، ولكن هذه حجارتها أصغر حجماً بكثير ، حجارة رمادية غامقة ، كشفت في بعض المواضع عن كتلة من التراب الذى تجمد وتلاصقت ذراته ، ونبتت من خلاله الأعشاب الصغيرة ، الدقيقة ، أعشاب تطل حتى من بين الشقوق الدقيقة التى تفصل ما بين الأحجار ، بتأثير المطر الاستوائى الغزير الذى يستمر هنا طوال الصيف .

أهرامات الجيزة تراها دفعة واحدة برغم ضخامة كتلتها ، حتى عند الاقتراب منها ، تظل احاطتك بالأهرام ممكنة ، تشرف عليه ويشرف عليك ، أما هذا فلا تراه الا مجزئاً ، إذ لا ينطلق عبر ارتفاعه في مساحة واحدة ، إنما يتكون من عدة أجزاء ، مصاطب ، ويتوسطها درج معد للصعود ، وفي نهاية كل مصطبة أفريز عريض ، ومنه تنطلق إلى الإرتفاع التالى ، فوق هذا الأفريز يقال

إنه كان يتم تقديم الضحايا البشرية من الأسرى . يرتفع الهرم إلى ثلاثة وستين متراً ، أهرام الجيزة يرتفع إلى مائة وسبعة وثلاثين متراً ، هذا ارتفاعه الآن ، إذن فالبيون شاسع ، أما حضور كل منهما فمختلف ، وعندما ارتقيت الدرج وتطلعت إلى المنطقة المحيطة ، إلى هرم القمر القريب والأصغر حجماً ، والتلال الطبيعية هرمية الشكل ، خطر لي ، إن هذه الأهرامات ربما كانت تلالاً طبيعية في الأصل ، ثم جرت تسويتها ، وتكسيتهما بالحجر ، وماذا عن الفرق الصغيرة التي عثر العلماء عليها أخيراً؟ إنها محفورة وهذا يدعم تصوري ، إن قمة الهرم مسطحة ، ولا تنتهي بنقطة نحيلة كأهرامات مصر ، فوق القمة المسطحة كان يوجد معبد في يوم ما تمارس من خلاله طقوس العبادة . إلى وقت قريب كان الاعتقاد أن أهرامات المكسيك لا تحتوى على مدافن كأهرامات مصر ، لكن اكتشفت أخيراً مقابر داخل بعض الأهرامات ، وهنا يزداد التشابه ، فإذا كانت تفاصيل البناء مختلفة ، لكن الجوهر واحد . وأيضاً الوظيفة ، فلا شك أن أهرامات مصر كانت بناءً دينياً مرتبطاً بالطقوس والفلسفة والرؤية ، تماماً كأهرامات المكسيك .

خططت المدينة بدقة ، من فوق الهرم يمكن رؤيتها ، ملامحها ، قسماتها الرئيسية التي ما تزال أعمال الكشف جارية فيها . شارعان أساسيان هما محورهما ، يتقاطعان بزاوية قائمة ، تنتشر عدة هياكل ، ومعابد ، كانت المدينة مقدسة ، تضج بالحيوية ، أكثر تقدماً من أى مدينة أوروبية في زمنها . الشارعان الرئيسيان يشاران إلى الجهات الأربع . الشارع الرئيسي الذى يصل الهرمين كان يسمى شارع الموتى . على جانبيه اصطفت الهياكل والمعابد ، أهمها هرم الشمس ذاته ، يتقاطع شارع الموت في وسطه بزاوية قائمة مع شارع عريض بلا اسم منقسم إلى قطاعين ، الغربى والشرقى ، يصل طوله إلى حوالى ثلاثة كيلومترات . ومن هذين تتفرع شوارع أخرى متعامدة ، بحيث تشكل شبكة متتالية ، منتظمة من المربعات . يقول الباحث السوفيتى فاليرى

غولاييف ، ان المدينة كانت حسنة التنظيم ، وإن شوارعها كانت مرصوفة بمحلول جيرى صلب كالحجر ، مد تحتها مجارى ومواسير حجرية تنقل ماء المطر إلى أحواض خاصة . وهناك الآن تصور كامل لما كانت تحويه المدينة ، بيوت سكانها ، وأسواقها ، وحى الأجناب الذى اكتشف مؤخراً . كان النشاط الرئيسى فى المنطقة هو الزراعة ، وقد تعرضت مدينة تيوتيهوا كان إلى دمار شامل بين أعوام ٤٥٠ ميلادية — ٦٥٠ ميلادية . ويبدو انه جرى على أيدي بعض القبائل الرحل التى لم تكن تعرف الاستقرار ، والتى اجتاحت هذا المركز الدينى والثقافى الهام ، عندما حانت ساعة انصرافى ، فارقت المكان متراجعاً يظهرى محاولاً استيعاب الهرمين هرم الشمس ، وهرم القمر ، ويقينى الداخلى أقوى بوجود صلات ما بين مصر القديمة ، وهذه البقاع . لكن الاهرامات ليست عنصر التشابه الوحيد .

* * *

بعد انتهاء المؤتمر دعانا مدير المعهد الثقافى لمدينة موريليا إلى منطقة جبلية قريبة ، رائعة الجمال ، والمدير هندى الأصل ، يتزعم حركة لاهياء لغة قبيلته السائدة فى المنطقة ، لغة البورابتشا ، فى افتتاح المؤتمر القى كلمة بها ، ثم حرص على ان ينبهنى إلى بعض صفحات الجريدة المحلية ، تكتب بالبورابتشا فى حروف لاتينية ثم زارنى خصيصاً ليقدّم إلى عدة كتيبات تحوى اغنيات البورابتشا ، بنوتها الموسيقية ، وقاموس صغير للغة وما يوازى الكلمات بالاسبانية ، وشريط مسجل عليه موسيقى وأغان وقصائد البورابتشا ، وهناك حركات قوية لاهياء اكثر من ستة وعشرين لغة هندية قديمة ، فى محاولة لتحقيق الاتصال بالجذور ، والخصوصية فى محاولة أيضاً لوقف الغزو الثقافى القادم من الجارة الشمالية الأقوى . الولايات المتحدة . ولكن تأثيرها لا تلمحه إلا فى المدن الكبرى ، فالأساس الثقافى فى المكسيك عميق وغنى ، وقوى أيضاً ، من هنا كان الترحيب العميق ببحثى الذى القيته حول العناصر الروائية

في التراث العربي ، تحقيق الخصوصية هدفهم الرئيسي ، وأحد مومى الأساسية أيضاً ، لكل تراثه ووجهته . لكن الهدف واحد .

دعانا المدير إلى المنطقة الجبلية المرتفعة ، طبيعة خاصة ، ثرية ترد بالإنسان إلى بدايات الخليفة ، فوق هذا الارتفاع بحيرة باسكويرا ، بعد ابحار نصف ساعة بالقارب ذو المحرك . تلوح جزيرة خانتسيو ، البيوت فوق بعضها ، الشوارع تصعد على جدران المرتفع الصخرى وتنتهى بمقبرة الجزيرة ، فوجئت في المقبرة ، ببقايا طعام ، خبز ، وفاكهة ، وخضروات ، وقيل لنا انه في كل سنة تخصص المكسيك يوماً للاحتفال بذكرى الموتى في شهر نوفمبر ، وفي هذا اليوم يتجه السكان لزيارة أقاربهم الراحلين ، حاملين معهم اطارات خشبية علقوا بها كل ما كان يحبه الراحل أو يشتهي ، يضعونه فوق المقبرة ، وعندما رجعت إلى مصادر العقائد الهندية القديمة ، وجدت انهم كانوا يضعون مع الميت في قبره طعاماً وشراباً ، وما كان يمت إليه من حاجيات ، تماماً كالمصريين القدماء ، وهذا عناصر التشابه القوية . وأعود لا شطح بخيالى من جديد ، من يدرى ، ربما هاجرت موجات من المصريين القدماء حاملين معهم عقائدهم إلى هذه الفيا فى النائبة مع إنهيار الحضارة المصرية القديمة وأقولها ، وعاشوا في هذه القارة النائبة التى اكتشفناها أوروبا فى القرن السادس عشر ، فدمر الغزاة ثقافات عريقة بلا رحمة . هل يفسر شطحى هذا تشابه الملامح ، والطقوس ، وعناصر الثقافة الشعبية ؟ من يدرى ؟

موريليا ..

ماذا سيتبقى عندي من موريليا ؟

أى صور ستطفو من مجاهل الذاكرة بعد مرور أعوام عديدة ؟ أى روائع ستظل عالقة بحاسة شمى ؟ . أحياناً قد يثير عبير قديم حقبة بأكملها ، وفترة ولت ، أى الأفكار سوف تستدعيها موريليا ؟ . تلك المدينة ذات الحضور المتميز . الواقعة وسط المكسيك ، عاصمة ولاية ميشوكان ، على ارتفاع ستة آلاف وخمسمائة قدم من سطح البحر ، وسط منطقة جبلية ، من هنا تتعدد المستويات ، وتبدو الطرقات أحياناً كمرئى ، وأحياناً أخرى كمنحدر .

لا أدري ماذا سيتبقى ، ولكننى الآن بعد مضى حوالى ثلاثة شهور على إقامتى المحدودة بها ، أرى لحظة وصولنا المركز القديم ، ودخول العربة التى تقل الأدباء المشاركين فى مؤتمر السرد الروائى إلى الشوارع الضيقة بحثاً عن الفندق والمقر ، متاجر ، سعى متصل ، رجل يثنى ركبتيه أثناء مشيه ، يحيى شخصاً ما داخل عربة . أعى ملامحه ، والنحية ، مع أن عينى لم تقعا عليه إلا ثوانى معدودات ، ربما لأنه حل بالبداية ، أول وصولنا المدينة . والبدائيات دائماً لا تمحى من الذاكرة ، كذا النهايات ، لحظة التعارف الأولى استرجعها مجسده ، جليلة ، كذا لحظات الفراق ، أو إنقطاع الصلات ، سواء بمكان ، بزمان ، بشخص عزيز ، أو كرية .

التاريخ ذو حضور قوى فى موريليا ، عند إفتتاح مؤتمر السرد الروائى ، تحدث مدير المركز الثقافى بالأسبانية ، ثم تغير فجأة إيقاع خطابه . بدت لى اللغة غريبة ، تشبه إيقاع اللغة الصينية ، مال على مرافقى هامساً ، انها لغة

(البورابيتشا) اللغة الأصلية لقبائل الهنود القاطنين هنا ، في المكسيك حوالى ستة وعشرين لغة قديمة ، وتوجد حركات قوية الآن لحياتها ، في صباح يوم المغادرة جاءنى المدير بعدد من المطبوعات لهذه اللغة ، وتسجيلات موسيقية لأغاني البورابيتشا ، ونوت موسيقية ، في الجريدة المحلية صفحتين تصدران الآن بهذه اللغة ، طبعاً تكتب بالحروف اللاتينية ، إضافة إلى مطبوعات أخرى ، وفى كل المنابر الثقافية والاعلامية في المدينة موقع للبورابيتشا ، حوالى عشر صحف ومجلات محلية، ومحطتين للتليفزيون ، ومحطة اذاعة ، وقصر ثقافة يموج بالنشاط وفيه عقدت جلسات المؤتمر .

بالتأكيد سوف أذكر دائماً ملامح هذا الرجل هندی الأصل ، شرقى الملامح، ونضاله من أجل إحياء لغة البورابيتشا . من أجله تأكيد الهوية ، والخصوصية، وعباراته التى طلب من خلالها استماعى إلى أغاني البورابيتشا .

* * *

للحضور التاريخي عناصر عديدة يتكون منها . تسهم في خلق الاحساس ، ولأننى شديد الاهتمام بالعمارة ، خاصة العمارة العربية والاسلامية . أسعى إلى التعرف على نماذجها . ومشاهدة أثارها . وخلال ترحالى أطلعت على أشهر علاماتها ، من منمنمات المغرب الاندلسية وحتى قباب سمرقند ، ومآذن ، واقواس مدرسة مير عرب في بخارى ، واضرحة الصوفية الذين ساحوا في البرارى والبلدان وعبروا سيمون وجيجون ودفنوا في صحارى تركمانيا ، إلى مداخل المراقدة المقدسة بذهبها وفضتها وقبابها التى يمكن رؤيتها من علو شاطئ لما تعكسه من بريق ، وحتى مآذن استامبول النحيلة ، وخطوط مسجد السلطان احمد القوية ، التى تحاكي معمار كنيسة ايا صوفيا القديمة التى لم تخفف معالمها بعد رغم تحولها إلى مسجد ، وحتى المساجد الصغيرة الحزينة ، الوحيدة التى قامت في اوروبا الشرقية ، آخر حد وصلت إليه جيوش الاسلام ، أو جماعات الدراويش الذين كانوا ينشرون الدعوة ، وأخص بالذكر مسجد

صغير ، رقيق ، اسمه مسجد حسن ياكوفيل قائم الآن بمدينة
(بيتش) المجرية ، أما تذكرى واستعادتى لمرقد الشيخ نجم الدين كهري زاده
في الصحراء التركمانية النائية ، واستعادة السطور التى كتبت على جدرانها
باللون الأبيض على أرضية من الخزف الأزرق الحزين ، خاصة بيت الشعر
الشهير :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِالْحَجُونِ وَالصَّفَا أَنَيْسَ وَلَمْ يَسْمُرْ مَكَّةَ سَامِرَ

إن استعادة هذه السطور ، وتوحد الضريح لتبعث داخل رعدة قادمة من
زمن سحيق . أما معمار موريليا فاثار عندي دهشة ، ذلك اننى رأيت بوضوح
التأثير العربى ، فى الأقواس الحجرية التى تحد الارصفة فتنشئُ ممرات ظليلة
يسرى فيها المارة خلال الشهور العديدة التى لا تغيب فيها الشمس ، فتسطع
بقوة .

مدينة مكسيكو سیتی تقع على خط العرض الذى يمر بمدينة أسوان فى
بلادى ، أى اننى عندما كنت أمشى فى شوارعها ، واشهد مظاهرات المدرسين
السلمية المطالبة بزيادة الأجور ، اصطحبوا طلبة المدارس الصغار معهم .
ومظاهرات ربات البيوت اللواتى حاصرن وزارة التموين يحملن أوعية الطبخ
الفارغة يقرعنها بالملاعق ، عندما كنت أرى أبناء الأثرياء يركبون الدراجات
البخارية مرتفعة الثمن ، يتجمعون وسط المدينة ، عندما كنت أرى أطفالاً
صغاراً ملامحهم هندية ، قد صبغوا وجوههم بالوان شتى ، يتشقلبون عند
اشارات المرور سعياً وراء بضعة بيزوسات (البيزوس اقل من المليم أو
الفلس) ، طريقة مهذبة ، مستقرة للتسول ، عندما رأيت عشب الصفيح حول
المدينة ، عندما رأيت منطقة الأغنياء وبذخ العمارة الذى يشى بشرى فاحش ،
عندما كنت أرى ملامح التناقضات الاجتماعية الحادة ، والغليان الذى يموج فى
المجتمع المكسيكى ، عندما اطلعت على هذا كله ، كنت أقف فى نفس الوقت
بمحاذاة السد العالى ، وحديقة النباتات ، ودير الانبا سمعان . والمسلة الناقصة ،

وحوارى أسوان الفقيرة ، وفنادقها الفاخرة ، فما أبعد الشقة . وما أقرب تشابه الظرف .

ومرة أخرى . أسأل نفسي ، ماذا سيبقى عندي من موريليا ؟



هذه الملامح في العمارة ، عربية الجذور ، الأقواس ، المبانى المفتوحة على الداخل ، كان الفندق الذى نزلنا فيه شبيه بخان مرجان في بغداد أو وكالة الغورى في القاهرة ، نوافذ مستطيلة تطل على الطريق ، مدخل فسيح يؤدي إلى حديقة داخلية جميلة تفيض رقة وخصوبة ، تتوسطها نافورة ، أما الغرف فمرتفعة الأسقف ، كذلك قاعات الطعام ، كان منزلاً لحدى الاسر الثرية في القرن الماضى . ثم هجر . ثم حولوه إلى فندق حديث . لكن مع الحفاظ التام على طابعه القديم . استغلال أمثل وذكى ، كافة مبانى المدينة القديمة ، مقر حاكم الولاية ، قصر العدالة ، مبنى البريد ، التصميمات متقاربة ، خطوط العمارة العربية ، لست أشك في الجذر البعيد ، إنه الأندلس ، جاء الأسبان الغزاة بتقاليد العمارة العربية ، الإسلامية ، وكانت مناسبة جداً لهذه البلاد الحارة ، وأضفى عليها الحجر ذو اللون الوسط بين الأحمر الفاتح والبني طابعاً خاصاً ، حجارة منتزعة من الجبال القريبة المحيطة ، حيث الطبيعة ذات فريدة وتميز ، تموجات الأرض ، نبات التين الشوكى وأشجاره ، النخيل متعدد الرؤوس والسدى لم أشهده إلا هنا ، قصب السكر غليظ الجذع ، يباع في شوارع المدينة كعصير ، أو للمص ، مقسم مقشر في أكياس صغيرة من البلاستيك ، فوق الجبال المحيطة تقع بحيرة فيلاسكويرا ، في المنتصف منها وبعد إبحار مقداره نصف ساعة بزورق بخارى تلوح الجزيرة ، بيوتها مشيدة على مرتفع ، فوق أعلى نقطة منه تمثال للبطل المكسيكى الوطنى كارديناس ، حمله العمال والفلاحون إلى السلطة عام ١٩٣٣ ، وفي الزورق الذى أقلنا راح أبناء المكسيك من الأدباء ينشدون الاغانى التى تذكر كارديناس ، والبطل جوزيه ماريما موريلوس الذى ولد في

المدينة عام ١٧٦٥ ، واطلق اسمه عليها - موريليا - تكريماً له كأحد أبطال حرب الاستقلال ، تفيض المكسيك بالثروة ، مساحتها تقترب من مساحة الولايات المتحدة ، ثرواتها من المواد الخام أكثر ، كذا ثرواتها الطبيعية ، ولكن النهب الاستعماري ، وسوء النظام الاجتماعي ، والفساد ، وبطش الولايات المتحدة ، الجار الشمالى ، ويدها الثقيلة التى تشعر بها مخيمة ، هذا كله جعل المكسيك أقرب إلى العالم الثالث ، مكبل بالديون ، حوالى مائة وعشرين ملياراً ، ويبدو أنها خطة للولايات المتحدة ، اغراق البلاد التى تدور فى فلكها بالديون ، حتى يسهل السيطرة عليها ، فما البال إذا كان هذا البلد يعتبر الفناء الخلفى للولايات المتحدة ، ومدخل امريكا اللاتينية كلها ، وبرغم الجار الشمالى القوى ، فلم ألحظ التأثير الثقافى الأمريكى ، ولا رموزه العالمية ، مثل أرغفة ماكدونالد التى غزت موسكو العريقة اخيراً ، والكوكاكولا . وموسيقى الروك . هنا تمسك بالأصالة ، بالخصوصية ، والثقافة هى الدرع الحصين ، الثقافة الهندية القديمة الموروثة من حضارات ألمايا ، والازتيك ، والثقافة الأسبانية الوافدة منذ القرن السادس عشر ، والتى تشكلت بملامح البلاد . ولا أدري من القائل ، إنه من سوء حظ المكسيك بعدها عن الله ، وقربها الشديد من الولايات المتحدة .

* * *

ماذا يتبقى من موريليا عندى ؟

بالتأكيد .. تلك الاعلام التى تتكون من لونين ، الأصفر . والأحمر ، كانت معلقة فى الشوارع بكثافة ، ظننتها فى البداية مناسبة ما ، وعندما أصغيت إلى نداءات تنطلق من مكبرات صوت فوق عربات سريعة تجول الشوارع ، لم افهم منها إلا كلمة واحدة (السلفادورا ..) . وعندما كان يقترب منى شباب ويضعون فى يدي منشورات تدعو إلى دعم ثوار السلفادور ، ومعاضدتهم ، كانوا وقتئذ قد نجحوا فى اقتحام العاصمة ، أدركت أن (موريليا) تغل بالتأييد لثوار السلفادور ، ثم حدثنى شباب آخرين بمرارة عن أثر السياسة الخارجية

للاتحاد السوفيتي بعد بريستويكا جورباتشوف ، كانت الدولة الاشتراكية الاولى والعظمى تمثل حلماً انسانيا رائعاً في المساواة ، في انتصار المستضعفين في الارض ، وكان وجودها المعنوي والمادي يمثل رادعا للولايات المتحدة ، وقوة مساندة لحركات التحرر ، خاصة هنا في أمريكا اللاتينية ، وأن ترى على الطبيعة أكثر فعالية من أن نسمع ، كافة الحركات الثورية في أمريكا اللاتينية تتراجع الآن ، وشعورهم أن الاتحاد السوفيتي قد تخلى عن مساندتهم عميق ، وأمريكا الشمالية ترد بسرعة على مبادرات السيد جورباتشوف السلامية ، فتغزو بنما ، وتكتف من حملاتها لقمع الثورات في بلدان أمريكا اللاتينية . أما السذج من اليسار ، وخاصة في عالمنا العربي ، فيهللون للبريستويكا ، ويفسقون بالكلمات ، عندما يصفونها بأنها ثورة اشتراكية جديدة ، حقاً انها ثورة .. ولكنها ثورة مضادة للاشتراكية ، للحلم الإنساني الرائع الذي نمونا عليه ، واعتقناه ، ودفع كثيرون سنوات غالية من أعمارهم لتحقيقه ، وإذا بهذا الحلم والمشروع العظيم الذي قام من خلال ثورة أكتوبر العظمى ينهار أمام حضارة الوميبي ، والكوكاكولا ، وموسيقى الروك . التي تنتشر في موسكو الآن تعبيراً عن حسن النوايا وجدية التحولات البريوستراكية ، مع أن موسيقى البلالكا أروع وأعظم .

الحديث يطول ، وبالتأكيد فإن شجونه بلا حصر ، خاصة بعد فتح باب الهجرة أمام صهاينة الاتحاد السوفيتي لغزو ما تبقى من فلسطين . ولكن للصورة ملامح خاصة تبدو هنا في أراضي أمريكا اللاتينية ، ولكن . من يدرى ، ربما تتخذ ثورات هذه الشعوب مسارات أخرى ، فيجدد الحلم الذي أجهض في موسكو على أيدي أبناء المايا والازتيك ، والحضارة العربية ، فقط عليهم إدراك عناصر قوتهم الذاتية . فالتاريخ لم ينته بعد .

* * *

ماذا يتبقى من موريليا ؟

طبعاً المناسبة التي جئت من أجلها ، مؤتمر أساليب السرد الروائي ، والذي

سيطرت على محاوره هموم الادباء والمثقفين الذين جاءوا من بلدان أمريكا اللاتينية ، والبرتغال ، وبعض المتخصصين في أدب أمريكا اللاتينية من الجامعات الأوروبية ، وأديب واحد يمثل ثقافة مختلفة ، وحضارة مغايرة ، وهو كاتب هذه السطور ، أما الهموم فعكست إهتماماً بمستقبل الأدب ، ولغته ، ودوره ، وأساليب تجديده ، وقد عدت بما ألقاه الأدباء من أبحاث ، وإننى لاهديها إلى اليوم السابع لترجمتها من الأسبانية ونشر نصوصها ، حتى يطلع القراء على ما يشغل أدياء القارة هناك . وظروفهم تكاد تتطابق مع ظروفنا .

* * *

ماذا يتبقى من موريليا عندي ؟

أرى الآن أول نجم يفد من عمق السماء في الليل ، تعلق بصرى به ونحن نعبر بحيرة فيلا سكويرا ، متجهين إلى الجزيرة ، كان يبدو كبيراً جداً . أكثر مما عهدته في أى موضع آخر من العالم ، هل نكون أقرب إلى السماء هنا؟ ، ألهذا السبب عبدوا الشمس والقمر هنا ؟

ربما .. لكن ، ما لن أنساه أبداً لمعة هذا النجم القصوى ، ولمعة أخرى ، عندما كنت أتجه إلى المطار مقلعاً إلى ديارى ، حاذت السيارة عربة أخرى تقودها شابة من تلك الأقاصى . كان وجهها ذو حضور قوى ، وسمرة بشرتها غريبة ، فريدة ، من عناصر وحضارات شتى ، ويبدو أنها شعرت بوقع بصرى . إلتفتت صوبى ، ولمعت عيناها الجميلتان لمعة لن أنساها أبداً . بعثت عندي رجفة ، ووعداً مستحيلاً بالوصول ، التفت إلى صديقى المصرى قائلاً ..

.. هل رأيت هذا الجمال الفريد ..

قال مرافقى الذى يصحبني إلى المطار .

.. طبعاً ..

قلت إننى من خلال هذه اللحظات العابرة يمكننى أن أضع فيها كتاباً كاملاً ، وإننى لأعنى ما أقول !

متناليات هولندية

فبراير ١٩٩١

.. أتوق إلى السفر ، حتى إذا واثت الفرصة ، ودنا موعده يبدأ الاكتئاب ، وخشية المجهول ، والإنقطاع عن العادة والمألوف ، والتردد ، تلك مشاعر وأحاسيس تقوى عندي خلال السنوات الأخيرة . وهذا ما اشتد عندي كلما اقترب موعد سفري إلى امستردام في العاشر من فبراير ، ومما ضاعف الأمر بدأ الحرب في الخليج العربي . فالظرف العام مضطرب أيضاً . لم يكن في حسابان القائمين على تنظيم مهرجان الأدب العربي اشتعال الحرب . إذ بدأ الإعداد له منذ عام تقريباً ، عندما تلقيت أول رسالة لحضور هذا المهرجان ، كان ذلك قبل غزو العراق للكويت في اغسطس الماضي .

ثمة عامل آخر طارئ ، اضطراب خطوط الطيران . المسافرون قلة ، ومنطقة الشرق الأوسط اعتبرت خطيرة ، وبعد أن كانت هناك رحلة واحدة يومية تقوم بها الشركة الهولندية ، إنخفضت الرحلات لتصبح مرة واحدة اسبوعياً ، فجر الأحد ..

إذن .. ماذا لو تصاعدت حدة القتال ؟

ماذا لو شمل الشرق الأوسط كله ؟

أسئلة مطروحة ، وكافة الاحتمالات قائمة ، إذن .. من الممكن أن ألقى نفسي في أوروبا منقطعاً عن الوطن ، وما من وسيلة عودة . مصر للطيران ألغت رحلاتها لعدم وجود ركاب . الشركات الأجنبية خفضت رحلاتها .

قبل سفري بيومين إتصل بي عبد الرزاق السبأيتي رئيس مؤسسة

«الهجرة» المنظمة للمهرجان ، كان يتأكد من موعد سفرى . قلت له انه توجد طائرة واحدة فى الاسبوع تقلع فجر الأحد وهذا يعنى أننى سوف أصل قبل الموعد المحدد بثلاثة أيام ، إننى لا أرغب فى أن أكون ضيقاً ثقيلاً ، يمكن أن أصل بالطائرة التالية للافتتاح .

قال إنه من المهم جداً حضورى الافتتاح الذى سوف يشهده مسئولون هولنديون كبار ، فى مقدمتهم وزيرة الثقافة ، وعمدة مدينة امستردام ، ثم أن أول نشاط للمهرجان مخصص لى فى ليلة الافتتاح . عدت أستفسر منه عن الظروف السائدة فى أوروبا الآن ، وما أقراه عن استنفار المشاعر المضادة للعرب ، والعنصرية .

قال إن أهمية إنعقاد المهرجان تأتى هنا ، فمن المهم القيام بهذا النشاط الثقافى الذى يبرز الوجه الإيجابى للثقافة العربية .

هكذا .. لم تعد هناك حجة ، ولأننى أعرف سخافة الاعتذار فى اللحظة الأخيرة ، وما يترتب عليه من اضطراب البرنامج المعد ، ولأننى مؤمن بأهمية هذه اللقاءات التى تخدم الثقافة العربية فى الغرب ، ولأننى كنت أمر بأيام كثيفة منذ بداية الحرب . عزمت أمري ، وتوكلت على الله ..

* * *

موعد إقلاع الطائرة فى الثانية صباحاً بعد منتصف الليل . وصلت مطار القاهرة فى الحادية عشرة والنصف . افضل الذهاب مبكراً لإنهاء الإجراءات ، ثم المثول فى حالة إنتظار ، كان المطار مزدحماً ، كافة رحلات الطيران القادمة والذهابية إلى أوروبا تتم ليلاً ، لا تمكث الطائرات إلا وقتاً ضئيلاً ، اللازم فقط لنزول الركاب والتموين . فالتأمين على الطائرات مرتفع ، ولكننى لم أعرف سر الرحلات الليلية ، ولماذا لا تتم إلا ليلاً . كان الزحام شديداً أمام المدخل ، وعندما سألنى شرطى الحراسة عن وجهتى ، أجبتة ، قال بإختصار ..

- لقد تأخرت الرحلة وتأجلت إلى الغد ..

مفاجأة غير سارة .

فالسفر حالة ، يبدأ التأهب لها قبل موعده بأيام ، وحتى الآن ورغم تعدد مرات رحيل لم أتكيف بعد مع ظروف التغيير المفاجئ فمازلت احتاج وقتاً كافياً لترتيب أوراقى ، وتقليل التغيير الذى سيطرأ على برنامج قراءتى وكتابتى. كثير من زملائى الصحفيين يمضون إلى المطار وكأنهم يقصدون احدى ضواحي القاهرة وليس بلاداً بعيدة .

عندما خرجت مرة أخرى من المطار ، مضيت إلى موقف عربات الاجرة أمام صالة الوصول ، السيارات تصطف في طابور طويل ، عندما وصلت الى العربى الاولى طالعتنى وجه السائق الذى بادرنى قائلاً :

- كل تأخير وفيها خيرة ..

لاقت الجملة عندى موقعاً حسناً ، تلك المبادرات المصرية التى تشجع الحميمية وتسهل الصلة ، أذكر وجوه سائقى العربات فى المطارات الأجنبية ، اعتصامهم بالصمت ، برودهم . وإجاباتهم المختصرة ، أذكر أننى كنت عائداً من دولة اوروبية منذ فترة ، وبمجرد نزولى من سلم الطائرة . سمعت سائق العربى التى تنقل الركاب إلى مبنى المطار .

- تعالوا هنا بالصلاة على النبى ..

ترقيق الحوار . لنر تحية الصباح فى مصر . خاصة فى الأحياء الشعبية ، «يا صباح الفل» ، «يا صباح الجمال» ، «نهارنا فل» «نهارنا قشطة» ، «نهارنا أبيض» ، «يا صباح الورد» «يا صباح اللبن» الخ .

فى اللغات الأخرى تعبير واحد مقتضب ، وإذا أتذكر طفولتى فى الجمالية ، أستعيد رنة البشر فى أصوات التحية تلك ، وأرى اقبال البسطاء على الدنيا رغم عسر الأحوال .

فى الطريق قال لى السائق إنه يقف مكانه منذ الثالثة عصرأ ، حركة المسافرين

محدودة جداً ، واللييلة بالذات لم تصل أى طائفة من أوروبا ، يعرف السائقون حركة الطائرات ومواعيدها وربما نوعية ركبائها ، فالقادمون من البلدان العربية يختلفون عن أولئك الذين اقلعوا من أوروبا وأمريكا .

لماذا لم تصل الطائرات الليلة ؟

هل هو سوء الأحوال الجوية كما قيل ؟

أو انها أسباب أخرى تتعلق بالحرب ؟ بالهجوم البرى المنتظر ، أو أى تطور آخر ..

* * *

الأحد :

بالتأكيد .. لم يكن السبب أمس سوء الأحوال الجوية . عندما اقتربت الطائرة من مطار امستردام لم يكن ممكناً رؤية أى شىء خارج نافذة الطائرة ، ضباب كثيف فى كثافة اللبى ، وعندما لامست العجلات الأرض كان من الصعب رؤية نهاية الجناحين المتدنين لغوص أطرافهما فى الضباب . الجليد يغطى الأرض عدا الممرات ، المصابيح ترسل أضواء صفراء شبحية ، يبدو الواقفون فى المطار يرتدون ثياباً ثقيلة تتوقف الطائرة تماماً ، ونمضى عبر الأنبوب الطويل المؤدى إلى المطار ، اللون الأصفر هو الغالب ، لم تستغرق الاجراءات إلا دقائق ولكننى لاحظت أن البعض يتم وقوفهم جانباً بعد ملاحظات من ضباط الجوازات ، التدقيق قائم فى كافة المطارات الأوروبية بالنسبة للعرب ، والعرب هنا يعاملون ككل ، كجنس ، وليس كدول ، لا فرق بين سعودى ، أو مغربى ، أو مصرى ، أو سودانى .

خارج المطار لمحت عبد الرزاق السبايتى ، لم نلتق من قبل ولكن ملامحه العربية كانت كافية لكى أتعرف عليه ، بسرعة قارنت بين ملامحه الشابة . إذ لا يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين . وبين صوته الذى عرفته فى الهاتف والذى يوحى أنه أكبر سناً .

عبد الرزاق جاء إلى هولنده منذ حوالى ثمانية عشر عاماً كمهاجر بحث عن عمل ، والجالية المغربية هنا أكبر الجاليات العربية تليها الآن الجالية المصرية حيث يوجد حوالى عشرين ألف مصرى كلهم من الشباب ، ومعظمهم جامعيون، يعملون في مهن شتى ، بدءاً من المطاعم وحتى مكاتب الترجمة .

افتتح عبد الرزاق مكتبة لبيع الكتب والاسطوانات العربية ، إنها الوحيدة في امستردام . ومن خلالها أسس هو وزوجته الهولندية السيدة سيمون مؤسسة الهجرة ، وبالتعاون مع عدد من المستعربين الهولنديين أساتذة الأدب العربى في الجامعات الهولندية ، وعرب آخرين ، حيث تعنى المؤسسة بتقديم الثقافة العربية ، تدريس اللغة العربية لأبناء المهاجرين ولل هولنديين الراغبين ، ومن بين انشطتها تنظيم هذا المهرجان الذى جئت من أجله ، مهرجان الثقافة العربية، والذى يعقد مرة في كل سنة ، إنه الرابع ، وتحصل المؤسسة على إعانات مالية من وزارة الثقافة وبلدية امستردام وجهات ثقافية أخرى يتم من خلالها تمويل نفقات المهرجان ،، في هذا العام سيحضر أيضاً الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور ، والقصاص الفلسطينية ليانة بدر . والمغربية خنانة بنونة ، ومن باريس يجيئُ فنان الخط العراقى حسن المسعودى ، وفرقة جمال علام التى تقدم الموسيقى البربرية أو كما تعرف في شمال إفريقيا بالامازيغية .

كنت أول الواصلين ، ومن المطار إلى الفندق اتصلت بيننا الحميمة . تحدثنا عن الحرب ، وعن الطقس ، إن الجليد نادر هنا ، لقرب الاراضى المنخفضة من البحر ، ولكن هذه العاصفة الثلجية تهب منذ أيام ، والجليد بالنسبة لى غريب ، أول مرة رأيته أثناء سقوطه كان ذلك خلال الايام التى تلت حرب أكتوبر عندما سافرت إلى سوريا لاعداد تحقيقات صحفية عن الحرب ، وأثناء الليل في الطريق من دمشق إلى اللاذقية حيث قاعدة القوات البحرية ، هبت عاصفة ثلجية ولأول مرة أقابل ندف الثلج المتساقط من الفراغ ، وكان مشهداً عجباً بالنسبة لى ، أنا القادم من بلاد الدفء والشمس . فيما بعد شهدته

مراراً، في باريس عام ١٩٨٢ عندما مضيت لمناسبة صدور ترجمة كتابي «الزيني بركات» إلى الفرنسية ، كان ذلك في يناير ، وكانت أوروبا تمر بعاصفة مماثلة ، وفي عام ١٩٨٧ رأيت الشتاء الروسي المكين في موسكو، حيث يرتفع الثلج أكثر من متر في الطريق . وأغرب ما عرفته وقتئذ سباحة الأطفال والشباب في الجليد ، في حرارة تقل عن الصفر بثلاثين درجة، وقد أطلعتني أديبة روسية على صور لها بالمياه وهي تسبح في الجليد، وحتى الآن غير قادر على إستيعاب ذلك بالمخيلة .

يكون الجليد جميلاً ورائعاً وغريباً إذا تأملت سقوطه أو انبساطه فوق الموجودات من مكان دائم مغلق عبر الزجاج ، ولكن المشى فيه مرهق لمن كان مثلي ، حتى مع الاستحكامات ، مثل الملابس الصوفية ، والسراويل الداخلية الطويلة التي لا يتخلل عنها أهل الريف في مصر طوال الشتاء . وغطاء رأس من الفراء على الطراز الروسي . لا أنكر من القائل : تكون العاصفة جميلة إذا كان البيت قوياً .

مع إقترابنا من الفندق ، قال عبد الرزاق إن الجهات الرسمية في هولنده حريصة على نجاح المهرجان الذي يعقد في ظروف دقيقة ، وفي أجواء الحرب الممتدة من الخليج إلى هنا ، إلى سائر أنحاء أوروبا ، قال إن الجهات الأمنية اتخذت كافة الاحتياطات ، وعندهم خبر بما سيتم ، لكنه يفضل أيضاً ألا أخبر أى شخص بمكان الإقامة ، إذا كان ولا بد ثمة اتصال فليتم عن طريق مؤسسة الهجرة .

أصغيت بحرص ، محافظاً على تعبيرات وجهي جامدة ، وإن ساورني قلق ، فالغريب يكون ضعيفاً مهما كان . وبالطبع قفزت إلى ذهني حالات اغتيال تمت في الفنادق . مثل هذه الهواجس تزداد خاصة بعد الانفراد ، وقبل الاستعداد للنوم ، ولكن في كل الأحوال يجب ألا أسمع بإزديادها عن حد معين حتى لا تفسد أيامي هنا ..

قال عبد الرزاق انه سيأتى فى الصباح ليصطحبنى ، وغداً سأتعرف إلى استاذ الأدب العربى فى جامعة امستردام الحرة الذى سيجيى ليصحبنى خصيصاً .

بعد ذهابه رحت أتأمل الغرفة .

الفندق إسمه أول ، أى البومة ، وفى كل ركن منه يطالعك تمثال أو صورة للبومة ، بوم أنيق ، فسيح العينين يطل من فوق لوحة المفاتيح ، أو من أركان الحديقة الخلفية الصغيرة التى تطل عليها نافذة الغرفة .

كم حجرة غريبة نزلت بها عابراً قبل هذه ؟

كم منذ ان بدأت السفر فى أوائل الستينيات؟ عندما كنت طالباً بالثانوى ، خاصة بعد عملى كمصمم للمسجد فى مؤسسة التعاون الانتاجى ، وسفرى إلى القرى والمحافظات لمتابعة تنفيذ التصميمات فى وحدات السجاد ، تلك الفنادق المتواضعة ، والقرى النائية ، ثم تكرر سفرى إلى البلدان العربية والأوروبية منذ عام ١٩٧٣ . لا حرص لى ، ولا شرط لى عند تلقى أى دعوة إلا النوم منفرداً ، فى حجرة بمفردى ، إن الإنسان يكون أشد وحدة عند نومه . حتى ليتخذ معظمنا وضع الجنين فى الرحم ، وأكره أن يشاركنى من أجهل الفراغ الذى تتم فيه هذه الوحدة .

صعب على الذاكرة احصاء الغرف التى آوتنى ، فقد طوفت كثيراً . وأقلعت مراراً .

الغرفة مستطيلة ، ضيقة ، سرير ، صوان ، مكتب ، مقعد واحد ، تليفزيون كان باستطاعته عبه أن أرى خمسة وعشرين قناة مختلفة ، منها القناة الأمريكية السى ان ان . والتليفزيون البريطانى ، القناة الأولى والثانية ، وقنوات أخرى إيطالية ، وألمانية ، وفرنسية ، وبالطبع هولندية ، بالطبع لم أكن أتوقف عندها كثيراً لجهل باللغة . ولكم اقتصت متابعتي أخبار الحرب من ساعات نومي القليلة ، كنت أعود متأخراً ، فى الواحدة أو الثانية صباحاً ، وأبدأ التنقل

بين القنوات ، وافاجأ بالرابعة صباحاً أو الخامسة قد أدركتني بينما يجب أن
استيقظ مبكراً لمتابعة برنامج المهرجان .

بسرعة تألفت مع الغرفة رغم بساطتها ، أزحت الستائر عن النافذة
المستطيلة ، كان الفراغ جليدياً ، الأشجار مكسوة باللون الأبيض ، أضواء
خافتة كالهمس تبدو من نوافذ البيوت القريبة . السماء مقنعة بضباب كثيف .
أعود إلى الفراش . الساعة الآن في القاهرة متقدمة ، فارق التوقيت ستين دقيقة ،
نحن أقرب إلى موضع شروق الشمس ، كل ما امر به في ترحالي أحيله إلى أصل
. فالقاهرة عندي هي الأصل ، وموطني هو المرجع الأول .

أرى بعيني عقل بيتي في هذه اللحظات . السكون المخيم عليه ، اتخيل
الطريق الممتد تحته ، وأضواء جبل المقطم التي تبدو عند الأفق .

أصغى إلى أصوات المكان الجديد ، أحاول أن أفسرها وأنسبها إلى مصادرها ،
حتى اعتاد عليها ، لكل مكان أصواته ، الخاصة ، وهسيسه .

لم أدر اللحظة الفاصلة بين اليقظة والنوم .

أول وسنى في عاصمة البلاد المنخفضة ..

* * *

الاثنين :

في الصباح استعيد اكتشاف الموجودات . حقاً .. النهار له عيني ، مهما بلغت
قوة الاضاءة وتعود المصابيح الليلية ، ازيح الستارة ، أتجول ببصرى مطولاً
في الحديقة الصغيرة التابعة للفندق ، تنتهي بحجرة من خشب أبيض الطلاء ،
أطلع إلى الساعة ، لابد أن الحصة الأولى في المدرسة انتهت الآن ، هناك في
مصر .

في نهاية الحديقة الصغيرة مصباح على الطراز القديم يقوم فوق عامود
حديدي . مازال مضاءً ، أطيل النظر إلى ما تقع عليه عيناى خلال إقامتى هنا ،
وكم من نوافذ تطلعت عبرها في مدن شتى ، ودائماً أتذكر اللحظات الأولى التي

يلم فيها بصرى بالمشهد الذى سافرقه بعد إقامتى المؤقتة ، ويومياً أطل ، فى الصباح ، وإذا عدت إلى مكانى فى الظهيرة ، وليلاً قبل النوم . وبعد مغادرتي ، يتحول الموضوع الى مادة تغذى الذكريات ، وبعد ان كنت أطل على الموجودات من خلال نوافذ مؤطرة ، تحدد الرؤية والمجال ، أطل من خلال ثقب ذاكرتى التى لا ترى ، فارصد بعض الملامح بوضوح ، واجتهد فى إستعادة الآخر ، وعيئاً أحاول ترتيب الأشياء كما كنت أراها فى وقت تطلعى ورؤيتى . فربما تختفى علامة ضخمة أو مبنى ما زال قائماً ، ولكن للذاكرة قانونها الخاص . أفارق الحجرة ، مفضلاً النزول إلى الطابق الأول عبر السلم الخشبي ، مؤتسماً بصريـر الدرج تحت حذائي .

الـج قاعة الطعام ، مجاورة تماماً للحديقة ، مؤدية إليها ، الحشائش الخضراء تطل عبثاً عبر غطاء الجليد الأبيض الذى بلغ سمكه حوالى العشر سنتيمترات .

اختار منضدة فى مواجهة الأشجار العتيقة ، والحديقة التى أطل عليها من غرفتى ، لكننى الآن جالس فى مواجهةـها تماماً ، الآن لا أذكر الوجوه التى كانت، لكننى أثق أن منضدة كان يجلس إليها رجل عجوز وسيدة ، الرجل طويل ممتلئ ، والسيدة نحيلة ، مجمدة العنق ، وكانا صامتين . هنا يعتصم كل إنسان بوحده ، بنفسه ، فى بلدى يتم التواصل بسرعة ، لا ادخل مطعماً فى القاهرة القديمة إلا وأبادر الجالسـين بالسلام ، فيردون التحية بأحسن منها ، ثم يشيرون إلى ما وضع أمامهم إن كانوا سبقونى ، ويقولون : تقضل . فاجيب : بالهنا والشفـا.

وإذا شاركت أحد المنضدة ، فقد يمتد الحوار بيننا ، وأذكر أننى أطلعت على حيوات كاملة فى مثل هذه اللقاءات العابرة التى تتم فى المطاعم، المقامى، القطارات ، صالات الانتظار بعيادات الأطباء ، وتكون فاتحة الكلام دائماً بالسؤال عن البلدة أو الحى الذى ينتمى إليه الآخر ، فإذا قال إنه من الصعيد

مثلاً أبادر قائلًا : اجدع ناس ، ثم اتبع الثناء بالسؤال عن البلدة ، فإذا قال مثلاً: أبو قرقاص . أقول متسائلاً : تعرف فلان ؟ ويبدأ الائتناس وقد تنشأ الصلة .

في أوروبا لا تجرى الأمور هكذا ، قد يجلس الإنسان بمفرده ساعات في المقهى . أو فوق مقعد الحديقة ، معتصماً بصمته ، محدقاً بلامحه الجامدة إلى الفراغ . لا يتبادل الحديث مع من يجاوره ، أو يمر به ، وربما مع صاحبه نفسه ..

هكذا .. أوليت وجهي تجاه الحديقة محاولاً تثبيت المكان الذي ربما لن أراه مرة أخرى بعد أن أفارقه في ذاكرتي .

- صباح الخير ..

تحية بالعربية ؟ رفعت رأسى مبتهجاً ، تقف فتاة شرقية الملامح . مبتسمة ، قلت وقد تبددت وحشتى ..

- صباح الفل .. مغربية ؟

- لا .. مصرية مغربية .. أبى مصرى وأمى مغربية ..

- مهاجرون ؟

- نعم .. أبى جاء إلى هنا منذ عشرين سنة ..

- أنتم أصحاب الفندق ؟

ضحكت . وكأن ما قلته كثير جداً عليهم ..

- لا .. اننى أعمل هنا لمدة يوم واحد في الاسبوع ، عطلتى من الجامعة ..

والذى كان يعمل في التجارة ، ولكن منذ أن بدأت الحرب كسد كل شئ ..

وهو الآن في البيت ..

ثم قالت

- يلا عمل !

أبدت أسفاً ، سألتنى ..

- شاي أو قهوة ؟

- قهوة ..

لا أشرب القهوة إلا خلال السفر ، الشاي في أوروبا خفيف ولا يقنعني ، بل في كل الفنادق ، أين من الشاي الثقيل المعطر بالنعناع ، لهذا اعتبر القهوة هنا بديلاً للشاي .

عادت بصنية الإفطار ، وفي اليوم التالي أدركت أنها أتت لي بوعاء أكبر للقهوة ، وبعلبتين صغيرتين لعسل النحل ، بادرة كرم لما يمكنها القيام به ، كانت تروح وتجيئ بين النزلاء ، ثم تعود لتتوقف عند المنضدة ، وتحدثني عن زيارتها السنوية لمصر ، وقضائها شهر رمضان كله في القاهرة وبورسعيد مسقط رأس والدها ، ولكنها في هذه السنة ليست متأكدة من إمكانية السفر ..

قلت إن رمضان في مصر شهر لا مثيل له في أي مكان بالعالم ، بما في ذلك العالم العربي .

أومات متحمسة . بعد تناول إفطاري قممت إلى ركن صغير أمام التلفزيون ، كنت في انتظار عبد الرزاق السبايتي ، رحت اتابع أخبار الحرب في الخليج . وبين الحين والحين كانت الفتاة تظهر في مجال رؤيتي فتهز رأسها محيبة ..

* * *

اغادر الفندق بصحبة عبد الرزاق ، تلك شوارع تقع عيناى عليها لأول مرة ، أحاول تثبيت بعض العلامات البارزة في ذاكرتي حتى إذا ما اضطررت للعودة بمفردي لا أضل طريقي ، أهم علامة فندق الماريوت الضخم ، كان يطل على شارع فسيح يجرى فيه التزام . إن استيعاب المدن يتم على مهل ، وما من وسيلة للتعرف على النواحي ، والمنحنيات والمعالم مثل المشى . وعند نزولي بلداً لم أبلغه من قبل أجتهد لاستكشاف ملامحه ، وإقامة الصلة به .

نزلنا من السيارة في شارع فرانس هالتز ، إنه العنوان الذي كنت أكتبه على رسائل التي أجيب فيها على عبد الرزاق ، لقد تحولت الكلمة إلى مباني متجاوزة ، متشابهة ، ومجموعة من المتاجر لا توحى بتخصص الشارع في نشاط معين ، إنما هي تلبي احتياجات السكان ، بقالة ، حلاق ، محل يعرض أنواعاً مختلفة من الجبن ، تحت المبنى رقم ٥٩ تقع مكتبة الهجرة ، في وسط هذه اللافتات المكتوبة بالهولندية ، أو الدوينن كما تعرف ، وهي لغة ايقاعها في الاذن قريب من الألمانية ، ولكن يكثر في كلماتها حرف الفاء ، وليس الخاء . بين هذه اللافتات نقرأ بالعربية .

«مكتبة الهجرة...»

تذكرت مكتبات مماثلة في باريس ، تقع معظمها في الحي الخامس قرب السوريين ، والمكتبة العربية في برلين ، النشاط الرئيسي هنا هو تعليم اللغة العربية لأبناء المهاجرين ، المكتبة أيضاً ملتقى لكافة المهتمين بالأدب العربي ، من أساتذة وطلاب ، في الداخل كانت زوجة عبد الرزاق واسمها سيمون ، هولندية ، حازمة ، واضح أنها تدير شؤون العمل ، تجلس دائماً أمام جهاز كمبيوتر ، وتجرى حسابات وتكتب خطابات ، وتعد القهوة بين الحين والحين للضيوف .

كانت هناك أيضاً المستعربة جوكا ، وهي شابة جميلة ، شعرها فاحم السواد ، شديدة الحيوية ، تدخن بعصبية ، وإذ أذكرها أستعيد عينيها الواسعتين السوداوين ، وإمسакها للسيجارة بعد وضعها في زاوية قمها ، وترفع رأسها ثم سحب النفس بعمق شديد ، كذلك لازمة الكلام عندها عندما تصغي ، إذ تهز رأسها وتقول : أيوه . طبعاً أيوه مصرية صميمية ، إذ أنها قضت عامين متصلين في مصر .

جوكا كانت زوجة لريتشارد فان ليون وهو أنشط مترجم للأدب العربي في هولنده ، ترجم عدداً هاماً من الأعمال الهولندية وبعد انفصالهما احتفظا

بعلاقة صداقة ، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهت جوفا بعد عودتها من مصر ، مثل عدم حصولها على عمل ، فإن ريتشارد كان عوناً لها على الظروف الصعبة ، في الحادية عشرة جاء الدكتور فام دافن استاذ الادب العربى بجامعة امستردام الحرة .

يصغرنى بأربعة أعوام ، ومع ذلك يبدو أكبر سنًا ، هادئ ، واضح الثقة ، خفيض الصوت ، بعد قليل خرجت بصحبته ، مضيئاً تحت الثلج المتساقط ، كنت أتوغل على مهل إلى روح المدينة . دليل واحد من سكانها ومن عشاقها أيضاً ..



انها مدينة الضفاف المستمرة ، والجسور المتتابة .. المياه تتخلل اوصالها وأطرافها ، البيوت تطل واجهاتها العتيقة على القنوات الفسيحة التي تمتد وتتعرج فيتبعها التكوين المعماري الفريد .

بدانا في الثانية عشر ظهراً . وانتهت في الخامسة مساء ، سيراً على الأقدام . وتحت ثلوج متساقطة كانت تكسو المعطف الأزرق بلون أبيض كأنه ندف القطن ، أما فام دافن فبدا معتاداً على الطقس الثلجي . بدون غطاء رأس ، لكل مدينة أشخاص يعرفونها إلى درجة العشق . يحفظون المعالم الهامة والنواحي المؤدية والميادين الجامعة ، والمباني التي جرى فيها ذلك الحدث أو ذاك . من خلاله رأيت علاقتي بالقاهرة القديمة التي أعرفها شارعاً شارعاً ، وحارة حارة ، وأثر أثراً .

امستردام تستدعى إلى الذاكرة بطرسبرج القديمة ، لينجراد الحالية^(١) . بما يتخللها من قنوات مياه تحاكي فينسيا ، ولكن لينجراد مدينة ملكية في الأصل ، ضخمة ، قنواتها صناعية أراد بطرس الأكبر أن يناقش بها مدينة البندقية ،

(١) مع التطورات السريعة في روسيا ، عادت لينجراد إلى اسمها القديم وقت طبع هذا الكتاب .

ولكن قنوات امستردام شرايين حية متصلة بالبحر الذى يعلو مستواه عن مستوى البر ، فرمضوه بالسدود العديدة ، الأرض هنا منتزعة من البحر ، بحر الشمال القريب . امستردام انثوية الحضور ، مضمومة على نفسها ، انثى جميلة تبدى الحياء والخفر ، وإن كانت تسفر عن فجورها فى لحظات مرتبطة بأماكن محدودة ، فكانها نزوة مريضة .

المبانى متجاورة ، متساوية الارتفاع . لا توجد أبراج إلا فى المناطق الحديثة . لا يوجد تاريخ محدد يمكن أرجاع تأسيس المدينة إليه ، مثل القاهرة التى يحدد التاريخ سنة وشهر ويوم .. بل ولحظة الغروب التى بدأ فيها وضع أساسها المتين . تقول الحكايات المتوارثة هنا أن اثنين صيادين وصلا إلى المكان بصحبة كلبهما بعد أن اضطرا إلى النزول من قاربيهما اثر عاصفة عنيفة قطعت رحلة صيدهما فى البحر ، استقرا عند بداية نهر امستل ، أعجبهما المكان . مضيا فى طلب أقاربهما ، وهكذا .. كانوا نواة التجمع البشرى الذى أقام المدينة ، كان لابد من بناء سد لحماية البيوت من البحر والعواصف ، وهكذا تشكل اسم المدينة من النهر (امستل) ومن السد (دام) . والميدان الكبير الذى يطل عليه القصر الملكى الضخم اسمه ميدان السد . كان فى البداية امستلدام . أى سد نهر امستل ، ثم تغير مع الزمن ليصبح امستردام . ولأول مرة تذكر المدينة فى وثائق تحصيل الضرائب عام ١٢٧٥ ، بالتحديد فى ٢٧ أكتوبر . وفى القرن السابع عشر أصبحت مركزا تجاريا عالميا . خاصة بعد انطلاق الهولنديين إلى ما وراء البحار واستعمارهم لاندونيسيا (أكثر من ١٥٥ مليون نسمة) وسورنيام فى أمريكا اللاتينية وبعض مقاطعات البرازيل .

من ميدان السد كانت نقطة انطلاق المدينة ، لم يكن هنا فى البداية إلا مجموعة من بيوت الصيادين ، الآن تطل عليه المبانى الحديثة فيما عدا القصر الملكى الذى يتكون من ثلاثة طوابق ضخمة وتعلوه قبة هائلة . بنى فى الفترة من ١٦٤٨ وحتى ١٦٥٥ ، فى الوسط يرتفع نصب تذكارى لتحرير المدينة من

الاحتلال النازي الذي استمر خمس سنوات استمرت حتى عام ١٦٤٥ . ما تزال هناك بيوت قديمة بنيت في القرنين الرابع والخامس عشر بعضها تحول إلى متاحف ، والآخر ما زال مسكوناً .

تبدو الشوارع في البداية متشابهة ، فالواجهات كلها تطل على القنوات العريضة التي تجمعت فيها المياه فتحولت إلى طبقة سميكة من الثلج . اندفع الكثيرون ليمارسوا هواية التزلج ، بينما وضع أحدهم مقعداً ضخماً قديماً في عرض القناة وجلس عليه ، أما المراكب النهرية فتوقفت في مراسيها لا تستطيع الحركة . ولكن بعضها ثابت ، يستخدم كمساكن ، مثل العوامات التي نراها عند شاطئ أمباية ، في امستردام أزمة سكن حادة أيضاً ، والايجارات مرتفعة جداً ، وهناك أيضاً مشكلة أماكن انتظار السيارات ، الأرض محدودة سواء في الانبساط أو العمق ، ولا يمكن بناء أماكن لايواء العربات تحت الأرض لأن الماء بعد مسافة قصيرة من الحفر سرعان ما يظهر ، لهذا انتابني احساس أن المدينة كلها تسبح فوق الماء . الطرق المحاذية للقنوات ضيقة جداً ، ومع ذلك قسمت إلى ثلاث شعب ، الأولى للمشاة والثانية للدراجات ، والثالثة للعربات ، ترتفع الطرقات ارتفاعاً محدباً طفيفاً في بعض المسافات ، لكن الأرض في عمومها منبسطة ، لا توجد في هولنده كلها ارتفاعات حادة ولهذا كان غريباً أن نرى في بعض لوحات الفن التشكيلي التي رسمت في القرنين السادس والسابع عشر مناظر من الريف الهولندي تتخللها جبال مكسوة بالخضرة ، لقد استحضّر الفنانون مشاهد طبيعية من بلاد أخرى .

يصل ضفاف المدينة ببعضها أكثر من مائتي وخمسين جسراً صغيراً ، نصفها مخصص للمشاة ، وكل منها لا يخلو من لمسات فنية ، وبعضها خلده الفنان العظيم فان جوخ والذي تزهر المدينة بوجود متحف خاص لأعماله الشهيرة ، بناء المتحف نفسه اقيم على الطراز الحديث جداً .

في جولة تالية زرت بصحبة فام رافن متحف القنون الجميلة ، وهو مبنى

ضخم كان في الأصل مقراً ملكياً ، لقد قرر نابليون بعد احتلاله هولنده أن يجعل من أمستردام عاصمة ثقافية ، ومن هنا كانت بداية هذا المتحف الذي يجمع عدداً كبيراً من أعمال المصورين الهولنديين ، خاصة ممبرادنت أحد عمالقة الفن العالمي ، كما يضم أقساماً أخرى للأثاث ، والتحف المعدنية والخشبية ، ولكنني للأسف لم أجد فيه لوحة واحدة لأعظم فنان انجبتة هولندا في رأيي وهو بيتر بروجل الذي عاش في القرن السادس عشر ، وقد تنبتهت إليه أول مرة عندما كتب الصديق علاء الديب مقالاً نقدياً عن روايتي وقائع حارة الزعفراني عام ١٩٧٦ ، وأشار فيه إلى وجود شبه بين شخصيات الرواية وبين شخص بروجل ، وعندما طالعت اللوحات في الكتب التي حصلت عليها خلال أسفاري أدركت دقة ملاحظة علاء الديب ، ورحت أتعقب لوحاته المتناثرة في متاحف العالم ، وأقتني نماذج لها بالحجم الطبيعي مطبوعة على قماش تحاكي الأصول تماماً ، في بودابست توقفت مطولاً أمام لوحتين نادرتين له في متحف الفنون الجميلة ، الأولى لصلب المسيح ، والثانية ليوحنا المعمدان يخطب في الناس ، تخلو كلاهما من القدسية التي تجدها في سائر اللوحات الأوروبية التي تصور المشاهد الدينية ، فالناس عاديون ، والأحجام بشرية ، والتعبيرات على الوجوه يمكن أن تراها في أي زمان ومكان . برع بروجل في تصوير الحياة اليومية للفلاحين والبسطاء والشحاذين والأعياد الشعبية ، في الارميتاج بلينجراد رأيت عدداً من لوحاته ، وكنت أتوقع أن أجد بعضها في هولنده لكنها للأسف خرجت كلها إلى البلدان الأخرى ، في أمستردام لم نجد لوحة واحدة ، ويعد يومين أخيرني قام رافن أنه توجد لوحتين في متحف مدينة روتردام ، أحدهما مشهورة ، عن برج بابل ، لوحة هائلة ، عبقرية التكوين ، اقتنيت منذ سنوات كتاباً ضخماً ملوناً عنها بالألمانية .

أخبرني أيضاً بوجود خمس لوحات أخرى في بروكسل ، وقال إنه يمكننا الذهاب والعودة في نفس اليوم ، إذ يقطع القطار المسافة في حوالي ساعتين ونصف ، لكن للأسف لم يكن هناك وقت كاف .

فرق هائل أن يرى الإنسان أصل اللوحة وأن يرى مستنسخ لها . أو صورتها في كتاب ، يكفي الإحساس أن الفنان الذى عاش منذ مئات السنين قد لمس هذه اللوحة ، وأن هذه الألوان من نتاج ضربات فرشاته هو . أنه تراجع ليتأمل نتاج عمله وأنه اقترب ..

في المتحف رأيت لوحات عديدة لفنانين جاءوا بعد بروجل وبدأ تأثيرهم واضحاً به ، ولكن يظل فنه العظيم قائماً بمفرده ، مدرسة متكاملة ، وأسلوب متفرد ..



تستمر جولتنا في الطريق ، أشعر بالود الذى يبديه رافن ، وأشعر بالاقتراب منه أكثر ، كان هادئاً جداً ، متأنياً يعمل استاذاً في الجامعة ، وله كتاب عن ابن داود مؤلف كتاب «الزهرة» وهو أحد كتب التراث العربى الهامة التى يدور موضعها حول العشق . كما كتب عدة دراسات أخرى عن الفكر الاسلامى ، وترجم احدى قصص التى ضمتها المجموعة التى صدرت بالهلونية بمناسبة مهرجان الثقافة العربية عن مؤسسة الهجرة . قال لى إنه يقيم بمفرده فى احدى ضواحي المدينة ، وفوق أحد الجسور قال لى إنه أصيب منذ سنوات باكتئاب ، ويعالج منه ، سألته ..

- ألم تتزوج ؟

.. لا ..

- ألا توجد صديقة ؟

.. لا ..

شعرت بوحدته العميقة ، واستعدت اكتشافات عام ١٩٧٨ أصابنى بمرض الاكتئاب ، لسنوات طويلة كنت اعتبر الذهاب إلى طبيب نفسى نوعاً من الميوعة ، ولكن تحت وطأة ظروف عامة لم يكن لى قبل بتغييرها أو تبديلها أدركنى هذا المرض ، وسعيت بقدى إلى صديقى الطبيب عادل صادق ، اصغى

إلى ما أشكوه من أعراض كان محورها الانشغال العميق بالموت ، قال ..
- كأنك تقرأ من كتاب طبي أعراض الاكتئاب .. شعرت أن صلتى برافن
أصبحت أقوى ، كنت أتأمله إذ يسبق صاعداً أو نازلاً السلم في المتحف ، أو
سعيه بنشاط ليطلعني على واجهة بيت متفرد . وكنت ألح مثلاً متجسداً
للوحدة الإنسانية العميقة ..

* * *

الوجبة الرئيسية هي العشاء هنا ، عندما بلغنا الثانية ظهراً ، دخلنا متجرأ
كبيراً ، في الطابق الأخير منه مطعم يقدم الوجبات السريعة ، انتظمتنا في الطابور
أمام الركن الذي يقدم مأكولات إيطالية ، كان الطباخ شاباً ملامحه مصرية ،
وعندما حان دوري أشار إلى نوع من المكرونة المحشوة باللحم ، قال :
- هذا خنزير ..

تطلعت إليه مستأنساً ، شاكراً ..

- أنت من أين ؟

- من الزيقون ..

- أهلاً وسهلاً .. لك مدة طويلة هنا ؟

- ثلاث سنوات ..

- خريج أى جامعة ..

تطلع إلى اللحظات ، ثم قال ..

- هندسة عين شمس ..

بقدر ما أبدى من ود ، بقدر ما بدا متحفظاً في التصريح بإسمه ، أو
الاستجابة لما عرضت عليه من حمل أى رسالة يريد ابلاغها إلى الأهل ، احترمت
رغبته ، وانصرفت بعد أن قدمت إليه بطاقتي ، وقلت له إننى أرحب به في أي
وقت يعود فيه إلى القاهرة .

حملت صينية الطعام ، مضيت بصحبة فام رافن إلى منضدة قريبة من نافذة
تطل على الشارع الذى تنهمر فيه الثلوج . محطة للترام ، والكل يسرع الخطى .

إلى جوارنا ، كانت فتاة شابة تتحدث إلى صاحبها ، قال رافن :

- هل تعرف عن أى شئ تتحدث ؟ إنها تقول لصديقها أنها مسافرة إلى اسرائيل لتشارك في إعادة بناء هيكل الملك سليمان ، وتقول ان الخطر قائم هناك ولكنها إرادة الله ..

ثم قال رافن ..

- بالمناسبة .. هى ليست يهودية ..

لم أسأله كيف عرف ذلك ؟ ، ولكننى فكرت فيما سمعته عن النفوذ الصهيونى الواسع فى هولنده ، وتنمية الاحساس بالذنب لدى الهولنديين لما لاقاه اليهود من اضطهاد أثناء الاحتلال النازي . وهذا إحساس موجود فى ألمانيا أيضاً ، ولكن يتم توجيهه للتعاطف مع اسرائيل ، وبالطبع .. ضد العرب عامة ، والفلسطينيين خاصة ، فما هو ذنب العرب ، وإذا كان اليهود يعتبرون أنفسهم ضحايا العنصرية النازية ، فإن العرب الآن ضحايا العنصرية الصهيونية ، هكذا يسدد العرب فاتورة غيرهم ..

أوشكنا على الانتهاء من الطعام ، ولحت الشاب المصرى يقترب منا حاملاً صينية فوقها فنجانى قهوة ، وطبقين صغيرين ، فوق كل منهما قطعة حلوى كبيرة ، وضعهما أمامنا ، قال مبتسماً ..

- هذه تحية منى لكما ..

تطلع قام رافن دهشاً ، صامتاً ، قلت متأثراً ، فخوراً أيضاً ..

- هكذا نحن ..

صافحت الشاب ، قال :

- لا بد أن أراك مرة أخرى ..

أومات برأسى ، ولم أكن متأكداً أن لقاء آخر سيتم فى هذه الدنيا القسيحة . الواسعة ، بذلك الشاب الهادئ ، الطيب الملامح . الذى لم أعرف ظروف عمله ، ولا الظروف التى جاء فيها إلى هنا ، ولا مشاريعه بالنسبة للمستقبل .. ولا اسمه حتى !

فى بيت الخالة ..

السبت

.. يوم إجازة . وإن اختلفت الملامح ..

هنا السبت والأحد تخلو الشوارع وتزدحم الطرق المؤدية إلى مخارج المدينة، يتجه الجميع إلى الريف، ولكننى استعيد إيقاع يوم الجمعة الهادئ، الرخيم، حيث تسترد شوارع القاهرة حضورها فى الاربعينيات واولائل الخمسينيات، تبلغ ذروة الحركة وقت صلاة الجمعة، خاصة فى القاهرة القديمة، حيث يفتش الناس الأرض حول مسجد مولانا وسيدنا الحسين، والأزهر الفسيح. وبعد الصلاة ينتقل الزحام إلى المقاهى القريبة، عندنا تكون الإجازات فرصة لالتماس الراحة، والنوم ساعة أو ساعتين فى الصباح أزيد من الايام العادية التى تفيض كدراً ومشقة!

بمجرد خروجنا من امستردام فارقت فراغ المدينة الذى تتكاكأ فيه البيوت وتتجاوز متلاصقة مطلة بواجهاتها على القنوات المائية التى تتخللها كالشرايين.

تنطلق السيارة على الطريق السريع، وعلى الجانبين يمتد الريف الهولندي الفريد، حقاً.. أن الفن العظيم الحقيقى المعبر عن الواقع يعكس شخصية المكان وجوهر البشر، ولأننى طالعت كثيراً لوحات بروجل الفنان الذى عاش فى القرن السادس عشر وصور الحياة الهولندية اليومية بدقة وخصوصية، شعرت أننى لست غريباً كما أراه، صور الشتاء هنا يتلوجه فى العديد من اللوحات، وللجليد هنا حضور مختلف عن أى مكان آخر، فالأراضى منبسطة. ممتدة، تخلو تماماً من المرتفعات، مساحات لا نهائية من اللون الأبيض المصقول،

تتخللها أشجار غامقة ، وبيوت متناثرة ، متباعدة ، أما الأغصان والفروع فتخلو من كل نبات أخضر ، وهناك وهنا في المدى يمشى رجل فوق الجليد أو امرأة ، يبدو كعلامة استفهام بشرية !

* * *

منذ فترة طويلة لم يزر الدكتور بيتر سمور الخاله ، واليوم يمضى بصحبتي ، أول عربي ستراه الخالة في حياتها ، مقصدنا مدينة البرج القديمة ، عندما اقتربنا منها قال لي أنها لم ينجبا ، أطفالاً ، هذا لمعلوماتي حتى لا أسألها عن الأطفال ، أن هذا يؤلمها في شيخوختها ، الخالة تبلغ حوالى السبعين اما الزوج فتعدها بسنوات .

كنا ثلاثة في الطريق ، الدكتور بيتر سمور ، وزوجته ، منذ خمسة شهور فقط أنجبا طفلاً صغيراً .

.. انه الآن عند جدته ..

يتكلم بيتر سمور العربية بطلاقة ، إنه أستاذ بارز للأدب العربي ، وزوجته تلميذته ، طريقة في التعبير والحديث ذكرتني بشكل ما بالدكتور لويس عوض ، مع نبرة ساخرة دائمة ، تعكس رؤية للأشياء ، للدكتور سمور ابنة من زوجة أولى تبلغ الآن الثامنة عشر .

نصل إلى المدينة ، البيوت أنيقة ، عتيقة ، أصغر ، وتوحى بحضور قرية كبيرة ، الأشجار كثيفة ، وبعض الشوارع مبلط بالحجر ، يقع البيت في طريق جانبي ، تتقدمه حديقة صغيرة جميلة ، رفيعة الذوق ، تتوزع فيها النباتات والأزهار ، ولجمالها الفريد فان العديد من العرسان يجيئون إلى هنا لالتقاط صور تذكارية أمامها .

هذا البيت الجميل ، كان في الاصل حظيرة للأبقار . يحتفظ زوج الخالة بصور عديدة لعملية تحويله الى بيت أنيق ، جميل ، يطل على الطريق بواجهة زجاجية بعرض الصالة الفسيحة ، فكانها فاترينة للحياة في وقت ما .

على الباب استقبلنا الخالة ، سيدة متوسطة الطول ، ممثلة ، ذكرتني ملامحها بحضور الفلاحات المصريات في دلتا النيل ، لا أدرى لماذا راحت ذاكرتي إلى المنصورة ودمياط ، أما الزوج فنحيل ، حاد الملامح ، قال لي بيتر سمور أنهما يتحدثان بلهجة خاصة تنتشر في هذه المنطقة ، قد يصعب على أبناء العاصمة فهمها مع أنها نفس اللغة الهولندية .

بمجرد ولوجى الباب ، عبرت ظلال المدخل الثقيلة ، القديمة ، شعرت رغم الدفء بالعنقاة وبرودة خاصة ، ليست ببرودة الأماكن الخلوية ، إنما تلك التي تنطوى على فراغها ، وتصيح ترديداً للحركة الداخلية فيها .

في الصالة الرئيسية كانت مدفئة على الطراز القديم تشع الحرارة وبجوارها مقعد وثير وأضح أنه اعتاده للنظر إلى الطريق عبر الواجهة الزجاجية الفسيحة ، أضفى الزمن على وجهه تقطعية دائمة بآثر التجاعيد ، بينما شفتاه منفرجتان دائماً كأنه يوشك باستمرار على الحديث . قدمنى بيتر سمور إليهما ، حدثهما عنى ، وحتى تطمئن الخالة التى سألتها عندما علمت أنه سيصحب معه صديقاً عربياً ، عما إذا كنت أحمل معى صاروخ سكود أم لا ؟

قدمت إليها كتابى المترجم إلى الهولندية ، مجموعة ثمار الوقت التى ترجمها بيتر سمور وفام دافن ، أشار إلى صورتي على الغلاف الأخير ، ولكن انفعالها الحقيقى بدأ عندما لمحت توقيعى على الكتاب ، راحت تنقل بصرها الرزين الذى اكتسى وقار السنين بين التوقيع وبينى ، ولتوقيع المؤلف المبدع هنا شأن عظيم . فقط لجرد التوقيع أما إذا كان مصحوباً بإهداء رقيق فالأمر يصبح جلاً ، هزت رأسها ، قامت متهادية لتضع الكتاب فى صدارة المكان . كان زوجها يتابعها بهدوء ، ثم تناول من جانبه مجموعة من الصور ، أولها صورة كبيرة فى إطار خشبى ، ورقها أصغر بفعل الزمن ، صورة مرسومة فقد رسمت قبل اختراع آلة التصوير . رجل فى المرحلة الأربعينية ، يرتدى ملابس كهنوتية

، ترجع إلى عام ١٨٣٤ ، وإلى جواره صبى صغير في الثانية عشر . هذا الصبى
جد بيتر سمور .

استوقفنى تعبير وجهه ، لا .. بل جذبنى ، وأثار عندى غبار اهتمامى الموهل
بالزمن ، كان يرفع رأسه متطلعاً إلى نقطة مجهولة ، لا أدرى فى الوقت أو
فى المكان ، نظرة فيها حيرة ما ، لا أدرى فى الوقت أو فى المكان . نظرة فيها حيرة
ما ، وهم غامض أكبر من سنة . وكأنها نظرة من يقف على مقدمة سفينة تدنو
من ميناء مجهول ، رحت أجهد نفسى محاولاً أن أستنتج أى صور ، أى أفكار
كانت تجول بذهنه وقت التقاط ملامحه ، أى يوم ؟ وفى هذه اللحظة أين كان
جدى أنا على بعد آلاف الأميال ؟ لا بد أنه كان فى مسقط رأسى جهيئة ، لكنه ..
ماذا كان يفعل فى هذا اليوم ؟ أين كان أبى ؟ أين كنت أنا ؟

قال زوج الخالة إن الطفل هاجر إلى أمريكا بعد سنوات من رسم هذه
الصورة ، ركب سفينة عبرت به المحيط ، أخبارها غابت هناك ، العائلة هنا لا
تعرف عنه شيئاً ، ولكن حدث منذ عدة سنوات أن جاء اثنين من أحفاده ، جاء
إلى المدينة كسياح .

.. سألوا عنى . جلسا هنا فى هذا المكان ومشوا .. لم أرهما بعد ذلك ..

كان يتدفق بالحديث عن العائلة ، عن أفرادها الذين يعيشون هناك على
الطرف الآخر من المحيط .

.. سمعت أن أحدهم طبيب مشهور الآن ..

أشار إلى مجموعة من الأطباق الخزفية الغالب على زخارفها اللون الأزرق ،
كانت مرصومة داخل صوان مستطيل ، قال إنها تراث تتوارثه العائلة منذ
حوالى أربعة قرون ..

قالت زوجته مصححة ..

.. أكثر .. منذ خمسة قرون ..

قال إنه أرسل عدداً منها فى طرد إلى أمريكا عن طريق البحر حتى يحتفظوا

بها هناك ، لكنها للأسف تحطمت في الطريق ، توقف لحظات ، بدا خلالها حزينا.. أسفاً .

وكان الزوجة أرادت أن تنتهى انقطاعه ، فأشارت إلى الصور الأخرى ، عندئذ دب فيه النشاط من جديد ، راح يستعرض الصور الصغيرة ، بعضها يرجع عمره إلى أكثر من مائة عام ، هذا فلان ، وهذا ابنه ، هذا مات ، وهذا غابت اخباره .. كان يشرح لبيتر سمور العلاقات والقرابات ثم أمسك بصورة أخرى لوح بها مبتسماً ..

بيتر سمور عندما كان صبياً . وكان من الصعب على أن اكتشف العلاقة بين الملامح الماثلة أمامي وتلك البادية في الصورة ، وكيف ..

إذا كنت أتأمل الآن بعض صوري القديمة التى نجت من عواذى الزمن وبغبات الأيام ، فيعثر على اكتشاف الصلة بين ذلك الصبى الذى كنته وذلك الكائن الذى يسعى الآن . كثيراً ما أتطلع دهشاً إلى صورة ملتقطة منذ سنوات بعيدة فادهش لانقطاع الصلة بيني وبين المثل على من بعد أراه سحيقاً ، حتى لأسال ذاتي ، أحقاً ينتمى ذلك الطفل إلى ؟ ، وماذا بقى منه عندي ؟ ، وأى آثار خلفها في ؟

أتأمل صور أشخاص أقف إلى جوارهم مبتسماً في الزمن القديم ، وأجهد ذهني في محاولة عسرة لتذكر أسمائهم ، من هم ؟ وأين الآن ؟ ، وتطل على من غيوم ذاكرتي وجوه أخرى لا أعلم شيئاً عن صيرورة أصحابها الآن . منهم زملاء دراسة ، وجيران ، وأصحاب ظننت يوماً أن الصلات ستمتد أبداً . يستمر زوج الخالة في عرض ميراثه الوجداني ، بعض حواف الصور متأكلة .

صورة له وهو يقود عربة نقل محملة بأواني اللبن ، أسأله عن عدد اللترات التى تدرها البقرة الواحدة هنا ..
- حوالى ثلاثين لتراً يومياً ..

إنه يسلم اللبن إلى المصنع الذى يحولها إلى جبن شهير يتم تصديره ، أول ما سمعت عن هولنده ، كان ذلك فى طفولتى ، عندما كنت أرى فى واجهة دكاكين البقالة كرات الجبن المستديرة المغطاة بورق أحمر شفاف يتوسطه ختم مستطيل ، إنه الجبن الفلامنك .

من يدرى .. ربما كان اللبن الذى ينتجه زوج الخالة داخلاً فى تركيب قطعة جبن أكلتها يوماً فى طفولتى بالجمالية !

* * *

تستفسر الخالة عن مصر ، عن الاهرامات ، عن الفراعنة ، ومصر عند العالم الغربى ، تعنى مصر الفرعونية ، وعندما زرت المكسيك فى العام قبل الماضى كانت معلومات معظم من قابلتهم تتوقف عند مصر اخناتون على أحسن تقدير. حدثتها عن الاهرامات ، وسقارة ، وأبو سمبل ، ورمسيس الثانى ، وعبد الناصر ، والناصر بن قلاوون ، والسلطان حسن .

حدثتها عن آثار توت عنخ آمون . والقمح الذى مضى عليه أكثر من أربعة آلاف عام ، والمعروض الآن فى المتحف المصرى وما زال صالحاً للأكل .

اتسعت عيناها دهشة ، كان وجهها العجوز المتورد مليئاً بالحيوية .

حدثتها عن أقنعة الغيوم التى تطل على زماننا بوجوه أصحابها الذين رحلوا منذ آلاف السنين ، قمة فن البورتريه فى العالم ، والمحفوفة فى صوان بأحد ممرات الطابق الثانى من المتحف المصرى بالقاهرة .

مع استمرارى فى الحديث كانت عيناها تتألقان بحيوية ، كانت تعكس نظرة هادئة ، مطمئنة ، مسترخية ، نشطة لسيدة لم تفارق الريف الهولندى فى أقصى الشمال إلا نادراً . وكانت تقوم بين الحنين والحين لتصب الشاى الساخن باستمرار فى البراد القديم المعدن ، وتصر على أن نأكل من الكعكة التى أعدتها بنفسها ، كان إصرارها بالفاظ قليلة ، ولكنها تعكس كرمًا ريفيًا ذكرنى بالكرم

المصري الفياض ، عندما يصير المضيف على استمرار ضيفه في الأكل حتى بعد شبعه ويتبع ذلك بجمل وتعبيرات متوسلة مثل .

«والنبي تاكل ..»

فاذا لم يفلح ذلك .

«والنبي تعدمنى إذا ما أكلت ..»

أى أن المضيف يقدم حياته كلها ويخاطر بها إذا ما استجيب الدعاء في مقابل أن يأكل الضيف قطعة لحم أكثر . أو بعض ملاعق من الأرز أو قطعة حلوى ..

مبالغة ؟ ربما !

زوج الخالة كان محملاً إلى الأرض أو السقف عاقداً يديه أمامه طوال حديثي ، فجأة يمسك مرة أخرى بالصور ، يتحدث عن يطلون منها ، يوضح لبيتر سمور الأقارب والعلاقات .

لم تكن الصور مجرد قطع صغيرة من الورق ، إنما كانت لحظات مولية من الزمن المنتقض ثم تثبيت ملامحها بالظلال والضوء ، من هنا حرص الإنسان على الوقوف في مواجهة ريشة فنان أو عدسة مصور . عندما كنت في جبهة القتال ، كان الجنود يسرعون لحظة التقاط صورة ، أحياناً كان التجمع خطراً ولكنه الإحساس بمرور الزمن ، والرغبة في تثبيت لحظة منه ، حتى إذا كان تثبيتها وهمياً ، فاللحظة نفسها لا يمكن إيقافها ، وفي ظرف القتال بالذات يكون الإحساس بالوقت أكثر حدة ، فلا أحد يدرى ماذا سيجرى في اللحظة التالية تحت الخطر المحوم .

أتأمل أصابع زوج الخالة الضخمة ، الخشنة ، أصابع فلاح حقيقي بنى هذا المنزل بيديه ،

عندما حان السوقت لإنصرافنا توقف أمام صوان قديم ، أمسك بعدد من العملات القديمة ، أبرز أحدها باعتزاز وحرص ، قال :

.. عمرها مائتى عام .. من الذهب الخالص ..

وتذكر قطعاً من النقود المصرية عمرها آلاف السنين ، في مدخل البيت عند انصرافنا توقفت أمام قصص كبير يطل منه ببغاء وحيد ، جميل الألوان . كان يطلق صوتاً حاداً طوال فترة مكوثنا . قال زوج الخالة إنه كان يخص أسرة تسكن بجوارهم ، في البيت التالي ، اعتقلهم الألمان قبل نهاية الحرب الثانية ، وارسلوهم إلى المانيا ، لم يعودوا . ولم يبق منهم إلا هذا الببغاء ، أخذه هو واحتفظ به ، يقيم في البيت منذ سبعة وأربعين عاماً . عمره الآن حوالى سبعين سنة . كان أكثر حيوية ونشاطاً وكان يردد كل كلمة يسمعها ، لكنه منذ عامين يبدو مكتئباً ، حزيناً ، ولا يصدر إلا هذا الصوت الوحيد الذى يبدو كالصرخ .

من يدري .. ربما يشعر الطائر الوحيد باقترب نهاية ما في هذا المكان المسكون بالماضى ؟

ارتدى زوج الخالة حذاءً خشبياً . قبقاب هولندى ، ألوانه هنا حمراء وصفراء ، ويعتبر من أشهر الصناعات التقليدية وفي مطار امستردام يقف احدهم ليصنعه أمام السياح والمسافرين الذين يثير دهشتهم أى شىء .

أصر زوج الخالة أن يصحبنا رغم برودة الطقس حتى الشارع الرئيسى حيث تنتظر عربة بيتر سمور . ظلت الخالة بالداخل . عند مرورى أمام نافذة صغيرة جانبية فوجئت بطرقات على الزجاج .

خلفه تماماً أطلت بوجهها الطيب العريض . مبتسمة ، لوحت بيدها ، كانت النافذة المربعة تؤطر وجودها الحى ، فتحيلة إلى ما يشبه الصورة الفريدة ، النادرة . التى تشير أيضاً إلى ماضى غير مرئى ، يغرق فيه وجود البيت كله . أما نظرة ذلك الطفل الذى هاجر قبل أكثر من مائة وخمسين عاماً إلى أمريكا ، وغابت أخباره هناك . هذه النظرة القادمة من أغوار العد .. فلم انسها حتى الآن . كذا طلة الخالة عبر النافذة التى تحولت في ذهنى إلى صورة أيضاً !

مقتاليات سويسرية

هجوم سويسرية

مايو ١٩٩١

الجمعة ..

.. ما من مرة خرجت فيها إلى السفر ، إلا وفكرت في المكان الذى سأمضى ليلتى الأولى في الغربية ، في أى موضع ؟ في أى طابق ؟ . ماذا سأرى من النافذة ؟
إذ أنزل مدينة غربية لأول مرة ، ينتابنى حذر قديم ، قالغريب ضعيف دائماً، وخاصة إذا كان يجهل المنحنيات والنواصى ، والشوارع المتفرعة ، أود انتهاء هذه المرحلة الفاصلة بين نزول من قطار أو طائرة ، ورسوى في غرفة فندق . ترتيب حاجاتى التى تحتويها الحقيبة ، طالماً اننى في الطريق أحملها لا أشعر أبداً باستقرار .

غير أن الأمر اختلف في بازل . أول محطة اقيم بها في سويسرا ، عندما نزلت من القطار الطويل متعدد العربات تطلعت عبر الرصيف الممتد ، بعد لحظات رأيته .. صديقى جميل عطية ، الأديب الذى أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وتربطنى به صلة حميمة ومودة ، يقف امام عربة الأكل .. تماماً كما حدد البرنامج المطبوع لزيارتى والذى تضمن كافة تفاصيل حركتى بالثانية والدقيقة .

اخيراً .. ها هو جميل عطية في بازل !

منذ بداية الستينيات تزوج بسيدة سويسرية ، التقيتهما معاً في القاهرة على فترات متفاوتة ، ولأن الإنسان لا يغير من مسار حياته إلا الحوادث العظام أو المرأة ، فقد تبدلت حياة جميل واستقر في بازل هنا منذ حوالى اثنى عشر

عاماً. لكم كتبت إليه ، واتصلت به عبر الهاتف من مدن أخرى كنت أزورها في أوروبا ، والآن .. أجد نفسي في المدينة التي كنت أكتب اسمها على المظاريف .
رؤية صديق عند الوصول إلى أرض غربية تأنيس ونفى للوحشة ، كان بصحبة جميل فنان تشكيلي . جمال عبد الناصر ، جاء إلى سويسرا في منحة دراسية من مؤسسة بروهيلفسيا شديدة النشاط خلال السنوات الأخيرة .
خرجنا من مبنى المحطة الضخم . أولاً .. إلى الفندق .



نهر الراين ..

تطل الغرفة مباشرة عليه ، يمكنني أن أرى جسراً قديماً يمر فوقه ترام أخضر اللون ، على الضفة الأخرى مباني عتيقة يرجع معظمها إلى القرون الوسطى ، تراها فتحبسها بنيت بالأمس لفرط العناية بها ، لا تقع عيناي على مدينة أوروبية قديمة إلا وتذكرت قاهرتنا العريقة المنكوبة بالاهمال ، واللامبالاة ، ما من مدينة في العالم مدججة بالتاريخ مثل عاصمتنا ، وما من مدينة تتجاور فيها طبقات الأزمنة المختلفة مثل القاهرة ، من فرعونية في الجزيرة إلى قبطية في مصر القديمة إلى إسلامية في الجمالية والقلعة وقايتباي .
أقل ما تعانيه ، القذارة .

وهل في النظافة عبقرية ؟

هل يحتاج الأمر إلى خطط وتكنولوجيا ؟ أم إلى عزيمة ووعي فقط . في طفولتي أذكر أن حوارى الجمالية كانت تكتس وترش مرتين يومياً . من منا لم يجر في طفولته وراء عربة الرش التي كانت أمراً مبهرراً ومثيراً للخيال زمن الصبي النائي الآن ؟

استمر في التطلع إلى الجسر الحجري الذى يحمل سمات القرون الوسطى بأبراجه ، ودعائمه البارزة ، أتذكر أيضاً النوافذ التي تطلعت منها خلال ترحالى ونزولى المدن النائية ، أستعيد ما علق بذهنى . ولكننى أسترجع أيضاً الساعات

التي انقضت منذ وصولي إلى مطار زيوريخ ، الآن لدى وثت انقضى هنا .
يمكننى استعادته حتى لو كان سويغات ، ولن يمض وقت طويل إلا تصبح
فيه تلك اللحظات وهذا الواقع المحيط بى مجرد ذكريات ، أعيش المكان على
مرحلتين ، الأولى تواجدى فيه ، ومحاولتى استيعابه ، والمرة الثانية بعد
مفارقتة وبدء استعادتى التفاصيل واللحظات ، والغريب أننى فى هذه المرحلة
أرى ما لم أراه فى آنيته ، فهل ينطبق ذلك على الحياة أيضاً؟ أذكر جلوسى ذات
صباح باكر إلى أستاذنا نجيب محفوظ فى بداية الثمانينيات ، كنت مخرجاً
بالحزن بعد رحيل أبى المفاجئ ، المباغت ، قال لى الأستاذ يومئذ :

من يدري يا جمال .. ربما يبقى الوعي بشكل ما بعد الرحيل ، كما تتحول
ذرات المادة التى تشكل الجسد إلى صور أخرى ، عندئذ قد يحدث اللقاء مع
الأحبة بصورة ما .

يرى بعض الصوفية أن الحياة حلم ، وأن الناس كالنيام ، إذا ماتوا انتبهوا ،
ولكننى أعى جيداً أن الحياة فرصة نادرة وقصيرة جداً ، والسؤال الذى أُرده
دائماً لنفسى ، لماذا لا نحاول أن نجعلها أجمل وأكثر احتمالاً ، لماذا لا تتوفر
الشروط الإنسانية فى حدها الأدنى . أن ذلك باستطاعة الإنسان ، ولكن ما أشد
الحماقة الإنسانية أيضاً التى تشتت حيناً فتهدر إمكانيات الحياة البشرية ، أن
بالحروب ، أو الفقر ، أو التقاعس عن مقاومة المرض !



يبدو كل شيء هنا جميلاً، منظماً، مصقولاً ، حتى الطبيعة ، ما هى المشاكل
التي يمكن ان يعانى منها الإنسان هنا ؟

فى الطريق من زيوريخ إلى بازل ، كان القطار الفاخر شبه خال ، جلست فى
مواجهتى سيدة شابة ، واتصال الحوار بين المسافرين فى القطار أيسر ،
قالت لى إنها تعمل فى زيوريخ . وتسكن مدينة صغيرة فى منتصف الطريق .
أنها أم الآن لطفل ، ولذلك تعمل نصف الوقت حتى يمكنها رعاية طفلها .

لم تذكر شيئاً عن الأب ، أعرف أنه في أوروبا الآن يمكن للمرأة أن تنجب بدون زواج ، وأن تعطى الطفل الاسم الذى تريده ، وتشجع الحكومات الانجاب ، المهم أن يأتى الطفل . وليس مهما الطريقة التى جاء بها ، ويبدو أن ذلك نتيجة لنقص تعداد السكان ، وأذكر أننى منذ سنوات رأيت إعلانات في محطات المترو الفرنسية تدعو الشعب إلى الانجاب من أجل فرنسا . على أية حال المجتمع السويسرى محافظاً إلى حد ما بالنسبة للمجتمع الأوروبى عامة .

قالت السيدة إن أحد أهم المشاكل الآن ارتفاع الأسعار ، إذن .. هنا في مجتمع الوفرة توجد مشكلة أسعار أيضاً ؟
نعم .. خلال العامين الأخيرين . زادت أسعار السلع ولم تزد المرتبات بنفس النسبة . أما إيجارات المساكن فترتفع باضطراد . يحتاج الإنسان لكى يعيش حياة معقولة هنا إلى ستة آلاف فرنك سويسرى أى حوالى أربعة عشر ألف جنيه مصرى ، وإيجار السكن المعقول من ألفين إلى ثلاثة آلاف فرنك . طبعاً الأمر نسبى .. فالمشكلة هنا لا تمس الخبز أو الزيت أو اللحوم . فالخبز مثلاً معروض منه أنواع شتى ، خبز عادى ، وخبز أسمر ، وخبز بالمكسرات ، وخبز فولكلورى أى فلاحى ، وخبز مستدير ، وخبز مستطيل ، وخبز مقلف ، وخبز غير مقلف .

الأسعار ترتفع فيقل استهلاك الإنسان للشيكلاته ، أو للشمبانيا ، الأمر نسبى دائماً ؟

هل يوجد فقراء في سويسرا ؟

نعم .. انهم الفلاحون في الجبال ، حيث الزراعة صعبة والمحصول عسر ، ولكن الحكومة تدعم جميع الفلاحين ، الأغنياء في السهول ، حيث تبدو بيوتهم الأنيقة الفسيحة وأمامها أحدث أنواع السيارات ، أو الفقراء منهم في الجبال حيث البيوت أنيقة أيضاً ولكن أصغر ، أما السيارات فمن طراز أقدم قليلاً . أيضاً .. الأمر نسبى .

من أهم سمات الإنسان السويسري ، التحفظ الشديد ، وعدم الادلاء بأى تفاصيل عن حياته ، خاصة ما يتعلق بالثروة ، لا يمكن الاطلاع على الثروة الحقيقية لأى شخص ، إلا إذا كان من أصحاب المليارات ونجوم المجتمع ، فيبدو المستوى ولكن تظل التفاصيل مجهولة .

فى إحدى الأمسيات دعيت عند صديق سويسرى إلى العشاء ، والتقيت عنده بعدد من السويسريين . كان من بينهم أستاذ كبير للغة العربية والأدب العربى ، وتلاميذه ، أحدهم يعمل مترجماً فى وزارة مهمة ، سأله أستاذة ..
— من رئيسك ..

قال الشاب على الفور وهو تلميذ للأستاذ ..
— لن أقول لك .. لسببين أولاً لأنك لا تعرفه وثانياً لأننى لو قلت لك فلن تستفيد من ذلك ..
وسكت الأستاذ .

فى نفس الجلسة كانت هناك سيدة تتحدث العربية ، عادت من الكويت بعد عملها فترة فى الصليب الأحمر الدولى ، وعندما سألها أحد الحاضرين عن الأوضاع هناك ، اعتذرت مبتسمة ، قالت إنها لا يمكنها الادلاء بأى تفاصيل ، لأن ذلك يتناقض مع شروط العمل فى الصليب الأحمر الذى يحظر على أعضائه الحديث فى السياسة ، أو عما يشاهدونه .

قالت السيدة ذلك وكل الجالسين من أصدقائها الحميمين ، واثنتان منهما تعلمت على أيديهم اللغة العربية .

طبعاً استدعيت إلى ذهنى عدداً من أهلنا فى الشرق . الذين يحرصون على الظهور كعالمين ببواطن الأمور . وأدق الأسرار ، ويفضون بما يعلمونه حقاً أو زيفاً فى زهو ، وما قصة المطار السرى ببعيدة !

التحفظ سمة أساسية هنا ، كذا الانضباط الشديد ، والنظام الصارم الذى يسرى خفية فى سائر جوانب الحياة ، ولا عجب ، فالاقتصاد السويسرى يقوم

على دعائم عديدة ، من أهمها البنوك ، والبنوك تحتاج إلى استقرار ، إلى انضباط ، وهذا أحد أهم المفاتيح لفهم الواقع هنا ، وشهرة البنوك السويسرية طاغية ، وفي لغتنا العامية إذا ما قيل :

«دا فلان عنده حساب في سويسرا ..»

فان هذا يعنى الثراء الشديد ، ويعنى أيضاً اتهاماً ضمنيّاً باللصوصية ،
واللصوصية تتنوع وتختلف .

ولكن سويسرا ليست بنوكاً فقط !

* * *

لم استقر طويلاً في الفندق .

غادرته بصحبة جميل وجمال ، يقع الفندق في منطقة جميلة على الراين .
المنطقة المحيطة به مركز للمخدرات . على النواصى كنت أرى المدمنين من
الرجال والنساء خاصة أثناء عودتى ليلاً ، يقفون في جماعات ، ويتحرك
بعضهم من هنا إلى هناك في شكل تحفة المؤامرة والأسرار . معظمهم في سن
الشباب ، كنت أمضى حذراً خاصة عند الاقتراب منهم ، لا أدري التصرف
المفاجئ الذى يمكن أن يصدر عنهم . للمخدرات أيضاً أماكنها المعروفة ، في
زيوريخ بجوار محطة السكك الحديدية ، ولكن لم يصل الأمر إلى الحد الذى
رايته في هولنده ، في امستردام منطقة حمراء . للدعارة والمخدرات ، حيث تقف
الفتيات العاهرات في الفتارين ، تماماً كأي سلعة ، عبر الزجاج تتم المفاوضات
وإذا تم الاتفاق يسدل الستار على الزجاج ، وسرعان ما تتحول الفاترينة إلى
مخدع ، وسمعت أن مثل هذا الوضع في هامبورج الألمانية أيضاً ، في امستردام
تباع المخدرات علناً ، في فبراير الماضى رأيت بائعاً متجولاً يمشى في الطريق
منادياً على الهريوين والماريجوانا ، وفي مقاهى خاصة تقدم أعتى الأنواع
وكانها الشاي والقهوة . صورة من مظاهر التفسخ الذى تصل إليه أى حضارة
متقدمة في مراحل تطورها .

أعتقد أن الوحدة والنظام الصارم والدقة البالغة في كل شيء تؤدي إلى رد فعل معاكس . ولكنه هنا في سويسرا محكوم أيضاً ، محدود في مناطق معينة .

في الطريق إلى بيت جميل عطية ، ركبنا الترام ، الناس يجلسون متباعدين ، واضح المستوى المرتفع للملابس ، للأناقة ، كل منهم ينظر في نفس الاتجاه ، إذا تحدث أحد بصوت مرتفع ينظرون إليه باستنكار شديد ، كل منهم ملفوف بوحدة عميقة ، كذلك البيوت الأنيقة ، والشوارع الممتدة التي كانت في كثير من الأيام تبدو خالية تماماً على امتداد الرؤية ، تجولنا قليلاً في المدينة ، كان جميل من أشهر رواد مقهى ريش في الستينيات وكان دقيق النظام ، منضبط تماماً ، لذلك عندما صدرت مجلة ٦٨ ، أسند إليه الأديب والصديق ابراهيم منصور الشئون الادارية والمالية ، و ابراهيم هو النقيض التام لهدوء جميل وانضباطه ، هل هي صدفة أن يتزوج جميل من سيدة سويسرية ويستقر به المطاف هنا ؟ ربما .. ولكن الانضباط السويسري لا بد أنه التقى بشيء ما داخله ، يعمل جميل بالصحافة ويحظى باحترام واسع هنا ، ورسائله إلى راديو القاهرة جادة وموضوعية تماماً .

عثر جميل في بازل السويسرية على مقهى يشبه ريش القاهري ، يرتاده المثقفون . وبه بعض الفوضى ، يجيء إليه وحيدا حيث يمضي الوقت في التأمل ، أو تدوين بعض الملاحظات اللازمة لروايته الجديدة ، المقهى محاط بمبانى قديمة يمت بعضها إلى القرن الخامس عشر ، قامت مؤسسة بروهيلفتيا بترميمها ، ولأن العناية مستمرة تبدو البيوت محتفظة بالعنافة والمظهر الجميل بحيث لا يمكن التنبؤ بعمر البيت من مظهره .

مرة أخرى أتذكر آثارنا في القاهرة القديمة وأتأسر ، في بازل مبنى قديم عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول في القرن التاسع عشر ، فيه تقرر أمور انعكست فيما بعد على عالمنا العربي ، وكم من قرارات تتخذ في هذه المدن النائية في أوروبا وأمريكا تمس مصائرنا ومعاشنا ، ونحن لا ندري ! في بازل مبنى آخر ، غامض

المظهر ، لكنه من أخطر المباني في العالم كله ، أنه بنك التسويات الدولية ، أو بنك البنوك المركزية في العالم ، له صلة وثيقة جداً بالعالم الثالث وقروضه ومديونيته ، شرح لي جميل مطولاً ظروفه ولكنني لم أستوعب!

* * *

يسكن جميل في منطقة هادئة ، جدران بيته مدجج بالكتب . تأثرت جداً بحقوقه ، حقاً .. إن الصداقة في الغربية وطن ، وكثيراً ما يكتشف البشر بعضهم عند الاغتراب ، ولذلك سمي الرحيل سفراً في اللغة لأنه يسفر عن الطبائع والأخلاق ، قال لي جميل أنه اكتشف صنع الله ابراهيم إنسانياً عندما جاء إلى سويسرا العام الماضي مع صدور روايته (اللجنة) ونزل بازل ، حدثني عن هدوئه ورقته وتواضعه ، وقد عرفت هذا في صنع الله عند سفرنا معاً إلى الجزائر منذ أربعة أعوام ، ولكن اهتمام جميل وحنوه لم يكن مفاجئاً لي ، فعلاقتي به عميقة وطويلة .

تناولنا العشاء في السادسة ، أنه الوجبة الرئيسية هنا ، ويتم تناوله بين السادسة والسابعة ، مضيئاً بعد ذلك إلى ضاحية المدينة التي تقع في الطرف الآخر ، حيث الاتيلية الذي يقيم فيه الفنان جمال عبد الناصر .

* * *

يقع المبنى الحديث في منطقة خصبة الخضرة ، يضم عدداً من الاتيليات ، يقيم فيها فنانون سويسريون وأجانب تستضيفهم مؤسسة بردهيدلفتيا ، وسنويا تقوم بدعوة اثنين من الفنانين المصريين حيث يقيم كل منهم سنة شهور متفرغ تماماً للعمل الفني . جمال عبد الناصر نحات ورسام ، أقام أكثر من معرض ، أعماله متميزة ، وفريدة ، جيرانه معظمهم فنانون سويسريين ، جاء فنان سويسري مقيم في الاتيلية المجاور . بدا ودوداً رقيقاً . قال إن شقيقه مهتم بالأدب العربي ، كتب اسمي باهتمام ، ثم استأذن لعدة دقائق عاد بعدها وقد تغيرت ملامحه تماماً ، قال إنه اتصل بشقيقه ، وأنه يعرفني من خلال

قراءته للروايتين اللتين ترجمتا إلى الألمانية ، الزينى ببركات ووقائع حارة
الزعفرانى التى ترجمت مؤخراً وصدرت فى برلين .

خرجنا إلى الممر الذى تطل عليه أبواب المراسم . فوق مسرح صغير بيانو
أسود اللون ، وكان هناك عازف يضبط أوتار التشيللو ، وبعد لحظات بدأ
العزف ، موسيقى حديثة ، فى بعض اللحظات اقتنص ملامح جمال خاص ،
ولكنها فى معظمها ضجيج وطرق يبدو عشوائياً وكأنه خبط أوانى نحاسية .
كنت أصغى إلى هذه الموسيقى الضاججة بالفوضى وأفكر فى الهدوء المخيم
بالخارج ، والانضباط السويسري فى الساعات الشهيرة ، فى حركة القطارات ،
فى عبور الطرقات . فى المجتمع ، وكنت أشعر أن الفن يعبر عن الجانب الآخر ،
عن بعض الفوضى . وعندما زرت متحف بازل فى اليوم التالى تأكد لى ما
شعرت به .

انتهت الموسيقى وصفق الحاضرون . وكنت أطلع إلى ملامحهم وأفكر . فى
المكان الذى كنت فيه أمس . فى قاهرته ، تماماً فى مثل هذه اللحظات ، وفى المكان
الذى سأبلغه غداً ، وفى الأرض التى سأحل بها بعد أسبوع ، وفى هوية هؤلاء
الذين لا أعرفهم ، والذين بدأ انصرافهم ، ولن تقع عينى عليهم مرة أخرى ،
وستظل كينوناتهم وهوياتهم ومصائرهم مجهولة لى ..



بالثانية .. تماماً ، طبقاً للموعد المكتوب على الجدول المعلق فى المحطة جاء
الترام . كان خالياً تماماً . قلت لجميل إن الليل يبدو مخيفاً فى ظل هذا الهدوء ،
واننى أقرأ كثيراً عن موجات العنصرية المعادية للعرب وللملونين ، وطبعاً ..
نحن هنا ملونون. أوما برأسه نافياً ، قال لى إن الأمن هنا شديد ، بعد لحظات
قلت له على أى حال من الأفضل أن نجلس وراء كابينة السائق مباشرة ، حتى
إذا وقعت الطوبى فى المعطوبية ، أمكننا أن نستغيث به . إزاء الحاحى وافق ،
انتقلنا إلى المقعد الأول . التالى مباشرة للكابينة المعدنية التى يجلس داخلها

السائق الذى لم نر ملامحه . عندما نزلنا فى المحطة القريبة من الفندق . وقفت على الرصيف ، رفعت عينائى لأرى السائق وانفجرت ضاحكاً .

سألتنى جميل

.. لماذا تضحك ؟

أشرت إلى السائق ، تطلع إليه ، وسرعان ما ارتسم على وجهه تعبير ضاحك ، وارتسمت ابتسامته .

كان السائق فتاة جميلة . فى العشرين من العمر ..

القهامة السويسرية ..

السبت ..

أطلع إلى الراين ، تتدفق مياهه هادئة ، عريض هنا لكنه لا يحاكي النيل ولا يشبهه ، حقاً .. ان النيل جد الأنهار جميعاً . برسوخه ، بطوله ، بعرضه ، بحكمته ، بصره ، بامتداده ، بقدمه . إذا ما رأيت نهراً هنا أو هناك ، فهو المرجع، إليه أقيس .. وبه أقارن . الجسر يخلو تقريباً من المادة ، اعلام ملونة ترفرف لا أدرى مغزاها ومدلولاتها .

الغرفة تفيض بالضوء مع أن السماء رمادية ، طقس في غير أوانه ، برد قارس، بينما القاهرة تعبر حراً شديداً الآن ..

أقلب مفتاح الراديو بحثاً عن إذاعة عربية ، من الصعب الاصغاء إلى صوت القاهرة ، يسهل التقاط البرنامج العام ليلاً على الموجة القصيرة ، لاحظت أن الإذاعات العربية عموماً ضعيفة هنا ، أقوى الإذاعات المسموعة الموجهة من أوروبا أو أمريكا .. لكن مهلاً ..

ما هذا ؟

يتحدث المذيع بلهجة أبناء شمال أفريقيا ، تونس بالتحديد ، أصبحت قادراً على تمييز اللهجة التونسية من المغربية من الجزائرية ، بعد أن زرت البلاد الثلاث ، وارتبطت بصلات حميمة مع الأصدقاء .

المذيع حزين جداً ،

فقيد الأغنية العربية محمد عبد الوهاب ..

ماذا ؟

لا بد اننى مخطئٌ .

أصغى من جديد ..

يقرن المذيع اسم الفنان العظيم بأوصاف الراحل والفقيد ، ثم يتردد صوت
عبد الوهاب ..

حاسبت روحى على الأيام الى انقضت

فى حبى معاه

لقيتها كلها أو هام ..

أن تسمع أغنية مصرية فى الخارج فذلك يكسبها أبعاداً مختلفة ، مثيرة
للحنين وللشجن . فما البال إذا كان صوت عبد الوهاب يتردد مع خبر رحيله ؟
هذا عصر بأكمله يرحل ، تودع مصر رموزها خلال القرن العشرين إذ تدنو
من مختتمه ، شعرت بحزن عميق ، وكأن جزءاً منى هوى ، ألم يكن صاحب
الصوت وهذه الانغام جزءاً من صباياتنا ، وهوانا ، وحنينا ، كم من لحظات
أتوقف عندها فى حياتى كعلامات والسبب .. اقترانها بصوت عبد الوهاب .
رحت أطلع إلى النهر ، كان الوقت مبكراً ، ومع ذلك جاءنى صوت جميل عطية
عبر الهاتف نشيطاً ، يقطأ ، من الآن يبدأ متابعة الأعلام السويسرى لكى يعد
رسالة عن أصدقاء وفاة عبد الوهاب لإذاعة القاهرة .

* * *

أبرزت بطاقتى الصحفية للسيدة المسئولة عن شباك التذاكر عند مدخل
متحف الفنون الجميلة . أوامات برأسها قائلة ..
-تفضل ..

تعفينى البطاقة من رسم الدخول ، عشر فرنكات أى حوالى ثلاثة وعشرين
جنيهاً ، أنه مبلغ زهيد فى سويسرا ، ولكنه ليس بالقليل بالنسبة لى ، خاصة
عندما أحوله فى ذهنى إلى الجنيهات المصرية !
المبنى مهيب ، يتقدمه تمثال لرودان . كنت أسعى إلى رؤية ثلاث لوحات

بالتحديد يضمها المتحف لفنان أحبيته جداً ، واحتفظ في مكتبتي بمستنسخات عديدة لأعماله ، اتجاه قائم بذاته ، عالم خاص جداً ، أنه هنرى روسو ، هنا لوحته المشهورتين عن الغابة ، ولوحة العرس ، وأن ترى الأصل الذى أبدعه الفنان نفسه فهذا أمر وأن ترى الأصل الذى أبدعه الفنان نفسه فهذا أمر مختلف تماماً . طفت المتحف لأقف على محتوياته . ولأطيل التأمل أمام لوحة لبيكاسو أو براك ، أو سيزان ، ولأمر بسرعة أمام لوحات الفن الحديث التى تحوى قدراً من الاستعباط أو الضحك على الذقون ، فهذا أحدهم يدلوق الألوان كيفما اتفق على اللوحة فيختلط الأزرق بالأحمر بالأصفر ، ويطلق عليها اسما ، وهنا تجيء المرحلة الثانية من النصب على أيدي النقاد ، أما إذا كان هذا الرسام صاحب حظوة أو منصب فما أكثر المقالات والتعليقات والشروح والانتقادات لمن لم يفهم . مجرد مساحات لونية لاتعنى شيئاً ، وفى رأى أن اللوحة إذا افتقدت الموضوع ، الرؤية . أصبحت مجرد عبث لوني ، وأعنى بالموضوع ، المفهوم التشكيلي للمضمون وليس المفهوم الأدبى ، فلكل فن لغته ، ومفرداته .

أطوّف بصحبة الفنان المصرى جمال عبدالناصر . وأعود بمفردى إلى لوحات هنرى روسو . أمضى وقتاً واقفاً . ثم أجلس فوق الأريكة المواجهة ، أمعن التأمل . وإذا يمضى الوقت أقوم متأهباً للإنصراف ، ولكن لا تطاوعنى نفسى فأعود لالقاء نظرة أخيرة ، ثم أخرى .. ولكن لا بد من المفارقة فى النهاية ، أخرج من القاعة وأتوقف أمام آلة غربية ، ضخمة ، تحتل البسطة الفسيحة ما بين الطابق الأول والثانى ، آلة موسيقية هائلة ، تم تركيبها من القمامة .



شاكوش ، بيانو قديم ، غطاء حلة كبيرة ، عجلة قاطرة ، سيوف ، دروع ، تروس . تم توصيل هذه المتنافرات كلها ببعضها ، ومن خلال دائرة كهربائية

تنطلق الطاقة بعد ضغط ذر صغير ، لتبدأ هذه الآلات والأشياء في الاصطدام ببعضها ، محدثة أصواتاً متناغمة ، تتردد في المبنى الضخم الكلاسيكي الطراز ، وكأنها محاولة لإشاعة الفوضى في البنية المحكمة . ألا يشكل هذا نوع من الرد الفني على أسلوب حياة شديد الانضباط . وخلال رحيلي عبر المدن السويسرية سوف أرى فيما بعد ما يؤكد رأيي .

الألة الموسيقية الغربية تم تركيبها كلها من القمامة . وعندما ذهبت إلى اتيليه جمال عبد الناصر وجدته يستخدم أشياء عديدة في تراكيب فنية عثر عليها في القمامة . بل إنه أشار إلى تليفزيون كبير الحجم ، ملون ، قال لي إنه عثر عليه في القمامة . ألقاه أصحابه ربما لأن أحد مفاتيحه سقطت ، أو لأن خدشاً أصابه .

في القمامة السويسرية يمكن أن تجد بيانو في حالة جيدة جداً ضاق أصحابه به ، أو استبدلوه بآخر جديد ، ولأن تكاليف نقله مرتفعة ولا أحد يصلح القديم ، فأسهل الأمور التخلص منه بالقائه في القمامة . أو ثلاثة في حالة جيدة ، أو كاميرا للفيديو ، في لوزان زرت نادى يضم مسرحاً ، وصلات وقاعات عرض ، كل ما ضمه من أثاث ومعدات تم تجميعها من القمامة . هذا هو الحال في المجتمعات الاستهلاكية المتقدمة ، لا وقت ولا مال لصيانة القديم ، أسهل شيء التخلص منه واستبداله بآخر جديد .

ولكن للقمامة السويسرية خصوصيتها ، شملها النظام أيضاً ، فلا يمكن إلقاء أى شيء كما اتفق وفي أى لحظة .

ثمة يوم للورق ، المجلات ، الصحف ، الكتب ، يقوم المواطن بحزم ما سوف يستغنى عنه ، وترتيبه ، المجلات بمفردها ، الصحف بمعزل ، الكتب ، الأوراق الأخرى ، ثم يضعها بنظام في المكان المحدد بالطريق العام .
ثمة يوم مخصص للأشياء المعدنية .

يوم آخر للأطعمة وبقيائهما ، حيث توضع في أكياس من البلاستيك .

كل شيء بنظام ، ودقة . القمامة يتم فرزها مقدماً إذن . ثم يسهل استغلالها أو إعادة تصنيعها .

* * *

عندما وصلنا إلى بيت جميل عطية في المساء شممت رائحة الطعام قوية ونحن نصعد درجات السلم ، قلت لجمال عبد الناصر ..

.. هذا طعام مصرى ..

وبالفعل ، كان جميل قد أعد لنا بنفسه عشاءً شهياً ، صينية سمك على الطريقة البورسعيدية ، استخدم فيها الثوم . والكسبرة ومواد أخرى أتى بها من مصر ..

كانت زوجته التى تعمل مدرسة ستتناول العشاء الليلة في المدرسة . تقليد اتبعته منذ زمن ، في كل سنة يقيم خريجو عام سابق حفلاً ، يجيئون فيه إلى المدرسة التى تلقوا فيها تعليمهم بعد أن خرجوا إلى الحياة وعملوا هنا وهناك . في طفولتهم واثناء دراستهم طلبت منهم أستاذتهم أن يتحدث كل منهم عن أمنياته ، عن العمل الذى يرغب الالتحاق به ، وبعد أن يكتب هذا تحتفظ بالأمنيات كلها في ملف . ثم تمضى السنين ، ويتفرق التلاميذ ، وتتشعب بهم السبل ، وفي ليلة معينة يجتمعون في المدرسة وتفاجئهم الأستاذة بتعليق أمانيتهم القديمة التى كتبوها في الطفولة .

وبالطبع ، ما أوسع الفارق بين الأمنيات والواقع . تلميذة كانت تتمنى أن تصبح كاتبة ، هما الآن مساعدة ثالثة في معمل تحاليل طبية .

أحدهم تمنى أن يصبح طبيباً شهيراً ، وهو الآن ميكانيكى سيارات .

وهكذا تتبدل الخطط ، وتحيد الأمنيات ، وهكذا الحياة أيضاً !

* * *

الأحد

.. صحفية سويسرية تعمل في الإذاعة ، هذا موعدى معها لإجراء حوار مطول ، من زيوريخ جاء مهاجر مصرى ابراهيم الملوانى ، متخصص فى الكمبيوتر ، استقر به المقام هنا منذ سنوات ، يتقن اللغة الألمانية باللهجة السويسرية إلى حد مذهل ، جاء متطوعاً ليقوم بالترجمة .

فى البداية قدمت إلى السيدة ريجيولا رانشلر علبتين صغيرتين ملفوفتين فى ورق أنيق وبشرايط ملونة، قالت إنها هدية ، رمزية تقديرأ لأدبى ، إذ أنها قرأت الروائتين اللتين ترجمتا إلى الألمانية وأعجبت بهما جداً ، قالت إن هذا أدب غريب عليها تماماً وجديد أيضاً .

سألته ..

– هل قرأت روايتين ؟

أومات ، سألتها

– هذا يعنى أنك قرأت «وقائع حارة الزعفرانى» التى صدرت مؤخراً فى

برلين؟

ابتسمت قائلة إنها قرأت الرواية ،

– معنى هنا .. فى هذه الحقيبة ..

كانت المرة الأولى التى أرى فيها كتابى الثانى باللغة الألمانية ، إذ صدر منذ عدة أسابيع ، ودار النشر فى برلين لم ترسل إلى بعد النسخ الخاصة بى ، كانت مفاجأة سعيدة حقاً ، ورؤية كتاب جديد أمر لا يدركه تماماً إلا أصحاب القلم ، خاصة عندما يأتى المولود الجديد غريباً ، يحمل تراثى كله ، وعالمى ، ومكوناتى، ولكن فى لغة أجهلها .

أبدى جميل عطية ملاحظة ، وهى ضرورة ان أفتح العلبتين وأن أطلع الحاضرين على محتوياتهما ، قال ذلك بالعربية ، وأدركت أن النظام هنا

مختلف، فالهدية عندنا تخص صاحبها، أمضيت وقتاً أفك الشرائط الملونة .
فتحت العلبتين، الأولى تحتوى على شريط حريرى نحيل يحمل علامة مدينة
بازل . والثانية تحوى حلوى تختص بها بازل، قطع مربعة فى حجم شرائح
البسكويت، أصلب، حلوة المذاق . ذكرتني بقطع الحلوى التى تباع عندنا فى
الموالد الشعبية والتى يحيط الغموض مكوناتها، تذكرت نوعاً آخر من الحلوى
ذقته فى مدينة نورمبرج منذ عامين، قدمته إلى صديقة ألمانية من المدينة باعتزاز
شديد، أنها محاولة تجسيد الخصوصية، فى نوع حلوى، فى نقش معين على
شرائط حريرية، فى طريقة معينة عند ارتداء الأزياء .

قدمت إلى السيدة نتيجة ملونة جميلة طبعت فى مطابع أخبار اليوم،
لوحات رسمها أوريون لقاهرة الزمن الجميل فى القرن التاسع عشر، لم
أخف سرورى لانطباع السيدة الإيجابى وإعجابها الشديد بمستوى الطبعة
المتقدم .

استغرق الحوار أكثر من ثلاث ساعات، كانت قرات «الزنى بركات»
ودقائق حارة الزعفرانى، قراءة دقيقة، كل منهما تتجاوز صفحاتها فى
الألمانية الخمسمائة، ما من صحفى أجرى معى حواراً فى أوروبا إلا وجاء ملماً
بعمل المترجم، وتذكرت بعض الصحفيين الذين يجيئون لإجراء حوارات معى
فى القاهرة، خاصة أولئك الذين يرأسلون المجلات العربية، يجيء بعضهم وهم
لا يعرفون أى شىء عن الأديب الذى سيحاورونه، ويبدأون بطلب ذكر
تفاصيل البطاقة الشخصية، أى تاريخ الميلاد والوظيفة والحالة الاجتماعية
والأعمال التى صدرت .

يعلق الاستاذ مصطفى أمين على ذلك ضاحكاً .

— أن من يطلب منى تفاصيل البطاقة الشخصية أقول له إن هذا سؤال
مباحثى وليس صحفياً ..



مال النهار إلى وقت العصر ، وللعصر في الغربية ثقل خاص ، فوهن الضوء نذير بإقتراب الليل ، وهنا تهمل الأفكار والاحتمالات ، ومحاولة التنبؤ بما يقوم به الأحباب في الوطن الآن .

عدت مع الفنان جمال عبد الناصر إلى منطقته الهادئة ، نزلنا من محطة القطار ، مشينا عبر طرقات مرصوفة بالحجر ، صاعدة إلى أعلى ، كان الطريق مرهقاً جداً بالنسبة لي ، فكأنني أرتقي سلماً حاداً .

والمنطقة التي نقصدها اسمها جواتنوم ، المنازل فيها مصممة وفقاً لفلسفة معينة، حيث لا توجد الخطوط الحادة في المعمار ، ما من سقوف محدبة، إنما الخطوط منحنية تشبه القباب ، كذلك المداخل ، والأبواب ، والنوافذ ، الزوايا الحادة تثير عصبية الإنسان ، خطوط المعمار تشبه مدرسة مهندسا العبقري حسن فتحي ، ولكن البناء هنا لا يتم من أجل الفقراء وبهم ، الفقراء الذين يعيشون في عشش الصفيح ، أو يتكدسون في بيوت فقيرة مع حيواناتهم . هنا درجة رفيعة المستوى من الرفاهية ، فكل المشاكل حلت ولم يبق إلا الخطوط الحادة في المعمار التي يجب التخلص منها ، النظرية التي تحكم المكان هنا ليست بهذه البساطة ، إنما هي تدعو أيضاً إلى الإعتماد على المواد الطبيعية ، متاجر الأزياء تعلن أن كل المواد المستخدمة مواد طبيعية ، المطاعم أيضاً . ذروة المكان في المركز الثقافي الذي كان مصمماً في الأصل من الخشب ثم احترق وأعيد بناؤه من الخرسانة التي احتفظوا بلونها الطبيعي ، لم يضيفوا إليها أى طلاء . يضم المركز مسرحاً ، وقاعات للاستماع إلى الموسيقى ، ومكتبة تضم عدداً كبيراً من الكتب حول المنطقة ، والفلسفة التي تحكم الحياة فيها ، والتي ترجع إلى فيلسوف ومفكر ألماني اسمه رودلف شتينر ولد في ٢٧ فبراير عام ١٨٨١ في مدينة صغيرة تقع على منطقة الحدود بين النمسا وهنغاريا .

أعترف أنني لم ألم بما فيه الكفاية بفلسفة شتاينر ، ولكن المكان جميل جداً ، تتضافر الخضرة الخصبة والأشجار الكثيفة والمباني ذات الخطوط شبه

الدائرية على إضفاء قراءة خاصة ، ولكننى أتوقف أمام الهدوء العميق ، والعزلة التى تحيط بالمباني ، كل منها بعيد عن الآخر . التوافذ مغلقة ، الأبواب موحدة . ولولا المظلات الموضوعة فى صناديق أمام الأبواب وأحياناً ترى أحذية ، لظننت المكان خلوا من البشر .

هل هو البرد ؟

أو أنه شىء آخر متصل بالطبيعة الإنسانية المتحفظة هنا ، والتى تنعكس بشكل ما على الجدران ، والحجر ، فما المباني إلا صورة لساكنيها !

* * *

الاثنين صباحاً ..

يبدأ برنامجى منذ الثامنة صباحاً .

فى الثامنة تماماً جاءت صحفية شابة ، اسمها سيبيل اوتليكر . تعمل فى جريدة أخبار بازل ، اتصل بى أمس أستاذ عربى . فلسطينى الأصل ، يقوم بالتدريس فى جامعة بازل ، اسمه ادوارد بادين ، أخبرنى بالأسئلة التى ستوجه لى فى هذا الحوار ، كلها ذات طابع سياسى ، حول حرب الخليج ، الديمقراطية فى مصر ، حركة الأصوليين الإسلاميين ، تلك الحركة التى يبدون بها اهتماماً كبيراً فى أوروبا .

وفى حواراتى مع الصحفيين الأجانب . أقول رأى وما أعتقد بوضوح ، بصراحة ، أقول دائماً أنه ليست عندى لغتين ، الأولى محلية والثانية للتصدير . أثق أن الآخر عندما يستشعر نبرة الصدق فى رأيك سوف يحترمك حتى لو كنت تبدى ما يصدمه . أو ما لا يتفق معه .

كان لقائى بادوارد بدين أهم ما فى مناسبة هذا اللقاء ، أنه ذو وجه يفيض بمعاناة قديمة ، ذو لحية كثة . لكنه من هؤلاء الأشخاص الذين التقى بهم لأول مرة فأشعر أننى أعرفهم منذ زمن . يعمل حالياً فى تحقيق الجزء الثانى من كتاب أهتم به كثيراً (كنز الدرر وجامع الغرر) لا يبك الدويدارى ويعتبر أحد

المصادر الهامة للعصر المملوكى . كما يهتم بالأدب المصرى الحديث .
صحبنى حتى محطة القطار ، لن أمضى أى ليلة أخرى فى بازل ، كان
وجودى قرب جميل يلغى جزءاً كبيراً من شعورى بالغربة ، وتلك الوحشة التى
تدهمنى خلال سفرى ، فأين زمان الشوق إلى الرحيل . أين ؟
لوحث بيدي لادوارد يدين الذى وقف فوق الرصيف ، بالضبط فى العاشرة
والدقيقة السابعة والعشرين تحرك القطار السويسري المنضبط جداً . ضجة
العجلات تبدو خافتة ، النوافذ فسيحة ، رحت أطلع إلى المرتفعات الخضراء .
والبيوت الصغيرة ، مرة أفكر فى عمل روائى أنهيت مرحلة كتابته الأولى ، ومرة
أفكر فيمن سوف ألتقى بهم اليوم وغدا ، من لم أعرفهم من قبل .

القطارات السويسرية ..

من بازل .. العاشرة والسابعة والعشرين
وصول زيوريخ . الحادية عشر والثالثة والعشرين ..
أتطلع إلى ساعتى .

بالضبط . ما من ثانية زائدة أو ناقصة ، لماذا الدقيقة السابعة والعشرين؟
لماذا الثالثة والعشرين؟ لماذا التحديد الصارم ؟ . يرتبط ذلك بالحركة الكثيفة
للقاطرات ، وضرورة انضباطها . لكن المثير للإعجاب حقاً هذه الدقة الحادة ،
تمضى القطارات كعقارب الساعات المشهورة الدقيقة التى تصنع هنا ، قطارات
طويلة ، يتجاوز عدد عرباتها العشرين ، تنتقل من سويسرا إلى الدول المجاورة ،
كما يمكن رؤية قطارات فرنسية ، وألمانية ، وإيطالية ، ونمساوية ، ترتبط
أوروبا بشبكة واسعة من القطارات التى تجعل القارة وحدة واحدة من الناحية
الفعلية . كلها تسير بالطاقة الكهربائية ، القطارات السويسرية التى تعمل بين
المدن خضراء اللون تحمل الصليب السويسرى ، ثمة قطارات أخرى أصغر ،
ركبت أحدها من مدينة سولوتورن إلى برن ، طلاء العربات برتقالى اللون ،
مرسوم داخله لوحات تضيف على العربات جواً مرحاً ، ثمة قطارات قديمة
الطراز ، تمشى أيام الأعياد والعطلات فقط ، يمكن لشخص أن يؤجر القطار
كله وأن يقيم فيه حفلة عيد ميلاد أو عرس ، أو يدعى أصدقائه للنزهة والفرجة
وتمضية الوقت. ما من وسيلة تشعرنى بالسفر وتثير عندى الحنين وتدفع بى
إلى حافة الغربة مثل القطار . ما زلت أتذكر قطار الصعيد الذى كنا نركبه عند
السفر إلى مسقط رأسى جبهة فى محافظة سوهاج بالصعيد الأعلى .

كان يتحرك في الثامنة صباحاً . بالضبط في الثامنة تبدأ الحركة المتمهلة حيث لا يمكن سماع صوت احتكاك العجلات في البداية ، تراجع الأعمدة التي تحمل المظلات ، والواقفون فوق الرصيف ، ثم تتزايد شيئاً فشيئاً ، حتى تكتمل السرعة . مازلت أذكر عبور القطار للفواصل بين القضبان ، وانتقاله من خط حديدى إلى آخر . عبوره القرى الصغيرة . وتكاثر النخيل كلما أمعنا التوغل جنوباً ، مازلت أذكر القاطرة السوداء ، التي كانت تعمل بالفحم ثم المازوت وتندفع بقوة البخار ، صفارتها الطويلة الشجية والتي تسمع من مسافات قريبة .

قطار الثامنة مفتتح أمرى مع السفر ، يقف بالمدن الرئيسية .
أو المراكز .

قطار الثانية عشر . أو اكسبريس الصعيد ، أو السريع ، لا يقف إلا بعواصم المحافظات ، القطار الذى خلده عمال التراحيل الفقراء في غربتهم عندما غنوا

- يا وابور الساعة اتناشر

يا مقبل على الصعيد

ثمة قطارات أخرى بطيئة ، يسميها المسافرون (القشاش) لا تترك محطة على الطريق إلا ووقفت بها .

كان أنسب القطارات لسفر أسرتى قطار الثامنة صباحاً ، كان يصل مدينة طهطا في الثالثة والنصف بعد الظهر ، ومنها ننتقل إلى جيهينة قنصل قبل الغروب .

ما زال قطار الثامنة يتحرك في مواعده الصباحى . لم يخلفه أبداً ، لم تتغير مواعيد القطارات المصرية منذ عشرات السنين ثمة قطارات جديدة تضاف إلى الحركة ولكن المواعيد القديمة ما تزال كما هى . كان حنين والذى يبدو واضحاً إلى القرية ، عندما يروح يعدد المدن التى يقف بها قطار الثامنة ، كثيراً ما كان يقول فجأة منهيأ تأمله أو صمته ، أن القطار يدخل إلى طهطا الآن .

عرفت مصر القطارات قبل أوروبا كلها ، كانت ثانى دولة فى العالم تمد خطاً حديدياً ، بين القاهرة والإسكندرية ، بعد انجلترا مباشرة . ومنذ عام ١٨٥٦ ما تزال القطارات تسعى . تطلق صفاراتها عبر افق الوادى ، وما من قطار ركبته فى مصر أو أوروبا إلا وداخلنى الإحساس القديم المستقر داخلى عندما كنت ألج عربة قطار الثامنة صباحاً المتجه إلى الصعيد .

قطار الثامنة هو مرجعى ، إليه انتسب وإليه أقيس كل ما عرفته من قطارات فيما بعد .



ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان خافت جداً . يخرج القطار من مدينة بازل ، دائماً عن السفر أفضل المقعد المفرد ، أميل إلى العزلة والتأمل ، وإمعان النظر فيما كان وسيكون ، ومراقبة ما حولى خفية . عدد الركاب قليل جداً ، فى الدرجة الأولى كثيراً ما كنت الراكب الوحيد ، وفى أحد الليالى ركبت القطار من جنيف إلى لوزان ، كان الوقت متأخراً . الحادية عشر ليلاً ، وبدون مبالغة لم يكن عدد الركاب فى القطار كله يتجاوز العشرة ، أى بمعدل راكب واحد لكل عربة ، لا يهم عدد الركاب . لا يؤثر ذلك فى حركة القطارات التى لا تتوقف على مدار الساعات الأربع والعشرين . أحد الأصدقاء السويسريين قال لى أن القطارات الذاهبة إلى زيوريخ أو القادمة منها تكون مزدحمة ، خاصة فى نهاية الاسبوع . ومعنى الزحام هنا أن تمتلئ معظم المقاعد ، زحام سويسرى أيضاً فالأمر نسبي .

المسافات هنا قريبة زمنياً ، فالبلد صغير ، والقطار يقطعه من أوله إلى آخره فى ثلاث ساعات . من بازل إلى زيوريخ أقل من ساعة . للمرة الثانية أنزل محطة زيوريخ الضخمة ، كأنها مكان آخر ، فى المرة الأولى جثتها من المطار بصحة

السيدة كاسوت التى انتظرتنى . هذه المرة أصل إليها بمفردى . السيدة كاسوت تنتظرني أيضاً ، وطبقاً للدقة السويسرية فقد حدد البرنامج المطبوع مكان انتظارها ، عند نهاية الرصيف .

المحطات كلها تتشابه فى سائر أنحاء العالم ، الأرصفة المستطيلة ، الفناء الفسيح المسقوف بمظلات حديدية ، حركة المسافرين ، وتطلع رجال الشرطة . واللصوص ، والحائرين ، والباحثين عن مصر ، والاشواق الإنسانية ما بين وداع حار وآخر متحفظ ، واستقبال بارد ولهفة فى عينين حزينتين . ملتقى للمشاعر الإنسانية ومعرض لها ، السيدة انتونيا كاسوت تنتظر . ملامحها فيها شيء ما من الشرق ، عندما سألتها ، قالت إنها من القسم الإيطالى فى سويسرا ، وإيطاليا تعنى البحر الأبيض ، نفس البحر الذى نطل عليه من الاسكندرية وبورسعيد ومرسى مطروح .

كانت السيدة كاسوت فى انتظارى دائماً عند وصولى إلى زيوريخ ، دائماً فى المكان نفسه والمحدد فى البرنامج ، عند نهاية الرصيف . وكان ذلك يثير عندى شعوراً بالاطمئنان ، فالوصول دائماً إلى بلد أجنبى يثير عندى الحذر ، خاصة فى البلاد التى أنزلها لأول مرة ، وقد حدد البرنامج المطبوع لزيارتى كل شيء بدقة ، فى برن وسولوتورن كان الصديق هارتموت فندريش ينتظرني امام عربة الطعام ، فى جنيف كانت الدكتورة فوزية العشماوى أستاذة الأدب العربى فى جامعة جنيف تنتظرني امام عربة الطعام أيضاً ولم يفت البرنامج ذكر لون الرداء الأحمر الذى ترتديه ، بالطبع يمكننى التعرف على أى إنسان مصرى فى الخارج بسهولة شديدة ، ليس فى أوروبا فقط التى تختلف فيها السحن والملامح اختلافاً كبيراً ولكن حتى فى البلاد العربية ، ثمة حضور خاص للملامح المصرية يجعلنى أتعرف على أصحابها فوراً ، الغريب أن البلد الوحيد الذى واجهت فيه صعوبة ، كان بلداً نائياً جداً عن مصر ، وهو المكسيك . هناك تتشابه الوجوه والسحن تشابهاً عجيباً بالمصريين خاصة والعرب عامة ..

وأعود إلى القطارات السويسرية .

* * *

شبكة هائلة من الخطوط الحديدية تصل كافة المدن السويسرية التي تقع في اتجاهات مختلفة ، في البداية انزعجت عندما قرأت برنامج زيارتي ، كان مزدحماً جداً ، ومازلت أذكر هذا اليوم الذي خرجت فيه من مدينة برن صباحاً ، لأسافر إلى جنيف وأمضى فيها حوالي عشر ساعات تنتهي ليلاً بركوب القطار إلى مدينة ليلاً بركوب القطار إلى مدينة لوزان حيث أقضى ليلتي ، ولكنني بعد أن ولجت عالم القطارات السويسرية بدأت أتعجل لحظات توجهي إليها ، فالقاعد وثيرة ، والمساحات فسيحة ، والنوافذ عريضة تتيح مجالاً للرؤية ، كنت أستعيد علاقتي القديمة بالقطارات ، وفي نفس الوقت أتمسك وقتاً يمكنني التأمل فيه والخلوة مع الذات ، حيث أستعرض على مهل ما مضى ، وما يمكن أن يأتي . أيضاً أتابع الطبيعة السويسرية بالغة الثراء والجمال ، هذه المساحات الخضراء ، المرتفعات المكسوة بالأشجار والنباتات المختلفة ، وحقول عباد الشمس بصفرتها اللاسعة ، وعندما كانت القطارات تحاذي البحيرات تكتمل عناصر الطبيعة . الماء ، الجبال ، السهول ، وعندما أعبر المدن الصغيرة الهادئة أطيل التحديق ، وأحاول تثبيت منظر ما من تلك البلاد التي لن أنزلها ، ولن أصل إليها ، إنما أنا مجرد عابر بسرعة تتجاوز مائة كيلومتر وربما أكثر .

ما بين لوزان وسولتورن ، وفوق منحدر جبلي بيت أنيق يشرف على بحيرة كانت تقوض ما بين الضوء والضباب ، ما بين الواقع والحلم ، لحظة عبور القطار أمام البيت خرجت فتاة جميلة شابة ، وقفت في الشرفة متطلعة صوب البحيرة ، وعلى الرغم من أنني لم أرها إلا جزءاً من الثانية فإن وقفها ، وظلتها ، وحضورها ، وعبورها في مجال بصرى هذا المروق السريع الخاطف ، لن يمحي من ذاكرتي أبداً .

* * *

من لوزان ركبت القطار المتجه إلى بريتانى ، عربات لونها أخضر قاتم ، كان يوم جمعة ، دعنتى الأستاذة هيلارى كيلباتريك وزوجها إلى قضاء اليوم بصحبتهما . عرفت هيلارى لأول مرة عام ١٩٨٠ فى ندوة دولية عقدت بمدينة روما ، سيدة رزينة ، محترمة ذات سمعة علمية ، من أيرلنده ، متزوجة من استاذ هولندي، هى متخصصة فى الأدب العربى . خاصة الأدب المصرى الحديث ، وزوجها الدكتور واردنبورج متخصص فى الإسلام وله بحوث عديدة حوله . كان اليوم عطلة بسبب أحد الأعياد القومية ، ركبنا القطار من لوزان ، لم أكن بحاجة الى الوقوف أمام نافذة التذاكر ، زودتنى مؤسسة بروهيلفتيا ببطاقة حمراء تتضمن اشتراكا لمدة أسبوعين ، أى المدة التى سأمضيها فى سويسرا ، هذا الاشتراك يسمح لى بركوب أى مركبة عامة متحركة فى سويسرا عدا الطائرات ، كافة القطارات ، والأتوبيسات ، والترامويات ، والمراكب النهرية .

كان القطار يمضى فى اتجاه أقصده لأول مرة ، باتجاه الحدود الفرنسية ويمضى القطار محاذياً لبحيرة مترامية الأطراف . فى وسطها يقوم جبل شاهق، مرتفع، صخرة هائلة ، حادة الحواف ، مكللة بالثلج الذى يعكس صليلاً معدنياً بسبب أشعة الشمس القوية ، ثمّة شئ ما فى الجبل جعلنى مشدوداً إليه من خلال نافذة القطار ، ومع تدقيق البصر ، كان ممكناً رؤية عربات تتحرك على طرق منحوتة ملتفة تبدو أحياناً وتختفى أحياناً، ثمّة بيوت أخرى متناثرة ، بعضها قرب الحافة ، أو تقوم على الهوة ، وتذكرت بعض ما قاله الأصدقاء عن فقر المقيمين فى الجبال ، بالطبع الأمر نسبى كما ذكرت .

وصلنا مدينة بريتانى ، محطة صغيرة بالقياس إلى محطات لوزان ، وزيوريخ ، وجنيف ، ومثل هذه المحطات تثير عندى حنيناً غامضاً ، وإحساساً بالإنقال ، والإقامة المؤقتة . فعلى الرغم من مولدى فى قرية صغيرة بأعلى صعيد مصر ، إلا أننى عشت عمرى كله فى القاهرة ، المدينة

الشاسعة ، الضخمة ، وما اقامتى بالمدن الصغرى إلا عابرة ، ومؤقتة .

على خط حديدي منعزل كان يقف قطار صغير ، أنيق ، مكون من عربة واحدة ، إنه القطار الذى يتسلق الجبال ، وله شهرة واسعة هنا ، خاصة عند السياح والأجانب .

فارقنا محطة بريتانى ، مدينة صغيرة ، مجلوة . بيوتها غير مرتفعة ، أنيقة ، تقع فى وادى ، إذ تحيط بها القمم المرتفعة من جميع الجهات ، الجبال المكسوة بالخضرة ، وتتناثر فوقها تجمعات من البيوت الصغيرة ، للهواء شفافية خاصة هنا . ربما لارتفاع المنطقة ، لكن ثمة شىء ما كان يذكرنى بالإسكندرية حيث تصفو الصفاء وتعمق الزرقعة ، سماء الاسكندرية تبدو واحدة بأفاق أبعد ، وشواطئ غير مرئية يمكن الوصول إليها يوماً ، إنه البحر ، والارض الرملية فى الأصل . والتاريخ الطويل .

لم يكن صعباً الاستدلال على معرض شاجال . فاللافتات معلقة فى كل مكان والأسهم تشير هنا وهناك إلى مكان المعرض الذى أقيم فى متحف المدينة .

المتحف مكان حديث الطراز ، كتل ضخمة من الأسمنت ، رأيته متنافراً مع طبيعة المباني القديمة فى المدينة الصغيرة الشفافة . كان الزحام شديداً ، طابور طويل من الرجال والأطفال والنساء جاءوا من سائر أنحاء سويسرا وربما من مسافات قصية ، ولكن دقة القطارات وسرعتها تجعل رحلة كهذه ميسورة . وكان المرء ينتقل من ضاحية إلى أخرى .

طابور طويل من جنود الجيش السويسرى ، شباب فى أعمار متقاربة ، يرتدون البزات العسكرية ، جاءوا أيضاً من أجل شاجال ، الأمر الايجابى هنا هو أنه لا توجد مدينة تستأثر بالنشاط الثقافى فى سويسرا ، فالمعارض الهامة تقام فى المدن الصغيرة أو الكبيرة على السواء ، والمؤتمرات الادبية أيضاً . ومن هنا يسرى النشاط فى معظم أوصال البلاد .

شاجال فنان عظيم ، واحد من أعظم رسامى القرن العشرين يهودى روسى ، ترك الإتحاد السوفيتى إلى الغرب ، عالمه غريب فيه رؤية الأطفال ، وكوابيس الشيوخ ، وتحسرر المخيلة وانفلاتها من عقلاها . اللوحات التى كانت معروضة هنا من مقتنيات متحف الارميتاج فى ليننجراد ، وتنتمى إلى العشرينيات ، ويبدو انه لم يكن مسموحا بعرضها فى الإتحاد السوفيتى ، وأظن ان هنا موقفاً ضد شاجال ، ربما لأسباب عنصرية أو أيديولوجية ، وأذكر ان الشاعر اليهودى يفتيشنكو أعلن على المسرح خلال فبراير ١٩٨٧ ، أثناء حضوري مؤتمر ضخم عقد تحت شعار «من أجل بقاء البشرية» كان ضد الأسلحة النووية ، ولكنه كان فى جوهره أول مؤتمر هائل الحجم من حيث عدد المشاركين ونوعياتهم . كان موجها إلى الغرب معلناً المنعطف الجديد فى سياسة الاتحاد السوفيتى الداخلية والخارجية . وبدء تصفية التجربة الاشتراكية الأم وما ترتب عليها . أذكر أن يفتشنكو أعلن عن البدء فى إعداد معرض خاص لشاجال كبادرة للإنفتاح ودليل على التقرب إلى الغرب .

لا شك ان شاجال فنان عظيم ، ولا شك أننى ضد اضطهاد أى فنان بسبب دينه أو عنصره أو معتقداته السياسية . لكن هذا الاهتمام أيضاً المكثف غير طبيعى . أن آلة الدعاية الغربية الجبارة غير نزيهة فى كل ما تقوم به ، وكثيراً ما يكون التركيز على فنان بعينه لأسباب سياسية أو عنصرية ، دينية أو عرقية ، والمشتغلون بالثقافة فى العالم العربى يلمسون هذه الحقيقة عند الاحتكاك بالغرب ، وهذا موضوع يطول الحديث فيه . أذكر أننى التقيت فى موسكو ذات أصيل هسادى بفنان أوزبكى ، لوحاته على درجة رائعة من الجمال والخصوصية أيضاً ، قابلته فى مرسمه الذى حصل عليه منذ أسابيع ، كان مكاناً فسيحاً يفيض بالضوء ، تبدو من خلاله مبانى موسكو المرتفعة . الشهيرة التى شيدت فى العصر الستالينى ، كان الفنان الأوزبكى يعيش فى ظروف حياتية سيئة جداً ، إلى أن تدخل اتحاد الفنانين وساعده فى الحصول

على هذا الرسم ، تحدثنا طويلاً عن الزمن ، والفن ، والعلاقات الإنسانية ، ولا أدري مسار الحديث الذى قال فيه :

«لو أننى كنت يهودياً لسعى اليهود لالاهتمام بى . وللحصول على لوحاتى ، والدعاية لها وتبنيها .. لو أننى كنت منهم لبحثوا عنى فى أقاصى اوزبكستان..»

أن اى مبالغة فى الدعاية لفنان أو أديب على أسس عنصرية تؤدى إلى نفس الموقع الخاطئ الذى كان فيه الآخرون يصادرون رواية أو يمنعون عرض لوحة لأسباب أيديولوجية أو سياسية أو عنصرية ، إن ذلك يولد الإحساس بالظلم عند المهوبين ، كما يعد خداعاً للناس ، أقول هذا وأنا لا أقصد شاجال بالتحديد ، فعندما أتوجه بنظري إلى لوحة ، أو كتاب . لا يعنينى دين المؤلف أو موقفه السياسى ، إنما ما يعنينى فى المقام الأول فنه وإنسانيته . فارقنا المعرض بعد حوالى أربع ساعات ، توقفت مطولاً أمام لوحات شاجال المبكرة ، ولوحاته التى رسمها بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، أى مرحلة الحرب العالمية الأولى والغريب أنه لا توج أصداً فى أعمال هذه الفترة للحرب ولا للأحداث المضطربة التى سادت الواقع الروسى وأدت إلى ثورة ١٩١٧ . ويبدو ان العالم الداخلى لشاجال كان يستغرقه إلى درجة كبرى ، الجذور الثقافية اليهودية ، رغبته فى الانطلاق ، معاناة الضغوط . لن أنسى أبداً لوحة ضخمة عدداً كبيراً من لوحات الجرافيك ، يبدو من خلالها منحنى كاريكاتيرى . واحساس قوى بالسخرية ، وحب شديد للحياة ، فى أحد أقسام المتحف اصطفت عربات قديمة تمثل تطور المراحل المختلفة لتطور صناعة السيارات منذ بداية القرن . قلت للدكتورة هيلارى ضاحكاً .

- برغم ثبات معرض السيارات واستمراره لكنه يكمل معرض شاجال بطريقة ما ..

وأما متبسة . وعندما نظر زوجها إلى ساعته قال إن الوقت أزف ، وإننا

لا بد من الاتجاه بسرعة إلى المحطة لنلق بالقطار . عندما خرجنا من المتحف كان طساير القادمين على نفس درجة الكثافة ، أطفال مدارس ينتظرون واحدا وراء الآخر ، أعداد أخرى من الجنود ، لكن .. لم يكن هناك وقت للتأمل . قطعنا المدينة بخطى سريعة متجهين إلى المحطة، كنت أتذكر حكمة أجدادى القدماء ،
- انتظر القطار فان القطارات لن تنتظرك ..



السبت :

.. حتى الساعة الرابعة أعتبر نفسى حراً .
إنه اليوم الوحيد الذى يخلو فيه البرنامج الدقيق من لقاء أو محاضرة لعدة ساعات .

هل أبقى فى لوزان ؟

أخشى مضى الوقت ، وملازمتى الفندق ، أمامى فرصة لأزور معرض لبروجل العظيم فى جنيف ، لقد قاموا بتجميع كافة اللوحات التى رسمها بالأبيض والأسود من متاحف العالم المختلفة ، ولدة شهر سوف تعرض هذه اللوحات فى المعرض الكبير القريب من مطار جنيف الدولى . هل من المعقول أن أكون فى سويسرا ، وأن يكون هناك معرض يضم أعمال بروجل ولا أزوره ؟

تلك فرصتى إذن ..

بروجل ، إنه الفنان الذى اهتم به اهتماماً شديداً ، إنه الأقرب إلىّ ، لا أجد كتاباً عنه إلا واسارح باقتنائه إلى درجة أننى أمتلك كتابين الأول بالمجرية التى لا أعرف عنها حرفاً ، ولكنه يضم لوحات نادرة طبعت بشكل جيد ، وعندى أيضاً كتاب آخر بالبولندية . وثالث بالبلغارية ، وكتاب عن لوحة واحدة فقط هى «برج بابل» بالألمانية ، والعديد من الكتب باللغتين الانجليزية والفرنسية .

إضافة إلى مستنسخات اقتنيته خلال رحلاتي إلى أوروبا ، من باريس ، من بودابست ، أننى دائم التأمل فى عالمه ، فى قدرته الفذة على خلق عالم خاص ، عالم فيه أدق عناصر الواقع ، ولكن أعيد تشكيلها وفقاً لرؤيته هو . لوحاته تعكس نظرة شاملة وخصبة للحياة ، وقدره فذة على الإلمام بعناصرها اليومية والتعبير عن جوهر الإنسان .

بيتر بروجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، والذى نبهنى صديق إليه عندما أشار إلى أوجه تشابه بين شخصيات لوحاته وبين شخصيات وعالم روايتى «وقائع حارة الزعفرانى» ، لم أكن رأيت لوحة واحدة له حتى ذلك الحين ، ولكننى بدأت أهتم به . وأبحث عن لوحاته ، حتى وقفت ذات يوم فى متحف الفنون الجميلة ببودابست أمام لوحتين أصليتين لبروجل ، الأولى عن صلب المسيح ولكن من وجهة نظر بروجل الواقعية الخاصة جداً ، والثانية ليوحنا المعمدان وهو يخطب فى الناس ، والغريب أن لوحة صلب المسيح لم أجد لها صورة واحدة فى العديد من الكتب التى اقتنيته عن بروجل ،

تعلقت به ، واعتبرته مع تولوز لوتريك من أصدقائى الحميمين . أسعى دائماً إلى أعمالهما . واقتنى ما كتب عنهما ، وأفضل المستنسخات عن لوحاتهم .

إنن .. لا بد من الذهاب إلى جنيف . ومما شجعنى انتظام ودقة القطارات . وسهولة التعامل معها . الفندق يقع على بعد حوالى مائة متر من المحطة الرئيسية لمدينة لوزان .

تذكرت عندما وصلتها من جنيف أول أمس متأخراً ، كانت الساعة حوالى الحادية عشر والنصف ، وبرغم الحاج الدكتورة هيلارى على انتطارى فى المحطة ولكننى رفضت ، فالوقت متأخر ، وأنا حريص على ألا أزعج أصدقائى .

نزلت لوزان ليلاً ، حاملاً حقائيتى التى تضم أغراضى كافة ، وحقية يد

أخرى أصغر فيها كتبى وأوراقى ، أما جواز سفرى وتقودى فاحتفظ بهما فى جيب سحيق تحت قميصى . فى مثل هذه اللحظات يصل شعورى بالوحدة والضياح إلى ذروته . مدينة غربية أبلفها لأول مرة ، لا أعرف شوارعها أو علاماتها المميزة ، كل ما أنا مزود به عنوان فندق أجهل موقعه ، طبقاً للبرنامج محجوز لى غرفة فيه . وعلى الرغم من أن هيلارى قالت لى فى الهاتف إن الفندق قريب جداً من المحطة ، إلا أننى أحرص دائماً على إنهاء وضع الغربة هذا ، اتجهت إلى التاكسى ، قلت باختصار ..

— فندق الفا ..

كان السائق مرحاً ، سألتنى عن مصر ، وعن رغبته فى السفر إليها ، وبعد دقائق لاحظت أننا نرجع فى شارع مواز للشارع الذى انطلقنا منه ، توقفت السيارة فى شارع منحدر أمام الفندق ، فى الصباح وعندما خرجت لأمشى قليلاً قبل الافطار اكتشفت أن محطة السكك الحديدية على مرأى البصر ، يبدو مبناها من أمام الفندق فى نهاية الطريق المنحدر ، ابتسمت ، حقاً .. إن الغريب أعمى ولو كان مبصراً .



بمجرد ركوبى القطار ، اختياري للمقعد الذى سوف أجلس إليه يبدأ إدراكى على الفور للسفر ، إحساس خاص بالرحيل ، ببدا السعى ، لا يواتينى مثله عند دخولى الطائرة ، مع أنها وسيلة انتقال أسرع ، ربما لأن القطارات تمرق فى سفرها عبر المدن والقرى والجسور والانفاق الجبلية تمر القطارات خلال عالم أرضى محسوس ، ولذلك يتجسد الرحيل أكثر ، أما الطائرات فتتمرق عبر فراغات وقضاءات علًا ، وإذا ذكر الطيار اسم موضع تحلق فوقه فإنه مجرد وهم ، رمز ، علامة ، لكننا لا نرى ولا نتحقق ولا نقف على التفاصيل.

والقطارات السويسرية بانضباطها الشديد ، باتساع فراغاتها ونوافذها ،

وجمال الأماكن التي تعبرها تزيد الإحساس بالسفر وسهولة في الوقت نفسه .
كما أنها تلغى المسافة إلى حد ما .

في برن ، في مساء اليوم الأول لوصولي . مضيت إلى منزل السفير المصري ،
الذي علم بوصولي فطلب من مؤسسة بروهيلفتيا الداعية إدراج موعد لتناول
العشاء معه . وصلت سيارة السفير إلى الفندق ، يقودها سائق نوبى مخضرم ،
من العاملين القدامى بوزارة الداخلية ، في الطريق مررنا بالأحياء الراقية من
برن ، برن العاصمة السياسية لسويسرا ، ذات حضور تاريخي قوى ، ولكنه
تاريخ النبلاء والملوك ، القصور الضخمة ، المباني العتيقة .

في الظهر استقبلنى صديقى هارتموت فنديرش على رصيف المحطة ، كانت
المرّة الأولى التي نلتقى فيها منذ وصولي إلى سويسرا . قال لى إن الفندق قريب .
مشيت إلى جواره نحمل حقائبى . وبعد أن تكرر موقف تسجيل اسمى في
استمارة الوصول ، وتدوينى تاريخ ميلادى ، رقم جوازى ، عنوانى ، المدة التي
سوف أمكثها ، خرجت بصحبته إلى مطعم أنيق . كانت زوجته في انتظارنا ،
سيدة لطيفة ، حدثنى عنها هارتموت ، تعمل محامية ، أثناء تناولنا الغداء
حدثتنا عن إحدى عميلاتها اتصلت بها صباح اليوم وأخبرتها أنها اشترت
مسدساً . وسوف تقتل زوجها كان الموقف غريباً ، وتحدثت زوجة هارتموت
عن محاولتها اقناع السيدة بالعدول عن فكرتها . ولكن يبدو أنها مصممة ،
موقف غريب كنت أفكر فيه بعقلية الروائى وكانت تتحدث عنه بهدوء
قانونى !

مشيت مع هارتموت عبر شوارع برن المغطاة ، أقواس متتابعة ، ذكرتني
بشارع ريفولى في باريس ، وشارك محمد على الذى بنى في القرن التاسع عشر
على نمط شارع ريفولى . ولكن الأقواس السويسرية في برن ذات تكوين خاص ،
كان ثمة شيء ما فيها يذكرنى بmeden المغرب وتونس ، شيء ما يستعصى على
الرصد ، أقرب إلى الشعور منه إلى الوعى . ولكن بمجرد الخروج من هذه

المرات المغطاة تفاجأ بالحضور القوي للمباني الحكومية الاتحادية ..
قلت للسائق النوبى إننى صديق لسفير مصرى جاء إلى برن في بداية
السبعينيات ، ودعانى لزيارته ، لكننى لم ألب الدعوة وقتئذ ، إنه حسين ذو
الفقار صبرى الطيار القديم ، والثائر ضد الملكية . والأديب ذو الأسلوب
الخاص . لن أنسى أبداً كتابه «يانفس لا تراعى» الذى صدر بعد هزيمة يونيو
١٩٦٧ .

بعد عشرين سنة من دعوته أجيء إلى برن وأسعى هذه المرة للقاء سفير
آخر أراه لأول مرة ، ولكن تربطنى به صلة روحية قوية ، أنه ممدوح عبد
الرازق ، ابن الشيخ مصطفى عبد الرزاق . الفكر الإسلامى العظيم ، وأستاذ
الفلسفة البارز ، وشيخ الأزهر . منذ سنوات أعددت صفحة خاصة من أخبار
الادب التى أشرف عليها عنه ، وذلك لأذكر الجيل الجديد بدوره الفكرى
المستتر في حياتنا الثقافية والفكرية .

الأصدقاء السويسريون مثل هارتموت فندريش ، قالوا لى إن والده كان
أستاذاً لنجيب محفوظ . هكذا يعرفونه هنا ، إذ كان نجيب محفوظ تلميذاً
في قسم الفلسفة في بداية الثلاثينيات عندما كان الشيخ أحد أساتذته .

كان موعد العشاء في الثامنة ، ولكن خلال اتصالى بالسفير اقترح أن أحضر
في الساعة حتى يمكننا تبادل الحديث بشكل خاص . كان العشاء سيضم أيضاً
عدد من أعضاء السفارة المصرية ، وأصدقاء سويسريين ، وصلت إلى المبنى
الأنيق ، داخله يفيض بالذوق ، الجدران مغطاة بلوحات رائعة من الفن
التشكيلى المصرى . السفير شخصية قوية الحضور ، والملاح ، أهم ملامحه
شارب كث كثيف ، مرح التكوين ولكنه كان يخفى المأ عميقاً ، إذ توفيت زوجته
منذ شهور قريبة ، قال انه حرص على دفنها في قرية (أبرجرج) بمحافظة
اسيوط ، أنها بلدته ، يحرص على زيارتها ، هناك الأقارب ، ومرقد والده
وأقاربه أيضاً . كانت زوجته ابنة عمه الشيخ علي عبدالرازق صاحب الكتاب

الشهير الذى اثار ضجة كبرى خلال العشرينيات ، «الاسلام وأصول الحكم» .

تحدثنا عن الماضى ، وعن الفكر المصرى ، وعن الصعيد ، عن (ابو جرج) وعن جهينة مسقط رأسى ، وعن الحاضر .

فى الثامنة بدأ المدعون يقدون ، فوجئت بالسيدة أنتونيا كاسوت وزميل لها من بروهيلفنيا ، سألتها أين سيقضيان الليلة فى برن ؟ قالت السيدة كاسوت انهما سيعودان إلى زيوريخ الليلة . مسافة تعادل المسافة بين القاهرة والإسكندرية ومع ذلك يمكن للمرء أن يخرج مرتدياً ثياب السهرة .

وأن يركب لمدة ساعة ، ويتناول العشاء ، ثم يرجع فى نفس الليلة ، وينام فى داره ، والفضل يرجع إلى دقة ، وراحة ، وانضباط .. القطارات السويسرية .



عندما عدت إلى برن فى المرة التالية ، نزلت نفس الفندق ، فندق بارن أو الدب ، ولكن ، فى غرفة مختلفة ، لم أفرد محتويات حقيبتي ، إنما هى ليلة وغدا صباحاً سوف أتجه إلى ألمانيا الغربية .

فى السادسة مساء خرجت بمفردى متجهاً إلى بيت هارتموت فندريش ، كنت مزوداً بعنوانه فقط . ركبت عربة أجرة ، خرجت من المدينة ، للخضرة هنا رواء عجيب ، خضرة مصقولة ، مشذبة ، مهذبة . بعد حوالى خمس عشر دقيقة توقفت السيارة أمام مدخل عمارة ضخمة على الطراز الحديث . منطقة متكاملة ، لا وجود للمباني التاريخية أو القدم هنا . مباني ضخمة متشابهة . تذكرنى بالمساكن الشعبية فى القاهرة ، ولكن هذه مساكن شعبية سويسرية ، أضخم ، أكثر ارتفاعاً ، شقق من طابقين ، مثل بيت صغير ، لكن الخرسانة الضخمة ، ولونها الرمادى ، والخطوط الصارمة تقف ما بينى وبين هذا النوع من البناء الحديث .

فوجئ هارتموت فنديرش بى أقف أمام الباب بعد أن ضغطت الجرس ، إذ أننى لم أضغط الهاتف الداخلى للمبنى والسبب هو أننى دخلت من الباب الرئيسى مع إحدى السيدات ، وفي المصعد سألتها عن شقة السيد هارتموت فنديرش ، أبدت حماساً لمساعدتى وصحبتنى حتى باب الشقة .

يبدو السويسريون متحفظون جداً من الخارج ، منضبطون تماماً ، يميلون إلى العزلة ، ولكن إذا طرقت عالمهم الداخلى سوف تجدهم قوماً لطافاً جداً ، يبدون ودأً فياضاً ، ما من مرة سألت فيها عن عنوان ما في الطريق إلا ولاقيت مساعدة حقيقية . لم أقابل بتجهم أو رفض مبطن . لكننى مجرد عابر . ولا أعرف كيف يكون الأمر إذا ما اتصلت العلاقة واستمرت .

كنت أول الواصلين إلى بيت فنديرش ، قبل وصول الآخرين المدعوين للعشاء على شرفى . يتكون البيت من طابقين ، في الأول صالة استقبال ومكتب زوجته الذى تمارس من خلاله عمل المحاماة . في الطابق الثانى مكتب فنديرش ، البيت كله مدمج بالكتب ، وفي كل مكان تحفه من الشرق ، إما سجادة ، أو أنية من خزف ، أو صندوق مطعم ، أو نسيج إيران دقيق . أو مشربية خشبية كاملة من خان الخليلي ، أرفف مكتبته تضم المصادر الرئيسية في الأدب العربى ، عرفت هارتموت في منتصف الثمانينيات ، وهو عالم بمعنى الكلمة ، دقيق جداً ، بل صارم الدقة ، يتمتع بروح مرحة رغم جديته الشديدة ، ترجم لى (الزنى بركات) وعدداً من القصص القصيرة ، لكنه ترجم عدداً كبيراً من الروايات والقصص العربية ، بدأ بترجمة نماذج من أدب الشهيد الفلسطينى غسان كنفنانى ، وإليه الفضل في معرفة الأدب العربى خاصة في سويسرا الناطقة بالألمانية . وفي ألمانيا الغربية . أنه أستاذ للأدب العربى في الجامعات السويسرية ، حصل على الدكتوراه من امريكا ، وكان موضوعها دراسة لفن ترجمة الشخصيات في كتاب «وقيات الاعيان» لابن خلكان ..

أشرت بأصبعى إلى المجلدات الثمانية فوق الرف ، قلت :

– كان لك الفضل في تنبيهي إلى أهمية وتفرد طريقة تقديم الشخصية عند ابن خلكان ..

فابتسم وأشار بدوره إلى كتاب (منامات الوهراني) الذي حقق وطبع في مصر خلال الستينيات .

– وانت نبهتني إلى تفرد وأهمية هذا المؤلف الفريد ..

ترجم فندريش عدداً من ترجمات (وفيان الأعيان) وصدرت في كتاب بالالمانية عنوانه «أبناء الزمان» ، كما حقق وترجم نصوصاً طبية نادرة للأطباء العرب . إلى جانب ترجماته للآدب العربى الحديث . شاركت معه في مؤتمرات عديدة ، مؤتمر انترليت في ألمانيا الغربية عام ١٩٨٨ ، ومؤتمر الآدب العربى في برلين عام ١٩٨٨ . وندوة الرواية العربية في باريس ، وخلال زيارتي تلك في المهرجان السنوى للآدب السويسرى الذى عقد في سولوتورن .

دعنا فندريش إلى العشاء بعض تلاميذه في الجامعة من دارسى الآدب العربى ، والدكتور بيورجل أستاذ الآدب العربى بجامعة برن . والدكتور ادوارد بدين الفلسطينى الأصل والذى لاقيته في بازل حيث يعيش ويعمل بالجامعة ، كان بين التلاميذ انتيا مولر ، تلميذة فندريش ، وتسكن زيوريخ ، كانت راجعة من الكويت التو ، حيث عملت لفترة في الصليب الأحمر ، ك مترجمة ، وعندما سألتها عن الأوضاع هناك اعتذرت بحزم ، فالعاملون في الصليب الأحمر يجب أن يحتفظوا بما سمعوه أو شاهدوه .

في هذه الليلة تناولنا عشاءً سويسرياً تقليدياً ، خضروات طازجة ، وأنواع فاخرة متنوعة من الجبن ، والخبز ، والبطاطس المسلوقة . كانت أنغام عربية تتردد في خلفية المكان ، موسيقى أندلسية الأصل ما تال تعزف في مديد ، حوالى الحادية عشر تأهبنا للانصراف . صحبني أحد تلاميذ فندريش إلى الفندق ، يعمل في وزارة الدفاع مترجماً ، وبالطبع سرعان ما يلتزم الصمت عند الحديث في الأمور العامة . إنه هو صاحب ذلك الجواب الحاد القاطع عندما سألته دكتور

بيورجل عن رئيسه فقال له بحزم إنه لن يذكر اسمه ، وحتى لو ذكره فان ذلك غير مفيد له ، لأن لا يعرفه .

انيتا مولر اتجهت مع ادوارد بدين إلى المحطة الرئيسية ، هي إلى زيوريخ .
وهو إلى بازل ، أبعد قليلاً .. الوقت متأخر ؟
لا يهم ، فالقطارات السويسرية تعمل طوال الليل ..

* * *

الاثنين

بعد أن تناولت إفاطاري في الفندق قرأت مرة أخرى البرنامج .

الثامنة وخمسون دقيقة : الرحيل من برن

العاشرة : الوصول إلى بازل ، تغيير القطار .

العاشرة و ١٧ دقيقة : الرحيل من بازل ، رصيف رقم ٨

العاشرة و ٥٦ دقيقة : الوصول إلى فرايبورج بألمانيا الغربية .

الساعة ١٢ : محاضرة في جامعة فرايبورج .

هذا هو برنامجي اليوم ، مرة أخرى أقف أمام مكتب الاستعلامات في فندق بارن (الدب) لأنهي إجراءات إقامتي . أثناء تناول الإفطار لاحظت اثنين ملامحهما عربية ، كانا يتناولان طعام الإفطار صامتين ، كان أحدهما يبدو أهم من الآخر . لم نتبادل كلمة ، لكنني عندما وجدتهما قد انتقلا للجلوس قرب المدخل .

– صباح الخير

قاما ليردا التحية ، سألتهما عن بلدهما ، قال الأكثر أهمية .

– من ليبيا ..

ابتسمت مرحباً ، وقلت انني من مصر ، فقال ..

– واضح طبعاً ..

انحنيت لأمسك بحقيبتى ، عندئذ قال الرجل الذى يبدو أقل أهمية .

- بالتوفيق إن شاء الله .

أحنيت رأسى .

- السلام عليكم ..

مضيت متأثراً هذا رجل من بنى قومي ، لا يعرفنى شخصياً ، ولم يلتق بى ،
ولن يلتقى بى فى الأغلب ، لا يعلم عنى شيئاً . ومع ذلك ينطق بلهجة طيبة
متمنياً لى التوفيق ، حقاً .. ما أجمل الإنسانية ، لقد تخللت هذه العبارة
يومي كله .

* * *

الاثنين : الثامنة وخمسون دقيقة :

الجو ضبابى . يبح القطار فى بحر من الضباب كاللبن الأبيض يختلط باللون
الأخضر للأشجار والأعشاب . يخرج من برن ، لن أنسى أبداً هذه القنطرة أو
ذلك الجسر الحديدى الهائل الذى يقوم فوق هوة هائلة يجرى فى قاعها نهر ،
جسر يعد من معالم برن ، رأيته من بعيد عندما صحبنى الصديق فندريش ،
ولكن المرور فوقه بالقطار ، والتطلع إلى الفراغ أمر مثير ، وما من شئ فى
السفر يثير عندى الحنين مثل عبور القناطر والجسور خاصة تلك المحتفظة
بطابع القدم والعناقة ، الجسر يعنى همزة الوصل بين عالمين ، بين صفتين ،
يعنى الاستئناف ، الاستمرار ، المضى إلى الأمام .

من برن إلى بازل ، طريق شديد الخضرة . يمر بمناطق ريفية ومدن صغيرة
مغطاة بضباب وكلما مضى القطار . انطوى الوقت . وخف الضباب قليلاً .

استعيد بعضاً من ملاح رحلتى ، اليوم أمضيت حوالى عشرة أيام ، أصبح
جزءاً من تراثى مرتبطاً بالمكان ، فى القطار أستعيد التفاصيل على مهل ، بينما
تمضى العربات مشدودة إلى بعضها ، كالأيام ، كالساعات ، كالثوانى ، وأحياناً
ترتجف إذ تعبر فواصل ما بين القضبان ، هذه الارتجفات التى تنبهك إلى أن
الطريق لا يمضى مستوياً تماماً ، وأن ما تطويه منه لا يتكرر .

الجمعة الماضى ، ركبت القطار لأول مرة فى رحلتى بدون البرنامج ، كنت أمتلك - كما ذكرت - حوالى ثمانية ساعات خلت من برنامج محدد ، كان ذلك فى لوزان ، قررت أن أذهب إلى جنيف لأشاهد لوحات بروجل وأعود قبل الثالثة ظهراً .

تحركت فى التاسعة والنصف ، ركبت القطار الذى خلا تقريباً من الركاب ، كنت سعيداً لأننى أقوم برحلة خارج النظام الصارم لبرنامج زيارتى . نزلت محطة المطار ، لم أبذل جهداً كبيراً فى الاستفسار عن مكان أرض المعارض التى ذكرتنى إلى حد ما بمعرض مدينة نصر فى القاهرة ، ولكن المكان كله هنا مغطى ، والقاعات عديدة .

مضيت لرؤية لوحات بروجل ، وعندى تلك الرهبة التى تنتابنى كلما تأمبت لرؤية لوحات أصلية لفنانين عظام رحلوا ، اللوحات المعروضة كلها بالأبيض والأسود ، على مهل شديد مررت بالمعروض متوقفاً أمام كل منها ، متأملاً ، متفحصاً ، لقد أحضرت هذه اللوحات من معارض ومتاحف عديدة فى كافة أنحاء العالم ، فرصة نادرة لن تتكرر بالنسبة لى ، كما أن فكرة تجميع أعمال فنان واحد من مختلف أنحاء العالم من أنبل الأنشطة الثقافية . وخلال رحلتى السويسرية رأيت ثلاثة معارض هامة .

● معرض أعمال مارك شاجال فى بريتانى

● معرض أعمال بروجل فى جنيف .

● معرض أعمال مودليانى فى زيوريخ .

بالنسبة لى كانت لوحات بروجل أهم ما توقفت عنده للعلاقة الطويلة الوثيقة التى تربطنى بالفنان العظيم ، كان عدد الزائرين أقل بكثير من زوار معرض شاجال اومودليانى ، أتاح لى ذلك فرصة متأنية لرؤية أعمال هذا الفنان العظيم ، ثلاث ساعات كاملة توقفت خلالها مطولاً ، تأملت واقتربت وخلعت نظارتى الطبية لأحديق متمهلاً ، وعندما حانت الساعة التى يجب أن

أمضى فيها ، تراجعت بظهري مودعاً المكان كله فتلك لوحات لن اراها بعد ذلك إلا في الكتب .

خرجت إلى الفراغ السويسري الرحب المحيط بالمطار ، كانت الطائرات تقلع بانتظام مبددة الهدوء ، وكنت أمضى عائدًا إلى محطة القطارات مشبعًا بفن بروجل ، وقد ظهر عندي أفق جديد !

قبل الثالثة بقائق ، توقف القطار في محطة لوزان ، لم احتج إلى ركوب تاكسي هذه المرة ، الآن .. أعرف الطريق ، إلى الفندق .

ويمضى القطار إلى بازل ، في المرة الأولى وصلت إليها من زيوريخ . وهذه المرة أجيئها من برن .

أغفر قليلاً .. تختلط على الصور والأفكار ، يخيّل لي أنني أستمع إلى صوت الصحفي الكبير محمد حسنين هيك ، لماذا هيك بالذات ؟ لا أدري منطلقاً محدداً بحكم قانون التداعي عندما ينتقل العقل من اليقظة إلى النوم .

أفئق لأجد القطار يهدئ من سرعته ، يدخل إلى محطة بازل المسقوفة بغطاء حديدي ضخم. أنزل من القطار ، الآن أعرف ملامح المكان إلى حد ما ، الأرضية العديدة المتجاورة ، القطارات المنتظرة وتلك الموشكة على الرحيل ، مفاجأة سارة بالنسبة لي .

جميل عطية يقف فوق الرصيف متطلعاً ، باحثاً عنى ..

يعرف أنني سوف أصل في العاشرة ، وأنتى سوف أمضى سبعة عشر دقيقة ، فارق الوقت بين وصول القطار من برن ، وتحركه إلى ألمانيا الغربية . تأثرت حقاً ، فالوقت مبكر ، ومنزله بعيد نسبياً ومع ذلك جاء من أجل هذه الدقائق القليلة . في مثل هذه المواقف أخفى تأثري الشديد بالحديث بصوت مرتفع وفي موضوعات أخرى . بسرعة اتجهنا إلى خزانات حفظ الحقائق في المحطة ، وضعت حقيبتى الكبيرة وأغلقت الباب الضخم بعد أن وضعت فرنكين سويسريين معدنيين ، من حقى إذن الاحتفاظ بالحقيبة لمدة أربع وعشرين

ساعة ، المفروض أن أصل غداً إلى نفس المحطة في التاسعة وثلاثة وأربعين دقيقة . ولم أكن قلقاً ، فالقطارات السويسرية أثبتت لي دقتها الصارمة ، حملت حقيبة جلدية صممته في القاهرة خصيصاً لأضع فيها الكتب عند سفري بالطائرة وأحملها في يدي ، إذ أن أثقل الأشياء هي الكتب ، خاصة عند السفر ، في الحقيبة وضعت ما احتاجه لمدة ليلة واحدة ، غيار داخلي ، فوطه وجه . عدة حلاقة . مصحف ، ديوان الحماسة للبحرئى الذى صحبتته معى لأقرأه . وترجمة عربية لمنطق الطير ، كتاب فريد الدين العطار .

لا أطمئن خلال ترحالى إلا بصحبة أكثر من كتاب للقراءة ، خوفاً من انتهائى فجأة من قراءة كتاب واحد فأجد نفسى في فراغ ، مع أننى خلال السفر قد لا أجد الوقت الكافى لاتمام كتاب ، ولكن لا تكتمل الفتى ويتم أطمئنانى إلا برفقة عدد من المؤلفات الحميمة إلى قلبى . كنت أصحب أيضاً ستة نسخ من الترجمة الألمانية لروايتى (الزينة بركات) . مرسلة إلى الدكتور أسعد خير الله أستاذ الأدب العربى في جامعة فرايبورج ليوزعهم على الطلبة ، حتى تحرك القطار لم أكف عن تبادل الحوار مع جميل عطية ، أغلق الباب ، لوحث له بيدي ، واتجهت إلى الداخل ، حيث جلست في مقصورة بها شاب كثيف الشارب ، لا أعرف جنسيته ، احتفظت بصمتى ورحت أتأمل الأماكن التى نمرق خلالها.



القطار المائى ، متجه إلى نقطة أبعد في المانيا الغربية . لم أسأل عنها ، وعلى الرغم من قصر المسافة بين بازل وفرايبورج أربعين دقيقة فقط ، فإن مجرد الإحساس بالانتقال من دولة إلى أخرى يضيف بعداً جديداً للسفر . أنها المرة الأولى التى أنتقل فيها من بلد إلى بلد بالقطار . استفسرت من أصدقائى عن الطريقة التى يتم بها مراجعة الجوازات . وهل هناك حدود يقف عندها القطار ؟

القطار بين سويسرا وألمانيا لا يتوقف عند نقطة محدودة تمثل الحدود ، انه يمضى بنفس السرعة . ويمر رجال الشرطة داخل القطار نفسه لمراجعة التأشيرات .

لم تمض دقائق إلا رأيت رجل الشرطة الألماني في زيه الأخضر يقف بباب المقصورة ، كان مسلحاً برشاش قصير ، فتاك المظهر ، وجهاز لاسلكى صغير للاتصال . تطلع إلى . وقدمت إليه جواز سفرى على الفور ، راح يقلبه بعناية وبين الحين والآخر يتطلع إلى . علمتنى تجربة السفر إلا اهتز ولو لثانية ، إلا يختلج لى طرف أمام رجال البوليس والجوازات فى أى مطار أو ميناء ، طالمأ أننى لا أحمل أى ممنوعات ، وأوراقى سليمة تماماً . كنت مهياً أيضاً لأى سخافات ، فكثيراً ما سمعت خلال الفترة الأخيرة عن مضايقات تعرض لها مصريون أو عرب خاصة بعد حرب الخليج .

- هل لديك شىء يب الاعلان عنه ؟

- لا

- أين حقائبك ؟

أشرت إلى حقيبتي الصغيرة ..

- أفتحها

فتحتها .

راح يقلب محتوياتها بعناية ، أشار إلى النسخ الست من الزينى بركات .

- هل تتاجر فى الكتب ؟

- وهل الكتب ممنوعة ؟

- لكنك تحمل ستة نسخ من كتاب واحد ..

امسكت بنسخة من الترجمة الألمانية ، فتحت المجلد على الصفحة الأخيرة .

حيث صورتي والتعريف بالمؤلف .

تطلع إلى الصورة بعناية ، وبسرعة تغيرت ملامحه :

.. أهلاً بك في ألمانيا ..

وضعت جواز سفرى في جيبي ، وعدت أتطلع من النافذة ، كان القطار يتمهل قليلاً . انها فرايبورج ..

* * *

فرايبورج ..

على الرغم من أننا لم نلتق من قبل ، لكننى تعرفت فوراً على الدكتور أسعد خير الله الذى كان ينتظرني فوق الرصيف ، على الفور شعرت أننى استأنف الحديث معه ولا أبدأه . فكاننا نعرف بعضنا منذ سنوات ، أنه أستاذ للأدب العربى والإسلامى في جامعة فرايبورج ، ثالث أقدم جامعة في ألمانيا الغربية بعد جامعتى هايدلبرج وتيومبختن ، هنا درس الفيلسوفان لألمانيا ، هايدجر وفوسر .

ومنذ سنوات طويلة يعيش أسعد مع أسرته هنا ، يدرس الأدب العربى ، والإسلاميات ، يتقن الفارسية أيضاً ، وكما شعرت بالآلفة بسرعة تجاهه ، سرعان ما شعرت بالآفة أخرى تجاه المدينة . والمدن فيها شىء غامض تماماً كالبشر يجعلك تقبلها بسرعة أو تنفر منها ، وحتى أكون دقيقاً أقول إننى أحيت فرايبورج ، ولكم تمنيت أن أقضى وقتاً أطول بها .

ثمة شىء ما ذكرنى بمدينة فاس المغربية رغم اختلاف الطابع بينهما ، فرايبورج مدينة أوروبية ، ألمانية جداً ، قديمة ، وفاس مدينة ، عربية ، عريقة ، ربما القدم هو ما جمع بينهما ، وكذلك قنوات المياه . في فاس يتدفق الماء عبر قنوات صغيرة بحذاء الطرق الضيقة وكذلك فرايبورج ، حركة دائمة لا تتوقف في القنوات الضيقة تضى حيوية وطابعاً خاصاً .

في الجامعة القيت محاضرة عن عناصر الاستمرارية في الثقافة المصرية ، وقرأت قصتى «الثلاثون من فبراير» التى ترجمها هارتموت فندريش إلى الألمانية منذ سنوات ، ثم جرت مناقشة مفتوحة مع الطلبة والأساتذة الذين

جلسوا في مقاعد الطلبة ، محاور عديدة تضمنت الأدب العربى وخصوصيته ، وحرب الخليج ، والتاريخ المملوكى لمصر ، كان بين الحاضرين أستاذ كبير سررت جداً للتعرف عليه ، البروفيسور أولريش هارمان ، متخصص في التاريخ المملوكى لمصر ، وفي المساء ، في بيت الدكتور أسعد خير الله جرى حوار خصب بينى وبينه ، لم يكن مجرد دارس للتاريخ المملوكى ولكنه عاشق له أيضاً ، حقق عدداً هاماً من مصادره ، أخبرنى عن كتاب قديم حول الأهرامات يعمل في تحقيقه الآن ، وسوف يطبع قريباً ، زوجته تتقن العربية ، عاشت في مصر سنوات من عمرها ، سكنت المناطق الشعبية وتجيد الحديث باللغة العامية، متخصصة في المجتمع المصرى .

في ساعة متأخرة عدت إلى الفندق الصغير . القديم ، الذى حووظ على أصالته، آويت إلى غرفتى الصغيرة المطلة على طريق ضيق ميلط بالحجارة ، وكنت أصغى إلى خرير الماء المتدفق في الطريق عبر القناة الصغيرة .



الثلاثاء

استيقظت مبكراً . خرجت لأجول في الشوارع المحيطة بالفندق حتى أتزود بأقصى قدر من زوايا المدينة لذاكرتى ، هذه أرض ربما لن أبْلِغها مرة أخرى . بعد تناولى الإفطار اتجهت إلى محطة القطار ، لحقنى الدكتور أسعد الذى أصر على أن يصحبنى حتى آخر لحظائى في فرايبورج . وقفنا على الرصيف ، القطار قادم من هامبورج . أقصى الشمال . متجه إلى روما ، موعدة التاسعة ودقيقة واحدة .

التاسعة ودقيقة

التاسعة ودقيقتان .

التاسعة وثلاث دقائق .

لم يأت القطار . كنت متحفظاً وقلقاً . تحفزى لأننى لأول مرة اضبط

القطارات السويسرية متأخرة ، وقلقى لأننى لن أقضى إلا حوالى عشر دقائق فى محطة بازل حيث يجب أن آخذ حقيبتى التى حفظتها هناك ، ثم اتجه مسرعاً إلى القطار السويسرى الذى سيتحرك فى التاسعة وثلاثة وأربعين دقيقة إلى زيوريخ . احتاج إلى الدقة الصارمة هنا ، ولكن القطار تأخر خمس دقائق .

ودعت الدكتور أسعد وداعاً حاراً . جلست على المقعد متأهباً لرجال الجوازات ، ربما يكون الموقف أصعب ، بسبب قيود الهجرة والتدقيق الشديد الذى تفرضه سويسرا على دخول الأجانب إليها .

الغريب .. أننى لم يسألنى أحد عن الجواز أو التأشيرة حتى دخول القطار إلى مدينة بازل ، تطلعت إلى الساعة ، وصل القطار متأخراً دقيقتين ، إذن .. لا بد من إسراعى إلى الحقيبة . إلى القطار الآخر . لأول مرة يتأخر قطار أركبه هنا ، صحيح أنه تأخير دقيقتين . لكنه خلل بالدقة التى أعجبت بها ولفتت نظرى .

عندما اقترب القطار من محطة بازل أعلنت سيدة فى الإذاعة الداخلية عن وصول القطار إلى بازل السويسرية ، كانت تتحدث الإيطالية .

سألت جارى الذى كان يقرأ أوراقاً فيها جداول وعلامات شتى ،

– هل يتجه القطار إلى روما ؟

أوما برأسه مجيباً

– نعم ..

– هل القطار سويسرى ؟

قال

– لا .. إنه إيطالى ..

وكان على أن أسرع ، للاحق بالقطار السويسرى الذى سيتحرك فى التاسعة وستة وخمسين دقيقة من الرصيف رقم ٦ .

* * *

وجوه من الرحلة

ثابت

صباح السبت . أول أيام الاسبوع الذي سوف أسافر في نهايته إلى سويسرا، ينتظرني يوم مشحون بالعمل ، أزحت الستائر لتمتلئ بالضوء . يرن جرس الهاتف ، أرفع السماعة ، أصغى إلى تلك الأصوات الغامضة المصاحبة للمكالمات القادمة من الخارج .

قال محدثي أن اسمه ثابت . وأنه يعيش في زيوريخ ، علم بقدومي في زيارة ، يرغب في مقابلتي ، وترتيب زيارة إلى الجامعة .

قلت له اننى مرتبط ببرنامج أعدته لى مؤسسة بروهلفثيا ، والاستاذ هارتموت فندريش . وأرجو منه الاتصال به ، ليتفق معه ، حتى لا تتعارض المواعيد ببعضها .

صمت لحظة ، وقال إن علاقته ليست على ما يرام بالاستاذ فندريش، وإنه اتصل بعدة شخصيات ترغب في لقائي . كررت ما قلته عن البرنامج المحدد الموضوع . لاحظت أنه يتكلم متمهلاً ، عكس حرص على إنهاء المكالمات الخارجية حرصاً على الا اكلف من يطلبنى قدرأ من المال .

سألته ، هل هو طالب . أو يعيش في سويسرا ؟

قال إنه هنا منذ عدة سنوات ، يدرس ويعمل في الوقت نفسه .

أبدت أسفى ، لا يمكننى الارتباط بأى موعد إلا من خلال البرنامج المعد للزيارة .

قال إنه سوف يتصل بى عند وصولى إلى زيوريخ . انتهت المكالمة ، ولم

اشغل نفسي كثيراً بما قاله ، وإن كان ثمة شيء ما غامض لفت نظري في طريقة حديثه .

عند وصولي إلى بازل ، فوجئت بموظفة الاستقبال تقدم إلى ورقة بها اسم ثابت ورقم هاتفه ، اتصل بي قبل وصولي .

في اليومين الأول والثاني لم اتصل به لانشغالي مع الصديق جميل عطية ، والفنان جمال عبد الناصر . صباح الاثنين ، قبل مغادرتي الغرفة إلى المطعم لتناول افطاري رن الهاتف مرة أخرى .
- أنا ثابت ..

خيل إلى أنه يتكلم مبتسماً ، كان واضحاً أن لديه نسخة من برنامج رحلتي ، الذي يحدد مواعيدي بدقة سويسرية صارمة .

سألته عن المدة التي أمضاها هنا .

قال إنها حوالى عشر سنوات .

سألته عن بلدته في مصر ، وهذا سؤال يفتتح به المصريون الأحاديث دائماً عندما يكونوا راغبين في معرفة معلومات أو تفاصيل عن شخص يجهلونه .
قال إنه من القاهرة .

من أين في القاهرة ؟

تحدث عن منطقة منشية البكرى ، وكيف أن منزل أسرته كان أول بيت في المنطقة .

رحت أسأله أسئلة أدق تفصيلاً ، منتبهاً إلى لهجته لرصد أى لكمة غريبة .

كانت إجاباته عامة ، غير محددة ، كررت ضرورة اتصاله بالمنظمين لرحلتي ، وانتهت المكالمة بأنه سوف يحاول الإتصال بي في زيوريخ . قلت إننى سوف أكون اليوم في ندوة عامة بأكاديمية باولوس ويمكنه أن يأتى .
قال إنه يعرف ، يعرف ..

في المساء ، بدأت ندوتي في مقر الأكاديمية بزيورخ ، غصت القاعة بجمهور سويسري ، وكان في القاعة مصريون وعرب أيضاً ، بعد انتهاء الندوة بدأ نقاش خاص استمر حتى الثانية صباحاً ، ولكن .. لم يظهر ثابت .
عدت إلى زيورخ في نهاية رحلتي ، أمضيت بها ليلتين . ولم يتصل بي ثابت .
سافرت من سويسرا إلى القاهرة ولم ألتق بثابت ولم يلتق بي .



هوجو

التقيت به في مقر المؤسسة الثقافية بروهيفتيا ، حيث تحدد في البرنامج موعداً لتناول الغذاء معه . انه هوجو لوتشر أحد أشهر الأدباء السويسريين المعاصرين . يكتب بالألمانية ، متوسط القامة ، ممتلئ قليلاً ، مرتفع الصوت ، مرح الحضور ، شرقي المودة .
يعرف القراء العرب من أدباء سويسرا الناطقة بالألمانية أديبين شهيرين ، هما فريدريك دورينمات . وماكس فريش ، تأتي شهرتهما من ترجمة بعض أعمالهما المسرحية التي ترجمت خلال الستينيات ، خاصة ، زيارة السيدة العجوز لدورينمات . وسور الصين العظيم لماكس فريش ، لكن تظل أعمال أخرى هامة مجهولة لهما في العالم العربي ، لم تترجم بعد ، فيما عداهما يمكن القول أن الأدباء السويسريين الآخرين مجهولين تماماً للقراء العرب . والسبب ضعف حركة الترجمة إلى العربية ، نبهني الصديق جميل عطية إلى أهميته ، وإلى روايته « ظل الفراشة » (Die fliege and die suppe) ، تدور فصولها حول عالم الحيوانات والفراشات والحشرات ، قصص لا تتناولها بشكل رمزي مثل كلية ودمسنة في الأدب العربي ، لكنه يفوص إلى عالمها . ويقص من وجهه نظرها .

قال لي هوجو لوتشر إنه كان يلاحظ الحيوانات دائماً ، إن حركتها

وانشطتها كانت توصف دائماً من خلال الإنسان ولكن ترى من خلالها الإنسان ، من هنا بدا ملاحظة دقيقة لسلوكياتها . اعتبر نفسه مثل الجاسوس الذى ولج عالماً غريباً عليه وراح يرصد كل التفاصيل، وهناك كتب مجموعته القصصية تلك .

أثناء تناولنا الغذاء معاً ، صمت لوتشر لحظة ثم قال :

- هناك كتاب شهير فى الأدب الفارسى يتحدث عن الطيور .

قلت على الفور

- إنه منطق الطير لفريد الدين العطار

قال إنه قرأ أجزاء منه . إنه عمل أدبى مدهش ، قلت له إن الكتاب مترجم بأكمله إلى الفرنسية ، وإننى أمتلك نسخة من الترجمة العربية التى قام بها الدكتور ناجى القيسى وتتضمن مقدمتها قائمة بجميع طبعات الكتاب فى مختلف اللغات ، وعدته بإرسال عنوان الناشر بالفرنسية . سألتنى لوتشر باهتمام عن كلية ودمنة لإبن المقفع . حدثته عن ابن المقفع ، عن أدبه ، عن ظروف قتله ، قلت له إننى اعتقد أن حكايات كلية ودمنة كلها مؤلفة ، أى أنه ابداع وليس ترجمة ، وحتى الآن لم يثبت وجود نص هندى نقل عنه ابن المقفع، إنما ادعى الترجمة لأسباب سياسية تتعلق بمضمون الكتاب وظروف العصر.

سألتنى لوتشر عن كتاب لابن مسكويه عن الحيوان ، قلت إننى أعرف كتاباً له عن الأخلاق . وعدته بالاستفسار عما إذا كان لابن مسكويه كتاب عن الحيوان أم لا ؟ بالطبع كنت سعيداً بهذا الحوار الذى يعكس تفاعلاً ثقافياً حقيقياً .

هوجو لوتشر معروف باهتمامه الخاص بأمريكا اللاتينية ، قال لي أن روايته الأولى عادت عليه بعائد مالى جيد مكنه من الذهاب إلى البرتغال ، وهناك كتب مؤلفاً عن الدكتاتور البرتغالى سالازار . ثم رحل إلى البرازيل وكوبا وكولومبيا .

سألتها عما إذا كان يعيش من الأدب ؟

قال بسرعة : نعم ولا ..

لا يمكنه الاكتفاء بدخول كتبه الأدبية فقط ، لكنه يكسب جيداً من كتابة المقالات الصحفية والتحقيقات التي يعدها أثناء أسفاره ، لكنه غير مرتبط بعمل ثابت . سألتني عما إذا كان الأديب العربي يعيش من أدبه قلت بسرعة :

- لا .. إنني بعد خمسة وثلاثين عاماً من الكتابة مازلت انفق على الأدب ، لكنني أعيش من الصحافة .. إنني صحفي محترف أيضاً ..

قال لوتشر إن الصحافة تمتلك خاصية مميزة ، أن تبرر نفسها بنفسها ، إنها مصدر للرزق ، وهذا لا يتوافر بشكل كاف في الأدب ، لكن تحقيق ذاته لا يتم إلا من خلال الأدب .

أخيراً سألتها عن موقفه بالنسبة لدورينمات وماكس فريش . قال لوتشر أن فريش كان يطرح دائماً مشكلة الهوية السويسرية ، لكن هوية بازاء أى شيء ؟ قال لوتشر إنه يكتب بالألمانية مثل الألمان أو النمساويين . إن زيوريخ مركز ثقافي هام مثل فرانكفورت وبرلين ، إنه يسافر دائماً لهذا يرى الأشياء من داخلها وخارجها ، لهذا يقارن دائماً شعبه بالشعوب الأخرى ، لهذا هو معنى بتصوير التجربة الحياتية للناس ، لتناقضات المجتمع .

نفارق المطعم السويسري ، الذي لفت نظري فيه مدفأة هائلة من الخزف ، كانت تشع حرارة هادئة ، دافئة ، خرجنا إلى الشارع البارد . ومضينا بخطى حميمة ، بينما يرتفع صوت لوتشر بعكس معظم السويسريين الذين قابلتهم .

حقة ..

حنة جويغل ، سيدة رقيقة ، دقيقة الملامح ارستقراطية الحضور . إحدى المسؤولات في مؤسسة بروهيلفثيا ، هادئة ، تنتقى كلماتها ، وتنطقها بدقة وأناقة . في عينها ظل لحزن ما .

قبل سفرى زرتها مودعاً ، لفت نظرى عدة لوحات جميلة معلقة بمكتبها .
أشرت إليها مبدئياً تقديرى ، تطلعت إليها متمهلة ، قالت ..
- إنه زوجى الأول .. كان قناناً حقيقياً .. مات شاباً ..
واحترمت صمتها الذى بدأ ..

الاستاذة ..

فى برنامجى المطبوع ، كانت السطور تحدد بوضوح المرحلة التالية من
الرحلة .

«الثانية عشر . وصول جنيف ، تستقبلكم الدكتورة فوزية العشماوى على
الرصيف امام عربة الأكل ، سوف تكون مرتدية جاكيت أحمر ..»
لم يكن عسيراً على التعرف عليها ، ملامح مصرية أصيلة وكأنها خرجت من
جدار معبد فرعونى قديم ، صافحتها وعندما أحطت بملامحها داخلنى يقين
أنها سيدة وحيدة !

جاءت إلى سويسرا منذ عشرين سنة تقريباً مرافقة لزوجها الذى
حصل على منحة لدراسة الدكتوراه . لأسباب لم اعرفها لم يتم الزوج دراسته ،
بينما اتمت هى دراستها وحصلت على الدكتوراه عام ١٩٨٣ ، كان موضوعها
«المرأة فى أدب نجيب محفوظ» كان ذلك عام ١٩٨٣ ، فى ذلك الوقت لم يكن
السويسريون يعرفون نجيب محفوظ ، ولكنها أصرت وبالفعل حصلت على
الدكتوراه ، كما حصلت من قبل على الماجستير من جامعة جنيف وكان
موضوعها «شخصية النبى محمد فى الأدب الفرنسى» ، ترجمت إلى الفرنسية
ميرامار لنجيب محفوظ وبداية ونهاية ، وكتاب «دور اليهود فى قاعدة الاسلام
بالمدينة المنورة» للدكتور عبد العزيز كامل . كما نشرت عدة دراسات عن
الاسلام والأدب العربى بالفرنسية . سيدة جادة . قوية الشخصية ، وانه لأمر
مثير للراحة أن تلتقى باستاذ أو استاذة مصرية فى جامعة أجنبية ، تصل
الدكتورة فوزية مع الروائى الفرنسى الشهير ميشيل بوتور .

أمضيت في جنيف عشر ساعات تقريباً ، رافقتني خلالها ، في البداية تجولنا في المدينة الهادئة المحيطة ببحيرة ليمان الشهيرة والراقدة عند سفح مرتفعات جبلية مغطاة بالأشجار ومنازل أثرياء العالم .

تتوسط البحيرة نافورة تدفع المياه إلى ارتفاع ضخم شقيقة لنافورة النيل التي بدأت تعمل في الستينيات ، ولكن الاهتمام والدعاية هنا جعل للنافورة شهرة تدفع بالسياح إلى المجيء من أجلها ، والتقاط الصور على مقربة منها . تحيط البحيرة أرصفة عريضة تتخللها أحواض الزهور المنسقة ، الجميلة ، أما المباني فتذكرني بمناطق باريس الراقية ، الواجهات ، النوافذ ، تقع جنيف في الجزء الناطق بالفرنسية من سويسرا . في الشوارع يمكن رؤية عدد أكبر من الجنسيات ، أفارقة ، عرب ، هنود ، هنا المقر الأوروبي للأمم المتحدة ، وكثير من منظماتها ، برغم ذلك فقد صوت الشعب السويسري ضد دخول الأمم المتحدة حفاظاً على الحياد التاريخي القديم . هذا الحياد الذي يبدو أنه يقترب الآن من منعطف حاد خاصة بعد التطورات الحاسمة في المعسكر الاشتراكي ، وبعد الاسراع بإجراءات توحيد أوروبا . حتى الآن لم تدخل سويسرا السوق الأوروبية المشتركة ، ولكن يبدو ان السنوات القادمة سوف تشهد تطورات هامة تنهى الحياد التاريخي والعزلة والقوقعة عن الآخرين .

مضينا إلى مقر الأمم المتحدة . كنت متلهفاً لرؤية الصديق بهاء طاهر ، أحد أدباء الستينيات البارزين ، والذي لعب دوراً هاماً في الحياة الثقافية المصرية من خلال البرنامج الثانى الإذاعى الذى كان يشرف على ادارته . ثم خرج من الإذاعة بعد إحكام أنور السادات قبضته على السلطة في عام ١٩٧١ . جاء بهاء إلى جنيف ليعمل في الأمم المتحدة ك مترجم .

في الطريق إلى المقر الأوروبي كنت اتأمل المباني الفخمة للفنادق الكبرى . وقصور الأثرياء ، ربما كان يوجد أماكن أجمل في العالم ، ولكن طبقاً لاتفاق

غير مرئى جاء الأثرياء إلى هنا . وقصدوا أماكن أعدت لهم خصيصاً ، أسعارها لا تمكن غيرهم من ارتيادها . هكذا أصبحت ملكاً لهم ، فنادق ، مطاعم ، كازينوهات القمار . قلت لفوزية العشماوى مشيراً إلى الجبل
- هل تعرفين أن بعض المصريين يمتلكون بيوتاً هنا ؟
قالت إنها لا تعرف أحداً منهم .

قلت لها إنها لن تعرفهم . فهؤلاء ليسوا علماء ولا اساتذة جامعة . بعضهم اثنى ثراءً فاحشاً من طرق شتى ، وأحدهم اسمه تردد في مجلس الشعب عندما قدم النائب علوى حافظ إستجواباً عن الفساد .

هنا في سويسرا ماوى آمن لكبار اللصوص من العالم الثالث ، سياسيين ، رجال أعمال ، تجار فقط ، تجار سلاح ، النظام الصارم للبنوك الشهيرة يوفر الأمان لأرصدتهم الهائلة ، والتي غالباً ما تؤول إلى البنوك نفسها بعد أن يدركهم الموت بدون أن يمنحوا ذويهم حق التوقيع .

ما من مرة رأيت فيها بناء هائلاً لبنك هنا إلا وفكرت في نقود العالم الثالث المنهوبة ،

أه لو تتاح لى الفرصة كى أعرف !

لكن مستحيل هذا . يظل عالم البنوك سرياً ، مستقل مشعاً على الحياة اليومية بما يتطلبه من استقرار وانضباط صارم ، رهيب . ولذلك فإن أى حركة ولو صغيرة للخروج عن النظام تقمع بشدة . في زيوريخ وفي يوم ماطر سمعت أصواتاً مرتفعة عبر مكبرات الصوت . قيل لى أنها مظاهرة نسائية . مضيت إلى محطة الترام التى وقف المتظاهرات إلى جوارها . كان تعدادهن حوالى مائة امرأة ، بعضهن يخطبن باللغة الألمانية . وكانت أصواتهن غاضبة . سألت مرافقى ، قال إنها مظاهرة ضد الرجال .

- وماذا فعل الرجال ؟

مط شفتيه

- لا أعرف .. لكن يبدو انهن فيمنست

ما لفت نظري عدد سيارات البوليس السويسرى الذى أحاط بالمظاهرة لتأمينها ، ولضمان عدم خروجها عن أهدافها ، حوالى ست عربات مدججة بالجنود والسلاح .
إنها ديموقراطية الصراخ .

والصراخ لا بد أن يكون بحساب أيضاً ، قبل موت دورينمات ألقى خطاباً أمام فاكلاف هافيل رئيس تشيكوسلوفاكيا قال فيها إن سويسرا سجن بلا جدران ، يشعر داخله السويسريون إنهم أحرار لأنهم يتصرفون على هواهم ويمارسون العمل مع العالم ، ولكنهم سجناء غير قادرين على الانضمام إلى الأمم المتحدة التى صوتوا ضدها عام ١٩٨٦ .

وأيأ كان الرأى فيما قاله دورينمات ، فأننى شعرت خلال أيامى القليلة فى سويسرا أن ما يحدث فى العالم من هزات ضخمة بدأ يطال سويسرا ، ولهذا سوف تكون الاعوام القادمة حاسمة جداً .

* * *

أعود إلى جولتى مع الدكتور فوزية ، نتجه إلى المقر الأوروبى للأمم المتحدة، لقاء حار مع بهاء طاهر ، ومحمد مستجير المترجم بمنظمة العمل الدولية . دعانى بهاء إلى جولة فى المبنى الذى كان مقراً لعصبة الأمم حتى عام ١٩٤٤ . دخلت قاعة الاجتماعات الرئيسية ، التقطنا صوراً تذكارية ، لكننى لم انفعل بها كثيراً .

انفعال كان كبيراً عندما دخلت مبنى حقوق الملكية الفردية ، فى البهو الضخم ، هدايا من دول العالم المختلفة ، هدية معينة توقفت أمامها طويلاً .

مجرد قطعة صغيرة من الصخر .

ولكنها قطعة صخرية غير عادية . قطعة لونها زيتى يميل إلى الخضرة ،

تبدو فيها باللوريات زجاجية ، ولكن فرادتها وغرابتها تجيء من مصدرها .

إنها من القمر .

القمر السابح في ليالينا الأرضية ، أحضرها الإنسان ، وهذا سبب آخر لتأثيرى الخاص .

بالجهد الإنسانى ، وبعلم البشر انت هذه الصخرة الصغيرة التى لا تملأ قبضة اليد ، انتزعها رواد الفضاء الأمريكيون أثناء رحلة مركبة الفضاء أبولو .

القطعة داخل صوان زجاجى ، والصخرة نفسها داخل مثلث من الزجاج البلورى ملتصق بسقف الصندوق . توقفت أكثر من عشر دقائق . درت حول الدولاب . وانحنيت ، تأملت وفكرت ، ثم انصرفت ، فالوقت محدود . والبرنامج صارم . بعد القائى محاضرتى فى جامعة جنيف عن «الرواية والتراث العربى» ، مضيقاً إلى مقهى شهير كان يجلس فيه لينين خلال فترة إقامته فى سويسرا . كانت هناك منضدة اعتاد الجلوس إليها وحفر اسمه بالروسية فى سطحها الخشبي ، أخبرنى بهاء طاهر أنه رأى المنضدة ، ولكن منذ عامين اشترت المقهى شركة فنادق شهيرة وحولته إلى مقهى حديث ، وأزالت المنضدة .

نزل الليل على جنيف ، فى الطريق إلى بيت الدكتورة فوزية لالتقى بأبنائها الثلاثة مررنا بمبنى عتيق ، فوقه . مدخنة حمراء اللون متصلة بمعمل كيمائى قديم . قالت أنهم أرادوا إزالتها ، ولكن لا يمكن أن تتم هذه الخطوة بدون استفتاء عام يقرر فيه الشعب الأمر . وجاءت نتيجة الاستفتاء بالرفض ، وبقيت المدخنة ، وتذكرت عشرات المعالم التاريخية فى بلادنا التى تزال بقرار ادارى صادر عن موظف قد يكون بدرجة محافظ أو وكيل وزارة ، وما زال مقهى الفيشاوى القديم فى ذاكرتى ، أزالوه فى عام ١٩٦٩ بقرار غشيم ! فى بيت

الاستاذة فوزية الهادي، التقيت بابنها وابنتها، في العشرينات، أما الثالث فكان يقضى مدة الخدمة في الجيش السويسري، انهم يحملون الجنسية الآن، وستظل ملامحهم العربية الاصلية ولغتهم المتعثرة ماثلة في ذهني!

رمضان

في آخر مقعد كان يجلس في المدرج، بعد أن انتهيت من محاضرتي، رفع يده، كان صوته عميقاً، يتحدث العربية الفصحى برزانة، ملامحه اوروبية، سالني عن القرآن الكريم، اخرجت من جيب جاكيتي نسخة صغيرة احتفظ بها دائماً في حلي وترحالي. قلت إنني أعتبر القرآن الكريم سماء اللغة العربية وسقفها، والمرجع الاول لي، أقرأ فيه دائماً باعتباره نص العربية الاول والمطلق. واحمله معي ليس باعتباره حلية أو تميمة، ولكن كضرورة لصقل لغتي وفهم حقيقة الكون الإنساني.

هز رأسه شاكراً بعد أن انتهيت، ظننته سويسرياً يتعلم الادب العربي، ولكنني علمت انه ابن الشيخ سعيد رمضان أحد زعماء حركة الاخوان المسلمين في مصر، خرج من مصر في الخمسينيات، واستقر به المقام في سويسرا حيث أسس مسجداً في جنيف، ومركزاً للدعوة الإسلامية. كثيراً ما قرأت اسمه في المراجع التاريخية. والمصحف عندما كنت صبياً، وشاباً، وتمر الأيام، والتقي بابنه في جامعة جنيف.

مررت بالمسجد أثناء مغادرتي جنيف، كان يحمل لافتة باللغة العربية، ورأيت مباني الأمم المتحدة في المساء والتي زرتها ظهراً، وكنت أفكر في الثرى السويسري صاحب الأرض الشاسعة التي أهداها إلى الأمم المتحدة لتبنى فوقها منشأتها بشرط واحد، وهو الحفاظ على حياة طيور الطاووس التي كان يقتنيها في حدائق المكان، كنت أتساءل، هل ما تزال الطيور موجودة؟ وإذا كانت، فهل يعتنون بها؟

كنت أفكر في سويعاتي التي أمضيتها في جنيف والتي انقضت بسرعة ،
تماماً كالأيام. كالشهور، كالسنين ،

عبد العزيز ..

مغربى ، من طنجة ، بعد أن انتهيت من محاضرتى عن «ظروف النشر
وحرية الإبداع في مصر» التى نظمها الجمعية السويسرية المغربية في جامعة
لوزان ، وأشرفت عليها الدكتورة هيلارى كيلباتريك ، دعانى إلى جولة في ليل
لوزان كانت الساعة العاشرة ليلاً ، قبلت ، فلم أعتد النوم مبكراً ، وما من شيء
أقوم به في الفندق إلا الفرجة على التلفزيون ، عبد العزيز متخصص في
الكومبيوتر ، يعيش منذ سنوات عديدة هنا ، يبدو ميسور الحال ، يدخل
السيجار الكوبى ، ويقود سيارته الأمريكية الصنع ، كان بصحبته شقيقته
الصغرى ذات الملامح العربية الجميلة .

تحدثنا عن المغرب ، وعن الأماكن التى أعرفها هناك ، والحق أن ولعى
بالمغرب عظيم ، ولكم كنت مسروراً ونحن نصغى إلى صوت المغنى المغربى
محمد باجدوب المتخصص في الغناء الأندلسى ، صوت عميق ، ذهبى ، عريض ،
احتفظ بعدة ساعات مسجلة في مكتبتى أصغى إليها دائماً ، ولكن سماعه في
لوزن السويسرية له وقع آخر . أن يسمع المرء أغاني وطنه في الغربة أمر له بعد
آخر . في زيوريخ زرت مصرياً يمتلك نادياً لتأجير شرائط الفيديو ، وكان صوت
أم كلثوم يتردد باستمرار .

مصر التى في خاطرى وفى فمي

وكان الانفعال قوياً جارفاً ، هكذا رحت أصغى إلى صوت باجدوب ، مضيت
مع عبد العزيز وشقيقته إلى نادى ثقافى سويسرى اسمه (طاحونة الرقص) ،
مدخل النادى ضيق ، تحيط الباب رسومات حديثة ، ولكن داخله يعج
بالفوضى والبريالية ، يضم مسرحاً ، وقاعة استماع موسيقى ، وأماكن

الجلوس . حجرة الاستقبال الرئيسية تضم مقاعد متناثرة الطرز جمعت كلها من القمامة السويسرية ومذاياع لا يعمل ، وكاميرا سينمائية معلقة في السقف ، بلا وظيفة ، وقطع من نسيج مختلف ملصقة بالجدران . وفي وسط القاعة سرير ضخم .

سرير في قاعة إستقبال ؟

الجدران معظمها مطل باللون الأسود ، شعرت أن هذه الفوضى نوع من الرد الفني على الانضباط الصارم الذي يميز الحياة السويسرية ، أتذكر على الفور تلك الآلة الموسيقية الضخمة المصنوعة أيضاً من القمامة في متحف بازل . نخرج من طاحونة الرقص إلى ناد آخر اسمه «الأنف المستعار» إنه أشبه بمقهى اوروبي ، يقع تحت الأرض ، يشبه الكهف ، المكان ضيق ، به مناضد متجاورة ، ومسرح كان فوقه أربعة عازفين . زحام شديد ، دخان السجائر يملأ المكان ، معظم الجلوس يتحدثون أو يصغون إلى الموسيقى ، الزحام الشديد نقيض للشوارع شبه الخالية في الخارج ، تكسب البشر وتلاصق اكتافهم وتجاورهم نقيض للعزلة التي ألحظ عليها الناس في التراموايات ، في القطارات ، في المطاعم في المقهى ، تحدثنا بصعوبة ، أخبرني عبد العزيز بوصوله إلى سويسرا منذ أربعة عشر سنة ، فكر يوماً أن يدرس الذرة ، فكر في السفر إلى العراق ، لكنه درس الكمبيوتر وعمل به ، إنه مشغول جداً ببلده المغرب ، وفي رأيه أنه سيرجع إلى هناك مهما طالبت به المدة هنا ، يفكر في مشروع لاعداد مصنع ينتج وسائل جيدة لتغليف البضاعة ، تغليف البضاعة الجيد حل لكل المشاكل الاقتصادية!!

اصغيت إلى حديثه عن مشروعه ، ولم أعلق ، لكنني بعد قليل بدأت أشعر بالإرهاق لكثافة الدخان في المكان ، خرجنا إلى الليل اللوزاني ، الشارع القديم مزدحم ، غداً سبت ، كثيرون يمضون قاصدين مقهى (الأنف المستعار) تحت الأرض بحثاً عن الاتصال بالآخرين ، عن الحميمة . نعود مرة أخرى إلى

السيارة ، إلى صوت محمد باجدوب
الحب قاسى والغرام اهاننى
والوجد باق ، والهيام أساءنى

وجوه عديدة

.. عندما تسلمت الكتيب الصغير الذى يتضمن برنامج أيام الأدب السويسرى فى مدينة سولوتورن السويسرية ، فوجئت بصورتى تتصدر صور أكثر من خمسين كاتباً بالألمانية ، من سويسرا ، ألمانيا ، النمسا ، كنت الأديب الوحيد الذى يمثل ثقافة مغايرة . رحت أتطلع إلى وجوه الأدباء الذين لا أعرفهم ، والمقرر أن اشاركهم مهرجانهم السنوى الذى يعقد فى الاسبوع الثانى من مايو .

فى الصباح الباكر ، وصلت إلى مدينة سولوتورن القديمة الجميلة ، المطلة على الراين . هارتموت فنديرش وزوجته فى إنتظارى ، اتجهنا إلى فندق عتيق ، من الأماكن التى نزلتها وسأظل اذكرها دائماً .
فندق كورون .

يقف على الناحية فى مواجهة الكاتدرائية الضخمة كمطقة من الزمن المنصرم ، بناء جميل ، شعرت أننى أدخل إلى عصر مضى ، وليس إلى مجرد فندق للإقامة العابرة .

فى الممر المؤدى إلى الغرف يحتفظ الفندق على الجدار بالعديد من اللوحات والصور التذكارية . أهمها لوحة تقول إن الفندق كان مستعداً لإستقبال نابليون ، لكنه لم يتوقف إلا لحظات أمام الفندق عند مروره بمدينة سولوتورن ، وطلب أن يشرب كوب ماء ، دفع مرافقه قطعة ذهبية إلى مدير الفندق ، كان ذلك عام ١٧٩٧ ، فى نوفمبر . لوحة أخرى تضم فاتورة لطعام وشرب الخيول لمدة خمسة أيام فى القرن التاسع عشر ، ٣٥ حصاناً كانت تتكلف يومياً ٢٣٥ فرنكاً سويسرياً .

صور أخرى تطالعني منها وجوه شتى لا أعرف أصحابها ، ضباط .
أطباء ،

لو أن جدران الفندق تتكلم عما رأيت وسمعت !

إتجهت مع هارتموت فنديرش إلى المركز الثقافي الذي سوف يقام فيه
المهرجان . قوبلت بترحاب من المشرفين عليه ، أكدوا لي حرصهم على الاحتكاك
بالآداب الأخرى . في المدن السويسرية ، في محطات القطارات ، في المتاحف ، في
المراكز الثقافية علقت اللافتات التي تدعو إلى المهرجان وكذلك صور
المشاركين .

في اليوم الأول للمهرجان دخلت إلى القاعة الرئيسية في تمام
الرابعة والنصف . كنت بصحبة هارتموت فنديرش الذي سيتولى تقديمي
والترجمة .

بمجرد ولوجنا القاعة الكبرى أعترف أنني فوجئت . كان عدد الحاضرين
يتجاوز الألف في تقديري ، جاءوا من المدن البعيدة ، المقاعد كلها ممتلئة ،
الواقفون في الممرات عدد كبير ، كلهم سويسريون عدا ثلاثة وجوه مصرية
صميمة ، أب وأم وطفلة جلسوا في المقدمة ، استاذ مصرى مقيم مع أسرته في
مدينة قريبة . جاءوا للاستماع إلى أديب من وطنهم .

بدأ اللقاء بقراءة لنص من روايتي «الزينة بركات» باللغة العربية ، إنها
المرّة الأولى التي يتردد فيها إيقاع لغتنا الجميلة في هذا المكان . الهدف هو إصغاء
الجمهور إلى جرس اللغة ، وتكريم الأدب الذي أمثله . ثم قدمني هارتموت
فنديرش معرّفاً بي ، ثم قرأ النص من الزينة بركات المترجمة إلى الألمانية . ثم
فتح باب الحوار .

كانت أسئلة ذكية ، خلو من أي محاولة للإستعراض أو الإحراج . وكانت
تتركز حول عدة محاور .

- ظروف حياة المبدعين المصريين ،
 - هل يتمتع المبدعون المصريون بحرية كاملة في التعبير ؟
 - إهتمام خاص بالإستفسار عن الإستاذ نجيب محفوظ عن إبداعه الجديد، وعن حياته اليومية . إنهم يعرفونه جيداً بعد نوبل .
 - استفسارات عديدة حول مصادرة أولاد حارتنا .
- أجبت على ما طرح موضحاً إنه ما من أديب عربى يمكنه أن يعيش من إيراد كتبه فقط .
- تمتعنا في مصر بتقاليد ثقافية قديمة تمكن المبدعين من الكتابة بحرية إلى حد كبير .
- أصغى الحاضرون باهتمام كبير إلى ما ذكرته عن نجيب محفوظ ، ولكننى قلت أننى ضد مصادرة (أولاد حارتنا) وأدعو دائماً إلى الإقراج عنها ، وفى رأى ان مصادرتها تحد من حرية التعبير .



بعد انتهاء هارتموت فندريش من قراءة آخر نص من الزينى بركات ، بعد إنتهاء الساعتين المخصصين لنا ، فوجئت بتصفيق حار استمر طويلاً ، وقفت أرد التحية الصادقة ، منحنياً ، واضعاً يدي على قلبى كعادتنا العربية ، مرتبكاً إلى حد ما ، فالعواطف الحقيقية تجعلنى متأثراً جداً .



ليلة سفرى ، رحت أتجول مع الصديق إبراهيم الملوانى ، متخصص فى الكمبيوتر ، يحتل مكانة مرموقة فى إحدى الشركات هنا ، متزوج من سويسرية ، وأب لثلاثة أطفال ، كانت المنطقة القديمة تفيض بالحياة ، خاصة المقاهى ، دخلنا مقهى أسباني مزدحم بالحركة ، لم يكن هناك مكان لجلوسنا .

فوجئت بشاب سويسرى يتقدم منا مبتسماً ، محيياً ، قال لى بالانجليزية إنه

استمع إلى في سولوتورن . وإنه كان معجباً جداً بما سمع ، وإنه اقتنى نسخة من روايتي (الزيني بركات) بدأ في قراءتها على الفور . شكرته مبقسماً ، بعد إنصرافنا قال إبراهيم الملواني -جميل .. رائع ..

كان الشاب السويسري أحد الوجوه العديدة التي إزدحمت بها القاعة في سولوتورن . وكنت أأمل ملامحها وتعبيراتها أثناء قراءة هارتموت فندريش لصفحات من روايتي المترجمة إلى الألمانية . هذه الوجوه التي إلتقيت بها ذلك المساء من يوم السبت الحادي عشر من مايو ، عام ١٩٩١ ، خلال رحلتي السويسرية . تلك الوجوه التي لن أنسى ملامحها التي تداخلت وتشابكت بحيث أصبحت تشكل ملمحاً واحداً قوامه التفاهم ، والرغبة في التواصل الإنساني ، رغم إختلاف الثقافات ، واللغات .

متناليات تونسية ..

يوليو ١٩٩٠

أفق.

السماء تطوق كافة المدن ، لكن حضورها يختلف هنا وهناك ، أتنبع الفروق من السفلى أم من العلو ؟ ، بمجرد الوصول أدرك قربها ودنوها وانفتاحها اللانهائى ، البيوت ناصعة البياض ، البحر القريب حضوره الطاغى ، المدرك حتى فى الأزقة الضيقة للقصة العتيقة ، أينما وليت الوجه تدركه حتى وإن صددت البصر الجدران وشهوق العمارة عربية القسمات فى معظمها عدا استثناءات محدودة فى الامتدادات الحديثة ، يقع الفندق عند الحد الفاصل بين الجزئين ، القديم والحديث ، إنها المرة الثانية التى أبلغ فيها تونس ، الأولى منذ خمسة أعوام عندما جئنا لنتلقى بأبوعمار . فى هذه المرة ، تونس نقطة انتظار قبل بدء الرحلة إلى الجنوب ، إلى قابس ، لا نمكث فى الغرفة إلا دقائق ، مازلت مع صاحبي نذكر قسمات المدينة ، نسعى إلى الشارع . هدفنا أصبح انتقال الكتاب العربى محفوظاً بالقيود والعقبات والحجج الاقتصادية والأمنية .

سحنون

إذن .. لم تهن الذاكرة ، نجد أنفسنا أمام البناية ذاتها . الطلاء الأبيض والنوافذ ذات اللون الأزرق الذى جمع بين زرقة البحر وزرقة السماء ، هكذا المعمار التونسى العتيق ، عرفوا كيف يوحدوا ملامحه ، ويحافظون عليه فى صرامة تامة . منذ خمس سنوات جئنا إلى هذه المكتبة ، كنا نبحث عن ألف ليلة وليلة . طبعة بريل ، أقدم دار نشر هولندية اوروبية للتراث العربى ، كان

الدكتور محسن مهدي قد أصدر أقدم مخطوط لآلف ليلة ، وخطر لنا أنه من الممكن العثور عليها في تونس ، ومن مكتبة إلى أخرى دلونا على مكتبة سحنون ، عدة طوابق ، الأرضي منها خصص للقرطاسية ، الأقلام ، والأحبار ، والكراسات ، مصدر ربح أكثر من الكتب ، في الثاني تصطف الكتب ، الأرفف مدججة . رائحة الورق ، وإصطفاف المجلدات توحى بغنى وتنوع خاصة في مجال التراث العربي ، رحنا نستعرض العناوين .

لا أدري هل كان حامد العلوي صاحب المكتبة يقف عند دخولنا أو بعدنا ، لمحتة وسط الكتب مرتدياً العباة التونسية المحفوفة بخيوط ذهبية مطرزة ، لباس تقليدي جميل نراه كثيراً في الأسواق القديمة ، السعى فيها عبر الطرقات يضيف بعداً خفياً على المكان والوقت معاً .

تعرفنا إليه وتعرف إلينا ، صحبنا عبر سلالم ضيقة وطرقات تفوح برائحة الظل إلى مكتبه حيث يحتفظ بكتبه النادرة ، ومخطوطات لاتباع ، ومجموعات من مطبوعات التراث العربي الصادرة في أوروبا . ترددنا على المكتبة مرات ، في كل مرة يراجع قائمة الكتب التي اشتريناها ، يدقق في الأرقام ، يشطب بعضها ، يضيف أرقاماً أخرى ، يبدو حريصاً ، حذقاً ، ولكنه في النهاية يبدى كرمأ . وودأ .

داران للنشر في تونس تنفردان بنوعية من الكتب لا يتعامل معها الناشران ، كتب الفن ، الضخمة ، الملونة ، مرتفعة التكاليف ، معظم ما أقتنيته عن الكتب التي تؤرخ للعمارة الإسلامية العربية ، أو فن التصوير العربي . والفارسي . والهندي والمغولي ، هذه الكتب اشتريتها من العواصم الأوروبية ، ثمة استثناءات محدودة جداً ، في المشرق ، منها كتب الدكتور ثروت عكاشة عن تاريخ الفن ، وبعض كتب صدرت في بغداد ودمشق . بشكل عام يظل إقبال الناشرين على هذه النوعية قليل وحذر .

دار الجنوب للنشر التي يديرها رجل مثقف . وأعى ، سي محمد المصمودي ،

أصدرت عدداً هاماً من هذه الكتب ، مجلد ضخيم عن العلوم في الإسلام ، وآخر عن الحج بالفرنسية ، وسلسلة هامة عن المدن ، صفاقس ، دمشق ، تونس ، مجلد عن الفن الحديث في البلاد العربية ، وآخر عن مسجد قرطبة وقصر الحمراء ، كل كتاب بمثابة متحف صغير ، أما المجلد الذي صحبته ودائماً أقلب صفحاته . متأملاً ما حواه من صور ولوحات . مصغياً إلى النص الذي تترجمه لي زوجتي من الفرنسية ، فموضوعه مولانا ، وكلمة مولانا ، خاصة عند العارفين ، المهتمين بالتصوف الاسلامي تعنى شخص واحد فقط ، إنه جلال الدين الرومي ، صاحب المثنوى . الكتاب الذي أصدرته دار الجنوب رحلة روحية ، معرفية ، في حياة مولانا ، ويحتاج إلى وقفة أطول .

دار سحنتون أصدرت مجلداً عن السلاطين العثمانيين ، وآخر عن الخط التركي بالتعاون مع بعض المؤسسات الثقافية التركية .

تلك نوعية من النشر تزدهر في تونس ، وقد لمحت في المكتبات مجلداً ضخماً عن الملابس التونسية ، ولكن نقودى كانت قد نفدت تقريباً خاصة بعد شرائى لمصحفين نادريين ، الأول بالخط الأندلسي ، وهو اى بهذا الخط قديم ، لجماله وتفرد . وغنائية خطوطه ، كتبه العبد الفقير الحاج زهير الحنفى مذهباً سنة ١٣٧٥ هجرية ، هذا الخطاط الذي يصف نفسه بهذا التواضع الجم ، فنان كبير ، لا أدري كيف أمكنه أن يحدث هذا التقابل المدهش بين الكلمات المتشابهة ، إذا ذكر لفظ الجلالة مثلاً في سطر من آية كريمة ، يكتبه بلون أحمر مغاير ، إذا ورد في الصفحة المقابلة فانه يكتبه في موضع يحقق مع اللفظ المذكور من قبل بحيث يتطابقان تماماً عند تلامس الصفحات ، المصحف الثاني كتبه خطاط تركي شهير هو أحمد خسرو .

الخطاط التونسي ، الخطاط التركي ، كلاهما لم يقدموا على نسخ المصحف مدفوعين ببراعة فنية وموهبة فذة فقط ، ولكن .. بحس إيماني عميق ، فكأن الكتابة ذاتها صلاة مصاحبة لتتابع السور والآيات .

سیدی محرز و سیدی الشبعان .

مع الغروب سعينا إلى سیدی بوسعيد . المنطقة الجميلة التي أصبحت نقطة جذب للأجانب نهاراً ، ولأهلها ليلاً . البيوت القديمة ، الأقبية ، الزنقات . المنحنيات المفاجئة كبغيات المقادير ، الدرج الصاعد إلى اسراد نجلها ، النوافذ المغطاة بأغصان من حديد . المقاهي الغاصة بروادها ، أحدها في أعلى نقطة من المرتفع ، مشرف من عل على البحر ، يتدرج على سفح الجبل حيث تتوالى المصاطب الحجرية المفروشة بالحصر ، والموائد الخشبية المستديرة الصغيرة ، في وسط المقهى يقوم ضريح سیدی الشبعان ، شيخ من الصالحين ، دفن هنا ، حقاً .. عرف كيف يختار المكان الذي يرقد فيه إلى الأبد ، حيث يعتلي الذروة ، ويشرف على البحر قوى الحضور ، حيث يسرى المشهد شيئاً فشيئاً إلى الروح ، فيقع التآخي المستحيل مع الزمن ، يبلغ الاستشراق مداه عند تسلل الليل شيئاً فشيئاً ، تتغير الألوان الأبدية ، ومن ضفة الخليج الأخرى تبرز الأنوار ، نقاط من ضوء تبدو ثابتة ولكنها في الحقيقة راحلة . مع اشتداد لمعانها ندرك تقدم الليل.

تتعاقب أكراب الشاي الأخضر المعطر بالنعناع ،.يجيء محمد بالنرجيلة ، أنها عوامل أنسى . ما من مقهى يقدمها في البلاد العربية التي زرتها إلا وأقمت به ساعات للتأمل بصحبة هذا الصديق الصامت الذي لا يمل ولا يكل ولا يشكو ، وإذا علا صوته ، فانما قرقرة تستعصى على الفهم ، لذلك لا تلزم المجاوبة !!

تعرف إلينا محمد ، تجاوز العشرين بقليل ، متوسط القامة ، قوى البنية ، مختص هو بتقديم النرجيلة ، جاء ليجلس إلى جوارنا مختلساً بعض الدقائق من سعيه الحثيث عبر أرجاء المقهى .

إنه وحيد تماماً ، يتيم في هذا العالم . توفي والده وهو ابن شهور عدة ، وبعد اسبوع رحلت امه ، وبعد شهر لحقت بهما شقيقته . في شهر واحد فقد كل ذي

رحم . كان هشاً ، ضعيفاً ، نائياً الحق أحد الصالحين بمؤسسة لرعاية الأيتام .

كان محمد يتحدث عن حياته ببساطة ، عن المؤسسة التي يشعر بدين لها ، عن عمله في المقهى ، عن بيعه للسجائر حتى يحصل على بعض دخل يتم به المنحة التي يحصل عليها شهرياً وقدرها أربعين ديناراً ، كان بسيطاً ، عميقاً ، غير خجل ، تحدث عن دراسته لعلم الاجتماع في كلية الآداب ، وعن إساتذته ، وعن يقرأ لهم ، الطاهر لبیب ، توفيق بكاء ، الجابري وآرائه في التراث ، والدكتور زكي نجيب محمود .

كان الحديث يتوقف عندما يستدعيه البعض لتلبية طلبات مدخن النرجيلة ، عاد إلينا بزجاجة ماء هدية منه لنا ، وللماء في المعتقد الشعبي منزلة عظيمة ، فالماء إذا قدم هدية للضيف يعني ذلك إشهار الأمان ، وإذا نام الطفل بمفرده تسمى الأم مطمئنة طالما أنها وضعت كوب ماء إلى جواره ، ليس هذا بغريب في مجتمع ضنت عليه الطبيعة بالمياه منذ القدم .

ثمة عين ماء شهيرة بجوار ضريح سيدي محرز ، أو لنقل إن سيدي محرز دفن بجوارها ، العين المباركة تروى كل زائر . كذلك يزورها الأطفال يوم ختانهم ، والعذارى قبل زفافهن .

عاش سيدي محرز في العصر الفاطمي ، توفي عام ١٠٢٢ ميلادية ، وكان عمره وقتئذ الثالثة والسبعين ، إن مقامه وضريحه يعد من أهم المزارات في المدينة ، وقديما ذكر الهوارى الجغرافى المتوفى في حلب سنة ١٢١٥ ، في دليله عن أمكنة الحج ، ضريح سيدي محرز ، وقال إن البحارة يستغيثون به كلما ثار البحر ، كما ينذرون له النذر ، ويتبركون بحمل حفنة من تراب قبره .

عندما احتل الأوروبيون تونس في بداية القرن السادس عشر ، زار سيدي محرز السلطان العثماني في استامبول أثناء نومه .

سأله السلطان : من أنت ؟

فأجابه الولي الصالح : أنا محرز

ثم طالبه بانقاذ البلاد من المغتصب الأجنبي ..»

عندما استيقظ السلطان سأل عن بلاد الشيخ محرز ، فقيل له ، إنها تونس ،
عندئذ جهز أسطولاً كبيراً ، قوياً ، بقيادة سنان باشا ، واستطاع أن يسترجع
تونس من الأوروبيين .

محمد يروح ويجيء ، ملبياً طلبات القادمين ، مختلساً الوقت لاستكمال
الحوار والتواصل ، في لحظات الصمت كنت أحملق إلى البحر ، أطيل النظر إلى
الأفق ، التاريخ العميق يتناثر في الأفق ، في الصور التي تزحم المخيلة ، القصبة ،
الشوارع الرئيسية ، تتابع المتاجر العتيقة ، وزحام المارة ، وسريان حسناء
تونسية ناشرة عبقها الأنوثى ، في المركز جامع الزيتونة ، تحديق المباني
به ، ولكن عند اجتياز مدخله . المفضى إلى الساحة المكشوفة يبدأ التوازن
النفسي . والتهيف للشفافية ، يكشف عن معماره وتكوينه من الداخل ، إنه ذات
الاحساس الذي يواتيني عند الوقوف في باحة الأزهر ، أو الصحن الداخلي
لجامع ومدرسة القرويين بفاس ، وأيضاً بالمسجد الكبير بصنعاء ، وحدة
التكوين . والعناصر المراثية والخفية ، توحد القصد ، وزخم الدراسة ، واتصال
الصفو .

الزيتونة مركز من مراكز العالم الإسلامي ، ولذلك ليس غريباً أن يكون
قلب المدينة القديمة ، بل المركز الروحي الرئيسي لتونس العاصمة والبلد ، إليها
تؤدي كافة الطرق ومنها تتفرع . يتشابه تكوين المدينة العربية ، وهنا في
زيارتى الأولى عام ١٩٨٥ ، بزغت عندي الصلة بين معمار المدينة ، ومعمار
قصص ألف ليلة وليلة ، والصلة أيضاً بالفن التشكيلي العربى .

مقر مجلس الوزراء التونسي في القصبة القديمة . أى فكرة عبقرية ، وأى
قرار يستحق الجدارة ؟

لنتخيل لو أن مجلس الوزراء المصرى في الجمالية ، في قصر المسافر خاتنة

مثلاً ، أى عناية كانت ستلحق بالأزقة والحوارى والشوارع ، ألا يعبرها كبار المسئولين يومياً إلى مقارهم ؟

كنت أفكر فى هذا الحضور العربى القوي ، فى العمارة ، فى المدينة ، فى الأزياء ، فى العادات ، فى الوقت ، ويتصاعد عجبى من غلبة اللسان الاجنبى عند كثير ممن قابلتهم ؟

ينبهنى صاحبى إلى ضرورة إستيقاظنا مبكرين ، القطار الذى ينقلنا إلى صفاقس ، ثم قابس مقصدنا فى هذه الرحلة ، سيتحرك فى السادسة صباحاً ، نصافح محمد .

أطلع إلى المكان ، محاولاً إستيعابه فى الذاكرة الواهنة ، موقناً إن ملامحه سوف تعاودنى كثيراً بعد النأى عنه .

انظر إلى ضريح سيدى الشيعان ، وسط الضجة ، وصخب الحضور ، والونسة التى لا تنقطع ، خيل الى اننى أرى ملامحه ، وعندما رددت فى اتجاه ضريحة .

- السلام عليكم ..

خيل إلى اننى أصغيت إلى صوته قادماً من عمق الضريح ، مجيئاً السلام ، ولكننى صرت .. لماذا أيقنت أن فى نبرة مسأ من سخرية وحزن ؟

* * *

متتاليات ألمانبة

١٩٨٧

١٩٨٨

١٩٩٠

غرائب الاتفاق ..

١٩٨٧

برلين ..

جئت إليها بالقطار من مدينة هالة ، بعد أسبوع قضيته ضيقاً على جامعة مارتين لوثر ، صحبتني المستشرقة الدكتورة فيبكه فالتر ، هنا يرتب لي إتحاد الكتاب عدداً من اللقاءات بالروائيين الألمان ، ودور النشر المهتمة بالأدب العربي، انها المرة الاولى التي أزور فيها المدينة ، خواطر عديدة ، الحرب التي جرت ، هتلر ، الهزيمة ، الجنود الذين زحموا يوماً هذه الارصفة ، سوق الوداع الهائلة التي تنصب كل يوم ، غير ما جعل ظلاً رمادياً يخيم على خواطري ، افتقاري لصاحبى الذى كان ، فنان بحق من جيلي ، عرفنا بعضنا في القاهرة القديمة ، وكان دقيقاً ، هادئاً ، غزير الموهبة ، ومنذ ستة عشر عاماً جاء إلى هذه البلاد بعد أن تزوج سيدة ألمانية ، لم أعرفها ، لم ألتق بها ، مع انى صحبته إلى خان الخليلي يوم أن ذهب ليختار خاتمي الزواج ، كانت علاقتنا محوراً للأدب والفن ، منذ ستة عشر عاماً جاء وأقام في هذه البلاد ، ومنذ شهور قليلة رحل إلى الأبد ، وهو بعد في الخامسة والأربعين ، هكذا وجدوه مبتسماً ، يده خلف رأسه ، جالساً ، في بيته باحدى الدول العربية التي سافر ليعمل بها ، كانت ملامحه في مخيلتي ، لو انه هنا لكانت الزيارة غير الزيارة ، لسرى دفاً ، ولرايت المدينة من خلاله ..، تزلت من القطار وعندى ظلال حزن ، وقفنا على الرصيف في إنتظار المترجم الذى سيرافقنى ، تقدم منا رجل طويل القامة ، في الأربعينيات ، عندما تكلم بدا صوته وكأنه يجيء من خارج حنجرتي ، رحب بى،

وامتدت يده إلى حقيبة سفرى ، خجلت ، لا أحب ذلك ، لكنه أصر ، وعندما وصلنا إلى السيارة بادر بفتح الباب ، رفعت يدى شاكرًا ، راح يتحدث مع الدكتورة فيبكه ، بينما كنت أصوب بصرى إلى المدينة التى أنزلها أول مرة ، أحاول اكتشاف خصوصية الملامح ، ولكن ذكرى صديقى كانت تضغط على ، خطر لى أن أسأل المترجم عنه ، بما أنه يجيد العربية ، فربما يعرفه ، وعندما أخبرنى أنه عمل فى مصر أربع سنوات تشجعت أكثر ، فى نفس الوقت كنت فى حاجة إلى أن أتحدث عن صاحبى مع أى إنسان ..

سألته ، هل كان يعرفه ؟

صمت لثوان ، ثم التقت إلى ، قال ..

.. أنا الزوج الأول لزوجته ..

* * *

الأربعاء :

مازلت أفكر فى مفاجأة الأمس ، لم أكن أعرف شيئاً عن امرأة صاحبى ، هكذا شاء القدر أن يكون مرافقى فى أيامى هنا ، زوجها الأول ، جاءنى صباح اليوم ليصحبنى إلى مكتبة الدولة كى أطلع على المخطوطات العربية ، بالطبع اتصل الحديث بيننا ، قال لى أنه أنجب منها ثلاثة ، أكبرهم عنده خمسة وعشرين سنة الآن ، أما البنت ، وهى أصغرهم ، فلها عشرون سنة الآن ، قال لى ..

.. أظن أنها تزوجت .

قلت بدهشة ..

.. تظن ؟ ألا تعرف إذا كانت ابنتك متزوجة أم لا ؟

قال لى إنه بعد انفصاله عنها عزلت الأولاد عنه ، وراحت تشوه صورته فى نظرهم ، حتى إنهم إنعزلوا عنه تماماً ، ولم يسع أحد للقاءه ، وهو من ناحيته لم

يحاول ، لماذا ؟ .. لأنه وجد أن الأولاد لو تمزقوا بين الأب والام سيلحق بهم هذا الضرر النفسى ، الأفضل لهم أن يعيشوا مع الام مادامت رغبت هى فى ذلك ، لكنه لو تدخل ، وأصر على أن تقوم بينه وبينهم علاقة سيتمزقون ، كان الأفضل لهم أن يبتعد عنهم ، ألا يحاول رؤيتهم ، ألا يعانون التمزق ، وليظنوا أن أبيهم سيئ ..

قال لى ..

– ويوما ما ربما يعرفون أن والدهم رجل طيب ..

صمت قليلاً ثم قال :

– ربما ..

* * *

الخميس :

قلت لمرافقى إننى سأحدث تليفونيا اليوم إلى زوجته ، معى رقم هاتفها ، وفى مدينة ليجزج قابلت أحد الأصدقاء الذى أخبرنى أنها ربما تريد إرسال خطابات إلى أسرة زوجها الراحل – صديقى – قال لى مرافقى ..

– أرجو منك ألا تخبرها بأننى مترجمك ..

وعده بذلك ، فى نفس الوقت كنت مدفوعاً للبحث عن الظلال التى تركها صاحبى ، متعجباً من الصدف التى وجدت نفسى فيها والتى تفوق أى دراما ممكنة ، فى المساء إتصلت بها ، إنها تتقن العربية ، قالت لى أنها مشغولة حتى نهاية الأسبوع ، ويمكن أن ترانى يوم الأحد ، فقلت إننى سأنتظر تليفوناً منها ..

فى المساء ، صحبنى مرافقى إلى قاعة موسيقى هائلة الفخامة ، وكانت فرقة برلين السيمفونية تقدم عملاً أوبرالياً لمدلسون ، ولاننى لا أتناوق الاوبرا ، ولا

أفهمها ، رحت أفرج على قائد الأوركسترا ، كنت معجباً بأدائه ومبهوراً
بالمجهود الذى يبذله ، وإشاراته التى يعقبها إنطلاق الأنغام ، بعد إنتهاء
العرض خرجت مع مرافقى إلى الليل البارد ، والحق أننى أصبحت قريباً منه
إنسانياً ، إنه مهذب جداً ، فى داخله إنكسار ، أخبرنى أن امرأته الأولى حاولت
تحطيمه ، وضيق عليه فى عمله ، ولكنه غالب الظروف ، ومنذ ثلاث سنوات
أصبح زوجاً ، كان يحدثنى أنه أرسل إليها خطاباً ، وصباح اليوم عندما جاءنى
بدأ مبتهجاً فقد تلقى خطاباً منها كان يتحدث عنها بود ، وعشق ، وعلى الرغم
من أننى لم ألتق بها ، إلا أننى أكاد أكون رأيتها لدقة وصفه ، وحديثه الدائم
عنها ، كان يصر أن يوصلنى حتى الفندق الذى أقيم فيه ، وكان بعيداً عن مركز
المدينة ، وعند عودتنا فى الليل ، قال لى ونحن نخترق الغابة ، انه كان يعرف
صديقى الراحل ، وإنه إنسان لطيف جداً ، ولكنه يعرف إلى أى مدى عانى ،
التقت إلى قائلًا ..

— أنا الإنسان الوحيد فى العالم الذى يفهم إلى أى مدى عانى وتحمل
صديقك ..

* * *

الأحد :

إتصلت بى .

قالت إن طالباً مصرياً يدرس هنا فى الطريق إلى ، وإنه سيصحبنى إلى البيت ،
قلت إننى بالإننتظار ، فى الوقت المحدد جاءنى شاب مصرى ، هادئ يعد رسالة
الدكتوراه ، وكان على صلة وثيقة بصاحبى الراحل ، ركبنا سيارة أجرة ، كان
البيت بعيداً فى الطرف الآخر من برلين ، فى منطقة شبه ريفية .

— كان يسميها طوخ ..

فى الطريق حكى لى عن أيامه الأخيرة ، قال لى انه كان يخطط للعودة إلى

مصر، وأنه اشترى شقة بالفعل ، وكان في حاجة إلى قدر كبير من المال ، لهذا ذهب إلى ذلك البلد النفطي ، وإن أتعس لحظاته تلك التي كانت تسبق سفره ، حدثني عن المجلات الألمانية التي كتبت المراثي فيه ، وعن بعض أعماله التي أصبحت شعبية هنا . أخفيت عن الطالب المصرى هوية مرافقى الألماني ، وأصغيت صامتاً إليه وهو يقول ..

- كانت زوجة الفقيد متزوجة من رجل ألماني يعتبر من أفضل المترجمين إلى العربية هنا ..

ولم أقل له أن هذا المترجم يصحبنى منذ وصولي هنا .

* * *

الأحد ظهراً :

هنا كان !

بيت صديقي الذى رحل ، شقة من عدة غرف ، صافحت زوجته ، سيدة تجاوزت منتصف العمر ، تبدو حديدية الشخصية ، كانت ملامحى جامدة ، لا تفصح عما يدور داخل ، كنت أبحث عن ظلال صاحبى فى البيت ، جلست فى حجرته التى كان بها اثنين من معارف الأسرة ، هذا مكتبه ، أزيح إلى الخلف ، هذه دواليب الكتب ، كتب ألمانية ، قليل باللغة العربية .

أين صاحبى ؟

لم أر له أى صورة معلقة ، أو تطل من الأركان ، جاء أولاد السيدة ، شاب طويل ، إنه ابن زوجها الأول ، مترجمى ، وحاولت أن أجد الشبه ، كان صعباً ، لكن عندما دخلت ابنته كائى رأيت نموذج أنثوى لوجه مرافقى ، القامة ، الانحناء ، كانت تحمل طفلة صغيرة ، لم يخبرنى أن ابنته أنجبت ، إنه أصبح جداً ، ربما لا يعلم ، جاء زوج الإبنة ، تذكرت والدها وهو يقول لى ببساطة مؤلة ، أظن أنها تزوجت .

عدت أبحث عن صاحبي ، الفنان ، الراحل ، كان الجميع يضحكون ، ويتحدثون ويداعبون الطفلة الصغيرة ، ويتحدثون في كل شيء إلا عن .. صاحبي ..

رأيت ابنته ، فقد أنجبت طفلة واحدة ، هي في الرابعة عشر الآن ، ملامحها منحوتة من وجه أبيها ، شعرها أسود ، ولكن للأسف لا تتقن كلمة عربية واحدة ، وتخليتها بعد سنوات ، عندما يقول لها أحدهم هنا ..
- ملامحك شرقية ..

فتقول له ان أبوها كان مصرياً ؟

أين صاحبي ؟ . أيقنت من غيابه التام ، لم أجده لم ألق ظلاله ، وهنا غمرني حزن عميق ، وكبحت زمام دمعى ، ولكن عندما أصر الطالب المصرى الذى صحبني على أن يسمعن شيئاً شرقياً ، وأدار اسطوانة فيروز ، وراح صوتها يسرى شجياً ، حزناً ، هنا تفجرت داخل أحزان لا قبل لى بمقاومتها ، هرعت إلى دورة المياه ، وعندما أحكمت إغلاق الباب ، بكيت ، لم أشأ أن أبكيه أمامهم ، وعندما حان وقت إنصرافى كنت كأنى أيقنت تماماً من غيابه الأبدى ، قال إبنها أنه ماض إلى مركز المدينة ، وإنه يمكن أن يوصلنى ..

ركبت إلى جواره ، وكنت صامتاً ، ينظر إلى ناحيتى فأنظر إليه ، ولا أتكلم ، كنت حريصاً ألا يصل بى إلى مدخل الفندق ، ربما لقي أبيه ، وهذا مالا أريده ..

* * *

الأحد : بعد الظهر :

صافحت الإبن شاكراً ، واستدار بسرعة ، اجتزت الباب إلى داخل الفندق ، كان والده - مترجمى - يجلس فى إنتظارى ، سألته ..

- هل تعرف من أوصلنى إلى هنا ؟

تطلع الى صامتاً ، قلت :

- ابنك .

سألنى أيهما ؟ رحت أصفه له ، لم أكن أعرف إسمه ، قال إنه الأوسط ، ثم راح يستفسر منى عن أخبار ابنه هذا ، كان يسأل بهدوء ، ولكن بتأثر ..

- قبل أن أحكى لك أخبار إبنك عندى لك خبر أهم ..

تطلع إلى صامتاً ، لم أشأ إطالة تعذيب الرجل النفسى ..

- لقد أصبحت جداً ..

صاح ..

- أنا ؟

قلت نعم ، إن حفيدته عندها الآن ثمانية شهور ، قال :

- إذن .. أنا جد ..

ثم سكت ، وسكت أنا .. تطلع ناحيتي .. قال :

- أنت أول من يخبرنى بهذا ..

لم أدر ما أقول ، راح يردد :

- إذن .. أصبحت جداً ..

وفجأة ، انحنى الرجل الطويل القامة ، الهادئ جداً ، المهذب ، الذى يبدو

بارداً أحياناً ، رسمياً جداً أحياناً أخرى .. وراح يبكى بهدوء اليم !

* * *

فى رهاب الملكة

١٩٨٨

برلين الغربية ..

عام بالضبط مضى على زيارتى لبرلين الشرقية ، بإمكانى أن أرى من هنا برج التليفزيون الشاهق الذى يقوم فى ميدان الكسندربلاتز . هناك فى الشرق ، هناك كنت منذ عام ، هنا نظام وهناك نظام ، الشوارع لا تستقيم ، إنما تنتهى فجأة بالجدار الشهير ، مبانى متجاورة ، ولكن كل منها يقع فى عالم مختلف عن الآخر ، يبدو الأمر فى جانب منه عبثياً ، ولكنه ليس أكثر عبثية من هذه الحرب الرهيبة التى راح ضحيتها عشرات الملايين ، وكان من نتائجها انقسام المدينة الواحدة إلى مدينتين ، والبلد الواحد إلى بلدين ، برلين ليست المدينة فى العالم المقسمة ، هناك مدينتين أخريين ، وقد رأيتهما ، نيقوسيا عاصمة قبرص ، ومدينة أخرى عندنا هنا فى مصر ، أقصد رفح التى يمر خط الحدود بين مصر وفلسطين فى قلب بيوتها !!

اليوم يصحبنى فى جولتى أديب وشاعر ألمانى ، أولاف مونزيرج ، محب لمصر وعاشق لها ، زار بلادنا وكتب عنها ، هادئ ، متأمل ، أصر أن يصحبنى اليوم ، كان برلينيا صميماً ، ولكل مدينة رجال يعرفون أسرارها ، وأولاف أحد الذين يحبون مدنها ، أطلعنى على جوانب عديدة لا يراها الزائرون العابرون ، توقفت معه طويلاً أمام جبل صناعى ، يطلقون عليه هنا «جبل الشيطان» ، لقد جمعوا كل ركام البيوت التى دمرت فى الحرب ، وأتوا بها إلى منطقة خلاء فى المدينة ، هكذا نشأ هذا المرتفع الهائل ، ومع سقوط الأمطار نبت العشب وأطلت

الحشائش من أطلال المباني التي حفلت وضجت بحيوانات لا حصر لها زمن
ما، ثم دمرها الحق الإنساني .

كان من الواضح أن جولتنا في المدينة قد قاربت نهايتها ، وكنت قد أدخرت
رغبتي إلى النهاية ، فمنذ مجيئي أول أمس لحضور أيام الأدب العربي المعاصر ،
ذلك المؤتمر الكبير الذي نظمته المكتبة العربية وجمعية الأدب الجديد هنا ، وأنا
أفكر أنه في موضع ما في هذه المدينة يوجد تمثال الملكة الجميلة «نفرتيتي» ، وقد
عشقته من صوره ، وتمنيت رؤيته زمناً طويلاً ، وها أنذا على بعد خطوات
منه..

إذن ... إلى المتحف المصرى ..



الفن الفرعوني القديم ، إنه الفن الوحيد الذى خصصوا له بناء مستقلاً ،
قصر قديم فسيح ، ولجته برهبة ، فهنا سأقف وجها لوجه أمام الملكة ..
الجدران كلها مغطاة بمساحات من السواد ، تبرز الفئارين البلورية الشفافة ،
المضاءة وفقاً لنظام خاص ، صفت فيها القطع القديمة المنتزعة من بلادى في
نظام بديع ، توقفت طويلاً أمام تابوت خشبى يحوى مومياء امرأة ، كشفوا
شرائط الكتاب التى تحيط برأسها فلاح لى شعرها المظفر الأسود ،
ترى من هى؟ هل من صلة تربطنى بها ؟ فوق أى أرض سعت قرب نيلنا
الخالد ؟ ، عندما كانت تعيش وعند وفاتها ، هل خطرلها مجرد الخاطر
إنها ستنتقل يوماً إلى بلاد غريبة بلاد لم تكن موجودة في عصرها ، إنما هذه
الشعوب الأوروبية كلها محدثة ، لم يكن لها ذكر في الذكر الفرعوني القديم ،
نفس هذا الخاطر راودنى في متاحف اللوفر ، وبواديست ، والمتحف البريطانى
في لندن .

حقاً ، لا تدري نفس أين يكون مستقرها ومثواها ..

الآن ، إلى الطابق الثانى ، كانت هناك رحلة مدرسية تلتف حول الملكة ،
أبيت إلا أن أقرب منها وحيداً ، ألا يشاركنى في النظر إليها آخر .. هكذا سمعت ..

* * *

لأجبت فى ..

تتوسط قاعة خصصت لها ، منها ينبعث رسوخ ، وبهاء ، وجمال لم يغن
توالى الأزمنة حسنه وملامحه ، وعندما أصبحت قريباً ، أبطأت خطاى ، اقتربت
ممسكاً أنفاسى ، حتى واجهتها تماماً ، فعقدت يدى أمام صدرى ، وتطلعت
إليها من زمن يفصلها عنى ، يقترب من الأربعين قرناً ، فما أبعد الشقة ، وأفسح
البراح ، لكنها ها هى أمامى ، متطلعة فى شمم غريب .

يعلو رأسها التاج الملكى ، من لونين أزرق فيروزى ، يعلو الجبهة شريط
ذهبى ، يتعامد عليه مفتاح الحياة الفرعونى ، ومنتصف التاج يلفه شريط تتوالى
ألوانه ، الحمراء ، والزرقاء ، والصفراء ، ومن لهم دراية بعلم الألوان يعرفون
أن الثلاثة أصل الألوان ، منهم تتفرع سائر الألوان والدرجات .

على مهل أصافح بعينى الوجه غريب الجمال ، عميق الكنه ، مستطيل فى
جملته ، نحيلة الوجنتين ، ومنه ينبعث سر الأبدية ، الذى يستغلق على الأفهام ،
ويحار الإدراك فى مواجهته ، ثلاثة مراكز تتبادل التأثير مكونة هذا الجمال
البديع ، عينان واسعتان ، مكحولتان ، فى إحداهما إنسانها الأسود ، أما إنسان
العين الأخرى فلم يوضع أصلاً ، فالتمثال ناقص ، عثر عليه العلماء الألمان فى
ايتيليه المثلال الفرعونى عام ١٩١٢ ، فى تل العمارنة ، عاصمة اخناتون زوجها ،
نقص عين وتمام أخرى لم يؤد إلى تشويه ، إنما ترك إنطباعاً غريباً غامضاً على
الوجه ، لذلك يسأل الألمان بعد زيارتها ، «هل غفرت لك الملكة ؟»

عينان ساهمتان ، ودودتان ، فيهما غيم الأزمنة المتعاقبة ، وحضور الجمال
البشرى الزائل ، الذى حاول الفن الإنسانى الإمساك به ، وقد نجح .. فهذا

التمثال لرأس الملكة يخبرنا عن المرأة الجميلة التى كانت ، بقدر ما يصون لنا مضمونها ، وبعض من سرها ، تحت العينين يمضى الأنف المستطيل متناسق ، يؤدي فى يسر ونعومة إلى غمازتين غائرتين تصلاه بالشفتين العريضتين المثلثتين ، الخصبتين ، المرتويتين ، الواعدتين ، الممتنعتين أيضاً ، شفاها ملكة جميلة ، ما بينى وبينهما أربعين قرناً .. فكيف أقطعها ، وكيف أشرع إذا رغبت ، وإذا وانتنى القدرة والشجاعة ، لم يكن باستطاعتي إلا أن أتعلق برمز .. وهذا قدرى !!

ذقن أشم ، بارز ، رقيق ، به يتم كون وجهها ، وعنده تتحدد مجرة جمالها.. ولكن هذا الوجه الذى لا يفارقه النظر إلا مرغماً يؤدي إلى عنق نحيل ، طويل ، هو أجمل عنق امرأة أطلعت عليه أو وقعت عليه عيناي ، إنه مقياس ومرجعى فى تحديد الجمال الأنثوى ، منذ أن وقعت عيني على صورة هذا التمثال والنماذج العديدة المتقدمة التى أعدته لتحاكى ، ولكن اكتشف فى مواجهته انه ما من واحد منها دنا منه واقترب ليحاكيه .

عنق مسرح ، لا يماثله فى ليونته وإنسيابه إلا انسياب أشجار السيسبان المصرية ، إذن .. هو عنق سيسبانى ، تؤطره وتحدهه مجموعة من العقود الفرعونية الملونة ، أرى زهرة اللوتس الملكية .. المصرية ، أعود لأصافح بنظرى العنق ، ما أمهر الفنان ، حتى عروق رقبتهما مجسدة مع أن اللون واحد ، لون الوجه والرقبة ، قمحى فى غير جدال ، لون أعرف مثيله فى الكثير من الوجوه الأنثوية خاصة فى صعيد مصر ..

الاذنان الرقيقان تهشمت أطرافهما .

كم وقفت ؟

يبدو أنني أطلت ، لمحت صديقى الأديب الألماني يجلس بعيداً ، لكنه يرقبه بفضول ، يبدو أن حجم إنفعالاتى كان كبيراً حتى ظهر على ملامحى ، لم أعبأ ..

على مهل تحركت ، واجهت المشهد الجانبى ، حيث تتضح خطوط الوجه والعنق أكثر ، وحيث يتغير معنى النظرة في العينين ، بحيث يتجاوز فيهما الاسترخاء والاستنفار ..

كان بإمكانى أن أرى الجانب الآخر من كوكب وجهها ، لقد وضع الألمان نظاماً خاصاً للإضاءة ، بحيث ترى الأبعاد الثلاثة منعكسة على جدران الفترينة الزجاجية ، وهكذا يمكن للناظر الإحاطة بها كلها مع أنه لا يقف إلا في مواجهة جهة واحدة منها ..

درت دورتى ، حتى عدت لأواجه هذا الجمال الإنسانى البديع ، البعيد ، وقبل ابتعداى أفضيت صامتاً بنجوى ، وأديت مراسمى ، وبحت بمكنونى ، تذكرت وأنا أترجع صوب الباب بقدمى ، فلم أشأ أن أمضى موليا لها ظهري ، تذكرت ما قاله استاذنا يحيى حقى ، عن عشقه لتمثال أميرة تجلس في متحفنا المصرى بجوار زوجها الأمير ، مرتدية ثوباً أبيض يكشف بضاضة وجودها الذى كان ..

حتى وصولى خارج القاعة كانت تتبعنى ، تتعبنى ، تودعنى ، وعندما حال بينى وبينها الجدار ، كان يمكننى عندئذ أن أقوم وضعى ، أن أولى السلم وجهى ، وعندما انتبعت إلى الصديق الالمانى أولاف ، كان يتطلع الى متسائلاً في صمت ، فلم أجبه إلا بهزة من رأسى ، وإشارة تعجب من يدى .. فماذا أقول ؟

* * *

الملكة نفرتيتى ..

زوجة الفرعون الذى يحتل مكانة خاصة في تاريخ الإنسانية ، زوجة أخناتون ، أول إنسان يدعو إلى التوحيد ، إلى عبادة إله واحد ، قاد ثورة روحية كبرى لفترة قصيرة ، ولكنها أحدثت زلزالاً روحياً هائلاً في مصر الفرعونية ، وفي تاريخ الإنسانية . نقل عاصمة البلاد من طيبة إلى تل العمارنة شمالاً ، كان

النقل بمثابة هجرة وتأسيس قاعدة لدعوته الجديدة ، ولست في مجال الحديث المفصل عن دعوة أخناتون وثورته فالمقام لايسمح ، وكتب التاريخ الفرعونى فيها الكثير ، لكننى أشير إلى ثورة التجديد التى شملت عصره ، والتى واكبت دعوته ، هذه الثورة طالت الفن ، الفن الفرعونى الذى كان يمضى وفقاً لتقاليد قديمة ثابتة .

لقد انطلقت أيدى المبدعين حرة من قيود الماضى ، مضت تصور حقائق الحياة ، وطبيعة الأشياء كما هي ، حتى تصل إلينا تماثيل اخناتون وقد صورتها فى صورته الطبيعية ، بما فيه من تشوه جسدى ، بل إن فن الكاريكاتير عرف لأول مرة فى تاريخ الإنسانية خلال هذه الحقبة ، وفى المتحف المصرى مساحات مما تبقى من أرضية القصر الملكى فى تل العمارنة حيث يمكننا أن نرى صور البط والأوز والنبات فى شكل قريب جداً من الطبيعة ، وهذا مخالف لتقاليد الفن الفرعونى القديم .

وفيما خلفه لنا من لوحات ، نراه بجوار زوجته الجميلة «نفرتيتى» دائماً ، فهى إلى جواره أثناء الصلاة ، ومعه فى شرفات القصر تطل على الجموع المحتشدة ، وهى إلى جواره عند تقليد كبار رجال الدولة الأوسمة ، ومعه عند الخروج إلى النزهة ، وهما معاً يقفان فى ساحة القصر يداعبان أطفالهما ، فالفرعون لا يجد حرجاً فى التصوير أثناء مداعبته لابنه فى حجره ، أو تصوير حزنه وحزن زوجته على احدى صغيراتهما . يبدو فى اللوحة باكياً ، وتبدو نفرتيتى نادية ، مولولة ، بينما جثمان الصغيرة ممدداً .

للأسف ، لم تحفظ لنا مصادر الفترة تفاصيل عديدة عن الملكة الجميلة ، ويبدو أنها انتهت نهاية غير طبيعية ، وإن مأساة جرت خلال حياة زوجها .

ما طبيعتها ، ماذا جرى لها ؟

هذا مجرد سر من الأسرار التى يوحى بها تمثالها ولا يبرح بها ، لا يفسر ..



في فرانكفورت مضيت إلى نيل العبد مدير مكتب مصر للطيران ، أوصاني الأستاذ جلال دويدار بالمرور عليه إذا ما واجهت أى مشكلة في حجز عودتى ، لم تكن هناك أى مشكلة، ولكننى مررت على الرجل لتحيتته والتعرف عليه ، مكتب أنيق ، يضج بالنشاط في قلب مدينة المال الألمانية .

وفي الموعد المحدد لوصول الطائرة حطت ، وفي موعد القيام قامت ، ولكم أشعر بالفخر الداخلى وأنا أجد المستوى المتقدم لطائراتنا الوطنية ، ولكم يحز في نفسى أن معظم الركاب من الأجانب ، مستوى الخدمة رائع ، أما الطيارون فهم من أمهر طياري العالم .

أما ما سرنى أكثر ، فهو مفاجأتى بصورة ضخمة لنفرتيتى تتصدر صالون الجلوس ، صورة التمثال مكبرة .

كانت الطائرة إسمها نفرتيتى .

أربع ساعات كاملة قضيتها محملاً إلى صورة التمثال ، ولكن هل أدرك من الصورة ما لم يقله لي الأصل ؟
عبثاً أحاول !!



ابادة الاشتراكية

١٩٩٠

.. من برلين الغربية ركبنا الحافلة المخصصة لجولة سياحية تمر بأهم معالم برلين الغربية والشرقية ، إقتربنا من نقطة عبور ، بوابة إسمها شارلى ، إحدى نقاط العبور القديمة ، التى تتخلل سور برلين الشهير والذى ما زال قائماً ، ولكن تم فتح أكثر من اثنين وعشرين نقطة عبور جديدة خلاله ، وخلال الشهور القادمة ، وبعد إعلان الدولة الألمانية الموحدة سوف تذوب الحدود تماماً . وتصبح برلين الكبرى عاصمة الدولة القوية الجديدة التى سوف يغير ظهورها كثير من موازين القوى فى العالم . على حافة البوابة يقوم متحف يضم الوسائل التى كان يتبعها الألمان الشرقيون للهرب إلى الغرب ، بدءاً من حفر الأنفاق ، أو استخدام المناطيد الطائرة والبالونات ، ويضم قوائم بأسماء الألمان الذين قتلوا أثناء محاولاتهم الهرب ، نصل إلى البوابة . يقف رجال البوليس الألمانى الشرقى ، يتنقلون بين العربات بخفة ، وعلى وجوههم ابتسامات ودودة ، يقول العارفون إنها لم تكن موجودة من قبل .

طبقاً للأوضاع الجديدة ، فإن مواطنى شطرى برلين يمكنهم العبور سيراً على الأقدام . أو بالسيارات ، كل المطلوب منهم ابراز بطاقة تحقيق الشخصية . أما الأجنبى القاصد برلين الشرقية فيدفع خمس ماركات غربية للحصول على تأشيرة مؤقتة تسمح له بالإقامة لمدة أربع وعشرين ساعة فى المدينة ، ولكن إذا خرج منها وأمضى وقتاً أطول فلا بد من تأشيرة عادية .

حواجز عديدة تتخلل المساحة المخصصة للعبور ، أدوات الكشف عن

الهاربين والتفتيش ما يزال بعضها موجوداً ، منها مايا كانت توضع تحت العربات بحثاً عن يكون قد تعلق بها . طوابير العربات طويلة في الاتجاهين ، أما العابرون على أقدامهم فيروحون ويجيئون بلا توقف أو انقطاع . أحياناً يوقف البوليس عربة ويبدأ في تفتيشها ، لم نتوقف طويلاً ، استأنفت الحافلة سيرها ، أصبحنا في برلين الشرقية ، جئنا قبل أربع سنوات ضيقاً على اتحاد الكتاب وجامعة مارتن لوتر في هالة . كنت مهتماً برصد التفاصيل الصغيرة في الحياة اليومية ، أيضاً مظاهر التغيير في مجتمع كان يحكمه نظام صارم ، يبدو ثابت الدعائم ، ولكنه إنهار في ساعات .

كيف ، ولماذا ؟

أسئلة عديدة ، لكن إهتمامي برصد مظاهر الواقع طغى على فضولي ، وعندما وصلت السيارة إلى بداية شارع ماركس ، أحد أهم الطرق الرئيسية في المدينة ، توقفت ، قال المرافق السياحي إنه يمكننا التجول لمدة عشرين دقيقة قبل استئناف الجولة ، غادرناها . وكان في مواجهتي مباشرة مشهد يلخص اللحظة التاريخية بكل دلالاتها .

The West

مسرح ضخم مؤقت ، منصوب في بداية طريق ماركس ، أعمدة معدنية متشابكة ، وقوائم من الألومنيوم ، مئات الواقفين يتطلعون إلى فرقة من الرقصات شبه العاريات ، ورجل يرتدى حلة سهرة اسموكن يعزف بسرعة شديدة على الكمان .

في البداية ظننت نشاط ثقافي مما تقدمه الدولة ، فالمسرح أحد الانشطة الهامة التي ازدهرت في زمن الاشتراكية . وفي برلين الشرقية مسارح هامة . منها مسرح برتولد بريخت ، والأوبرا ، ومسرح الدولة ، ومسرح هائل للمنوعات يتسع لخمسة آلاف متفرج ، والكباريه السياسي الذي كان يقدم عروضاً

انتقادية ، وقاعة استماع للموسيقى تعد من أقدم قاعات الموسيقى في أوروبا . حضرت فيها عام ١٩٨٧ عزفا للموسيقى مندلسون كان يتخلله غناء ديني ، وكان يدور حول المؤمنين الاتقياء الذين حوصروا بالملاحدة الكفرة ، وقتها لم تغب عني الدلالة ، حتى إنني أبديت الملاحظة لمرافقي فطالعتني صامتاً .

غير أنني الآن سرعان ما اكتشفت إن هذا المسرح المتنقل والمقام في بداية شارع ماركس مختلف تماماً .

المسرح إقامته شركة سجاثر أمريكية أو غربية - لا أدري - إسمها وست ، أي الغرب ، قال صديقي الروائي العرب الكبير عبد الرحمن ضيف ورقيق الرحلة ان الاسم له دلالة أيضاً .

أما العرض الموسيقي الراقص ، فكان للدعاية ، فوق المسرح ، وعلى امتداد عدة أمتار علقت لافتة ضخمة تحوى لوحة أو صورة مكبرة جداً ، جنرال من الجيش الأحمر الروسي يميل برأسه إلى الخلف ، مغمض العينين ، في حالة قصوى من النشوة . وحسناً فاتنة تضع بين شفثيه سيجارة ، بينما كتب ما نقوله بالألمانية والانجليزية .

«ذايست إند وست»

The best is west

وانتبهت إلى اللافتات المعلقة بكل الأحجام في الشارع ، شارع كارل ماركس، والذي كان اسمه من قبل شارع ستالين ، ولا أدري ماذا سيصبح اسمه بعد شهر .

كان المشهد يلخص كل شيء ، ولم أدر .. هل اضحك على زمان جديد أقبل وهل أم أبكى على ماضٍ إندثر بسرعة البرق ، مهما قيل فيه ، فإنه كان يمثل حلمًا إنسانياً هائلاً من أجل المساواة بين البشر ، وسواء أجهض لعوامل داخله أو من خارجه ، فما أنذا أشهد نهايته . في الشوارع الأخرى فرق دعاية عديدة

لشركات سجاثر أخرى . نصبت خياماً من البلاستيك ، وتوزع هدايا مجانية،
وفتيات فانتات يبتسمن ويداعبن المارة ، بينما صورة جنرال الجيش الأحمر
محطّة . والبنت الحلوة تقول له : the best is west

في برلين الغربية

ونعود إلى برلين الغربية بعد الجولة السريعة ، كنت أرجى كل استفساراتي
إلى ما بعد أيام قليلة . حيث تبدأ زيارتي إلى ألمانيا الشرقية بدعوة من اتحاد
الكتاب هناك . كان مقر إقامتنا هنا في بيت الأدباء ، قصر قديم أنيق مطل على
بحيرة جميلة هادئة ، خصص القصر كمقر للأدباء سواء من ألمانيا الغربية ، أو
من البلاد الأخرى ، يقيمون فيه لفترات ، وتنظم الندوات ، أثناء إقامتنا كان
هناك وفد من أدباء تشيكوسلوفاكيا أيضاً ، وبالقرب من القصر محطة
مواصلات رئيسية اسمها (برلين فانزا) ، أوتوبيسات برلين الغربية طالت
خطوطها الآن إلى برلين الشرقية ، ومن هذه المحطة يبدأ خط إلى مدينة بوتسدام
القريبة ، في مختلف ساعات النهار ، كانت المحطة الهادئة من قبل تشهد زحاماً
من الألمان الشرقيين الذين جاءوا في زيارة قصيرة ويعودون ، كل منهم يحمل
ما اشتراه . معظم المشتريات أدوات كهربائية يابانية ، خاصة أجهزة الراديو
والتسجيل . تبدو الماركات فوق الصناديق المستطيلة ، وكذلك المراوح ، قال
مرافقي الألماني ، إنه يعرف الألمان الشرقيين في الشوارع أو في المركبات العامة
من لهجتهم ، فثمة لهجة خاصة يتحدثون بها الألمانية تنتمي إلى مقاطعة
سكسونيا القديمة التي قامت فوق أراضيها ألمانيا الشرقية ، قال لي أيضاً إنه
يعرفهم من نوع الأحذية التي يرتدونها !

يوماً .. يجيء الآلاف من الشرق ويعودون ، ولكن يومياً أيضاً يجيء حوالى
ثلاثة آلاف ويبقون ، يقدر عدد الذين خرجوا إلى الغرب بدون عودة إلى الشرق
بأكثر من مليونين ، معظمهم أطباء وعمال مهرة ، وقد سمعت من يقول إن
برلين الشرقية قد هجرها جميع أطباؤها ، وأن حكومة ألمانيا الغربية أرسلت

أطباء لإدارة المستشفيات التي أصبحت خاوية ، هذه الأعداد الهائلة جاءت إلى الغرب سعياً وراء ظروف حياة أفضل ، معظمهم أقام في معسكرات الإيواء التي أقامتها حكومة ألمانيا الغربية في مختلف المدن والقرى ، وفي المدارس التي وضعت بها أسرة . كل سرير من طابقين . أسر بأكملها انتقلت . في برلين الغربية لا يوجد الآن مكان خال في أي فندق ، يفد على المدينة السياح المغرمين بمعايشة اللحظات التاريخية ، والصحفيون ، والجواسيس ، ورجال الأعمال الذين يدرسون كل شبر في المدينة التي ستصبح عاصمة الدولة الموحدة ، الألمان الشرقيون تظهر تجمعاتهم في وسط المدينة ، خاصة عند محطة السكك الحديدية ، التي يتجمع أمامها تجار المخدرات ، والعملية ، والنشالون ، حذرنا أكثر من صديق ، فالشوارع لم تعد آمنة ، خاصة بالنسبة للأجانب ، فالعداء العنصري تزايد بشدة ، والمصدر الأساسي له ألمانيا الشرقية التي كانت إشتراكية صارمة ، إلى أي حد تغيرت الأحوال ؟

الأجانب هم الضحايا ..

في الشارع كانت هناك مظاهرة ضخمة من العمال الأجانب . أتراك وعرب وأفارقة ، لقد صدر قانون جديد ينظم عمالة الأجانب في ألمانيا الغربية ، وفي مجله يضيق عليهم الفرص ، ويحد من وجودهم ، كان أحد المناشير التي وزعت في المظاهرة يشبه القانون الجديد بقوانين نورمبرج التي صدرت عام ١٩٣٠ ، وقسمت ألمانيا إلى قسمين ، حيث فرقّت بين الألمانى الآرى الأصيل ، وبين كل ألمانى وافد ، خاصة اليهود ، حيث فرقّت بين الألمانى الآرى الأصيل ، وبين كل ألمانى وافد ، خاصة اليهود . ومن ثم بدأ إضطهاد السامية . لا يوجد في ألمانيا كلها الآن إلا خمسين ألف يهودى فقط ، ومعظم هؤلاء يساريون ، كتبوا في شوارع برلين الشرقية لافتات ضخمة تقول ، وطننا المانى ، أو نحن ألمان وسوف نبقى هنا . وينضمون الآن إلى المنظمات اليسارية المقاومة للعنصرية . ولكن اليهود لن يكونوا الهدف الرئيسى للنازيون الجدد ، الذين ينتظمون في

الحزب الجمهورى العلى ، ويسىرون فى الشوارع حلىقو الرءوس ، يرتدون ملابس سوداء ، ويهاجمون الالانب ، أو بمعنى أدق الملونين ، قال لى شاب تونسى حصل على الجنسية الألمانية ،

«قانونياً .. أنا ألمانى ، ولكن بشرتى السمراء لا تعنى أننى ألمانى ، ماذا أفعل، هل أغير وجهى ؟ . عندنا مثل فى تونس يقول ، أحمل عصاك وأرحل قبل أن تنهال عليك عصا الغير .. وبالفعل سوف أرحل»

بالتاكيد سوف تتزايد الحركة العنصرية ضد الالانب بعد تدفق ملايين الشرقيين إلى الغرب . فهؤلاء يبحثون عن عمل . وألمانيا الغربية يقدر عدد العاطلين فيها بأكثر من مليونين ، وهنا أكثر من مليون عامل تركى يحملون عبأ اشق الأعمال التى لم يقبل عليها الألمان مثل النظافة ، والمناجم ، وغيرها ، الآن .. أصبح وجودهم هم وغيرهم من الجنسيات الأخرى غير مرغوب فيه ، والألمان القادمون من الشرق مستعدون للحلول مكانهم ، وبأجور أرخص ، وطبعاً هذا مكسب إضافى لرأس المال ، وبين العمالة الشرقية مستويات متقدمة فنياً ، وفى ألمانيا الشرقية كثير من المصانع مهددة بالتوقف أو توقفت بالفعل نتيجة هجرة العمال المدربين ، إلى سوق العمل نزل عنصر آخر ، وهم البولنديون ، إنهم على استعداد لتقاضى أجور أقل من الألمان الشرقيين ، ومن الأتراك ، وهم يشكلون الآن ظاهرة ، وجودهم كثيف . قرب السور الشهير يقام يومياً سوق فى العراء يحتظ بالآلاف منهم ، يشبه سوق العتبة ، فيه بضائع رخيصة ، ومهربة ، الظروف الاقتصادية فى بولندة أسوأ بعد أن اتضح الوهم الرأسمالى ، كل البضائع التى كانت غير موجودة زمن الاشتراكية موجودة الآن ، ولكن ما من نقود فى الأيدى ، والجوع الحقيقى يذق الديار ، قال لى أحدهم ، إن ثمة حيناً الآن فى بولندة إلى زمن ما قبل الانفتاح ، وأن الطريق الجديد فشل ، بل إن الناس يحنون إلى رجل قوى يمسك زمام الأمور ، ويحقق العدالة المهتزة.

هل يكون هذا هو الوضع في ألمانيا الشرقية بعد فترة ؟
إن الزلزال الذى بدأ فى نوفمبر الماضى ما زال مستمراً ، ولكن الأوضاع فى
ألمانيا الشرقية بالذات لن تعود إلى ما كانت عليه ، لقد إنهار النظام القديم ، والآن
يجرى تصفيته ، بل إباده بالكامل ، وبعد الوحدة سوف تصبح ألمانيا الشرقية
جرد مقاطعة متخلفة من ألمانيا الكبرى .

* * *

المهم .. أن الأجانب سوف يدفعون الثمن بسرعة ، العداء ينمو بسرعة وفى
برلين الغربية قتل المائى شرقى رجلاً من باكستان ، رجل لا يعرفه ولم يلتق به ،
وبالطبع كانت العقوبة هيئة جداً ، ترحيله إلى الشرق ، وفى لبيزج وجنوب ألمانيا
الشرقية ، التى كانت اشتراكية حتى شهور مضت — تنمو الحركة الفاشية
المعادية للأجانب ، وبالذات العرب والأفارقة والآسيويون ، وبالرغم من وجود
حوالى ثلاثة ملايين أجنبي فى ألمانيا الغربية ، فإن حدة العداء لهم لم تنمو كما
جرى فى الشرق والتى لم يزد عدد الأجانب فيها عن مائتى ألف فقط ، ويرجع
البعض هذا إلى عدة أسباب منها إنغلاق المجتمع الألمانى الشرقى مما أتاح
الفرصة للتيارات الفاشية القديمة أن تبقى تحت السطح برغم كل توجهات
النظام الاشتراكى الساندة للعالم أو حتى العاملين فى السفارات ، من التجارة فى
العملة ، والسلع النادرة ، وأدى هذا إلى أنواع من السلوك أثارت استفزازاً فى
المجتمع الألمانى ، خاصة من الشباب الذى أسفر الكثير منهم عن اتجاهاته
النازية ، فحلقا الرءوس وارتدوا الملابس السوداء ، وركبوا الدراجات البخارية
، وراحوا يطاردون الأجانب ، والذين أصبحوا الآن هدفاً لكل طاقات اليأس
المصاحبة للبطالة ، وللرغبة فى الثراء السريع ، وحياسة السلع الغربية التى
غمرت الأسواق ،

ومن هؤلاء حذرنا قبل بدء زيارتنا لألمانيا الشرقية .

* * *

.. عندما خرجت مظاهرات الجماهير الضخمة في مدينة ليبزج المطالبة بالتغيير ، كانت تهتف :

جوربى ، جوربى ، جوربى ..

وجوربى اسم التدليل للزعيم السوفيتى جورباتشوف في بلدان الغرب .
ومع استمرار المظاهرات طرأ تغيير على النداءات .

جوربى ، جوربى ، كول ..

ثم أصبح :

كول ، كول ، كول ..

هكذا تطورت الأمور بسرعة مذهلة ، انتهت بتقويض النظام الاشتراكى الذى استمر خمسة وأربعين عاماً ، لتنتقل ألمانيا الشرقية إلى أقصى اليمين ، بعد فوز الحزب الديمقراطى المسيحى فى الانتخابات ، أو بمعنى أدق فوز المارك الغربى ، الذى وعد المستشار كول بمساواة المارك الشرقى به ، وكان فى السابق كل مارك غربى يوازى عشرة فى السوق السوداء ، وفى بعض الفترات وصل إلى عشرين ، فى الأسبوع الأول من مايو أعلنت حكومة ألمانيا الغربية عن سعر جديد للمارك الشرقى ، كل واحد غربى يصرف باثنين شرقى ، تمهيداً لتنفيذ وعد كول . المارك يساوى مارك ، أى الوحدة الاقتصادية الكاملة ، الآن تجرى عملية امتصاص المارك الشرقى من الأسواق ، كما وضعت أسس لتغيير ما بأيدي ألمان الشرق ، فكل من يبلغ عمره حتى خمسة عشر عاماً سوف يقوم بتغيير ألفى مارك شرقى بمعدل واحد مقابل واحد ، وما زاد عن ذلك الواحد باثنين ، وحتى سن الأربعين يسمح بتغيير أربعة آلاف ، وحتى سن الستين يسمح بتغيير ستة آلاف مارك ، وما زاد يتم تغييره ، الغربى باثنين شرقى ، سعر المارك شغل الناس الشاغل ، كذلك الأوضاع الاقتصادية الجديدة التى سوف تنشأ فى الشرق بعد الوحدة الاقتصادية الكاملة ، مشاكل عديدة تبرز ، كنت أبحث عن التفاصيل ، المصاحبة لهذا التحول الهائل ، سواء فى الحياة

اليومية . أو الجوانب الاقتصادية ، لكن قبل هذا كله كنت أحاول تلمس الأسباب التي أدت إلى إنهيار النظام الاشتراكي بهذه السرعة ..

شماته

في تليفزيون ألمانيا الشرقية ، وفي المذياع ، يقدمون فقرات من خطاب الزعيم الشيوعي هونيكير رئيس ألمانيا الشرقية . فقرات يعلن فيها ان الاشتراكية باقية إلى الأبد في ألمانيا الشرقية ، ثم تتوقف فجأة ، ويبدأ صفير الجماهير وعبارات الاستهزاء .

في ليلة خميس ، رأيت برنامجاً يضم عدداً من الرجال مهيبى المظهر ، كانوا يتناقشون قال صديق يعرف الألمانية : أتدرى عن أي موضوع يتناقشون ؟ قال إنهم يبحثون عن وضع الراتب النقاعدي الذي يصرف لهونيكير بعد الوحدة الاقتصادية ، وهل يستحق مثله ان يقبض معاشه بالمارك الغربي ، المارك الغربي ذو القوة الشرائية المرتفعة ، هل يصرفون معاشه كاملاً ، أم يخفضونه ؟

هونيكير وأسرته الآن يقيمان كلاجثين عند إحدى الجمعيات المسيحية في قرية قريبة من برلين ^(١) ، بعد عزلة نشرت أخبار عديدة عن ثروات قام بتهريبها ، وملايين في بنوك سويسرا ، ولكن لم يوجد دليل واحد على صحة ذلك ، بعض الألمان الشرقيين حدثنوني عنه بتعاطف ، ولكن الرغبة في الانتقام من رموز النظام القديم عارمة ، لجنة شعبية قامت باجراء فحص لبيت وزير الثقافة السابق ، لماذا ؟ لكن تحدد ، إذا ما كان الايجار الذي يدفعه يوازى المساحة ام لا ؟ ، اكتشفوا أنه اقام حماماً للساونا خارج المساحة المحددة .

هناك نقص في العمالة الماهرة بعد هجرة مئات الألوف إلى الغرب ، بعض المصانع رفعت لافتات كتب فوقها :

(١) وقت إعداد الكتاب للطبع - ديسمبر ١٩٩١ - هونيكير مطارد الآن في روسيا ويبحث عن ملجأ .

«مطلوب عمال ، ممنوع تقديم عملاء أجهزة الأمن السابقين ، وأعضاء الحزب الشيوعي...»

في المساء ، وإثناء عودتنا إلى مقر إقامتنا في برلين الشرقية ، مرت بنا عربة سوداء فارغة علقت لافتة (تاكسي) ، قال صاحبنا :

«هذه عربة كانت تتبع وزارة أمن الدولة ، بيعت كل السيارات السوداء التابعة لها في مزاد علني وتحول معظمها إلى تاكسيات ..» ومرة أخرى كان التساؤل يتردد داخلي ، كيف ولماذا ؟

عنصرية جديدة

زرت ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٨٧ ، وخلال الأسبوعين الذين اقمتهما ضيفا على جامعة مارتن لوثر ، واتحاد الكتاب ، شعرت بمدى توق الشباب إلى السفر ، خاصة إلى الغرب ، كان السفر إلى الخارج محظوراً إلا لمن تجاوز سن الخامسة والستين ، كان السفر حلاً ، تغذية الدعاية الغربية المكثفة ، والتي كانت تخترق كل بيت في ألمانيا الشرقية عبر أجهزة التلفزيون ، من خلال عدة قنوات تتنافس في تقديم الصورة الوردية للحياة في الغرب . بينما التلفزيون الشرقي يقدم نشرات أخبار مطولة مثل نشراتنا العربية حول المقابلات الرسمية للقادة والسادة والوزراء ، ثم عروض كلاسيكية للمسرح ، وللموسيقى . أو أفلام عن الحرب العالمية الثانية .

نتيجة للدعاية المكثفة ، والعزلة ، أصبح كل ألماني شرقي يتخيل الحياة في الغرب كالآتي ، مرسيدس لكل مواطن ، وإجازة صيف في مايوركا !

كان مطلبه حرية الانتقال عنصراً أساسياً فاعلا خاصة بين الشباب .

الملاحظة الثانية . وطاة القبض البوليسية ، كل ستة مواطنين بينهم مخبر ، أجهزة أمن قوية ، كانت ألمانيا الشرقية تعتبر أكثر الدول الاشتراكية خبرة بالأمن .

كان هذان هما العنصران السلبيان ، في مقابل ذلك ، كان النظام في ألمانيا الشرقية قد استطاع من خلال إمكانيات البلد الفقيرة أن يصبح تاسع قوة صناعية في العالم ، وأن يوفر الاحتياجات الأساسية لكل مواطن ، المسكن ، المأكل ، اللبس ، التعليم ، إنعدام البطالة ، المحافظة على أسعار المواد الأساسية ، بحيث إن هذه الأسعار لم ترتفع على مدى أربعين عاماً . ولكن هذا كله تضاعف في مواجهة الدعاية المكثفة القادمة من الغرب ، وعندما حد من حرية الإنسان يصور له خياله مالا نهاية له عن الحياة في الجانب الآخر . كانت أساسيات الحياة متاحة ، أما الكماليات فشحيحة ، وظنوا أن الحياة هناك تبدأ من الكماليات وتنتهى بها .

الآن .. بدأ البعض ينظر بقلق إلى المستقبل ، بعد أن بدأ فصل مئات العمال من المصانع ، وبدأت الأسعار تتحرك إلى أعلى ، فالمجتمع الغربى فيه مشاكله ، وأهمها البطالة . والتضخم ، وهذه أمراض سوف تنتقل إلى المجتمع الذى يمر بمرحلة إنتقال الآن .

يقولون في ألمانيا الشرقية الآن إن النظام القديم كان يخفى الكثير من السلبيات ، فالمصانع التى كان يعلن عن تحقيقها أرباحاً كبرى . في حقيقة الأمر خاسرة ، وكان القادة الاشتراكيون يعلنون أن بلدهم هو الوحيد الذى لا ديون عليه للخارج ، ولكن اتضح الآن أن ألمانيا الشرقية مدينة بسبعة وثلاثين مليار مارك دين خارجى ، ومائة وستة وسبعين مليار مارك دين داخلى ،

قال لى ألمانى شرقى بوضوح :

«لقد أضاعوا أموالنا على نيكارجوا وموزمبيق وغيرهما ، وجاء أبناء هذه البلاد ففتجروا في عملتنا ونسائنا ، وهذا من أسباب تدهورنا ..»

ربما يفسر هذا القول بغض النظر عن صحته أو خطئه ، موجة العداء العنصرى الشديدة للأجانب في ألمانيا الشرقية . وفي تقديرى أن ذروة هذا العداء لم يكن في الأعمال العدوانية التى يتعرض لها أبناء العالم الثالث في مدن ألمانيا

الشرقية ، والتي انتقدتها صحافة ألمانيا الغربية ، إنما كان في هذا القرار الذي اتخذته رئيس بلدية مدينة درسدن أثناء زيارتي لمدينة ليبزج ، كان القرار حديث كل من قابلته ، لقد قرر عدم تشغيل أى أجنبى في درسدن ، الألمان والألمان فقط. وهذا قرار نازى بكل أبعاده .

الطريف .. أن رئيس بلدية درسدن الذى اتخذته ، كان عضواً بارزاً في الحزب الشيوعى الحاكم سابقاً .

عقدة الموز

.. سفير دولة عربية قال لى إنه مذهول مما جرى ، قبل اندلاع المظاهرات بأيام كان جورباتشوف في زيارة ألمانيا الشرقية ، عانق هونيكز عناقاً حاراً برغم ما قيل عن الخلافات بين الطرفين ، وموقف قادة ألمانيا الشرقية المعلن غير الموافق على ما يجرى في الاتحاد السوفيتى تحت مظلة البيروسترويكا . كان ياسر عرفات حاضراً هذا اللقاء ، والاستعراض الكبير الذى جرى أمام جورباتشوف ، أكثر من نصف مليون شاب ألماني شرقي يحملون المشاعل مرواً أمام المنصة ، يهتفون بحياة الحزب الشيوعى وقيادته ، لم تمض إلا أيام واندلعت مظاهرات التغيير ، وأصدر جورباتشوف تعليماته إلى وحدات الجيش الأحمر المرابطة في ألمانيا بعدم التدخل .

كان هناك ضوء أخضر أمام قوى التغيير من موسكو . هذا لا ريب فيه ، وخرجت الجموع نفسها التى كانت تنتظم في الاستعراضات والطوابير ولكن لتقوض النظام القديم ، وسرعان ما إنهالت المعاول .

كثير من مصانع ألمانيا الشرقية يجرى تصفيتها الآن ، والسبب كما يقال تخلف الآلات ، وأساليب الإنتاج ، المؤسسات الغربية تتقدم تحت بند المشاركة لشراء المؤسسات والصناعات المتقدمة ، وبالطبع تجرى تصفيته العمالة ، فلا يتم الاحتفاظ إلا بالعمالة الماهرة جداً ، أو المديرين والمسؤولين الذين يتواطئون لاتمام عمليات البيع .

دار نشر كبرى في برلين الشرقية ، كانت تضم مائة وخمسة وثلاثين موظفاً وعاملاً ، تقرر الاستغناء عن مائة ، والاحتفاظ فقط بخمسة وثلاثين . طلب منهم إعداد كتب للنشر يمكن ترويجهما ، هذه الدار كانت تقوم بدور مهم في تقديم أدب العالم الثالث . هذا توقف طبعاً ، في نفس الوقت فتحت أسواق ألمانيا الشرقية أمام منتجات ألمانيا الغربية .

اللبن الزبادى بالفواكه القادم من الغرب يباع في المتاجر ، وفوق الأرصفة . يحتل مواقع منتجات الألبان المحلية ، الانتاج يتركز في المصانع ، لا يمكن تصريفه ، مع مرور الوقت تضطر هذه المصانع للتوقف .

في الشوارع مناضد تعرض الفواكه التي لم تظهر في السابق ، وجهها الموز ، كان لدى الألمان الشرقيين ما يمكن تسميته بعقدة الموز ، فالموز يستورد بالعملة الصعبة ، وكان ظهوره نادراً ، وبكميات قليلة ، الآن جاء الموز ، والأناناس ، وجوز الهند ، والعنب البناتى القادم من أقصى أمريكا اللاتينية ، لكن المهم .. النقود التي تشتري هذه السلع ..

كان الشرقيون يذهبون إلى الغرب فيذهلون لجمال العرض ، ولتنوع المعروض ، في برلين الغربية يوجد متجر ضخمة ، اسمه ك. د. ف. يعرض ألف نوع من الشيكولاته ، وخمسمائة نوع من الخبز ، وأربعمائة نوع من السمك الطازج القادم من شتى بحار الدنيا ، ناهيك عن الملابس ، والخمور ، وأدوات التجميل ، بعض القادمين من الشرق أصابتهن حالات من الهياج الهستيرى عند رؤيتهن تلك السلع ، خاصة إنها متاحة لمن يملك النقود . وفي الغرب البعض لديه الامكانية ، والبعض يعاني البطالة والعوز ..

في ألمانيا الشرقية كان هناك نوعان من السيارات ، سيارة متقدمة اسمها فيرتبورج ، يجب على الألماني الشرقي الانتظار خمسة عشر عاماً حتى يحصل على واحدة منها ، وسيارة شعبية صغيرة اسمها ترابنت ، كان لابد من انتظار عشر سنوات للحصول عليها مقابل ثمن مرتفع حوالى عشرين ألف مارك شرقي

، بعد التطورات الأخيرة انخفض ثمنها في السوق إلى بضعة مئات فقط ، ويعلم المصنع عنها الحاح ، ولكن لا أحد يتقدم لشراؤها ، بعد أن فتحت الحدود واصبحت السيارات بمختلف أنواعها متاحة . ولم يبق أمام المصنع إلا أن يغلق أبوابه ، ويواجه الموقف نفسه عديد من المصانع الأخرى ،

* * *

في مراحل التحول الاجتماعي يكون انعكاسها على المصائر الفردية حاسماً ، في ليبزج قابلت مصرياً تزوج من ألمانية ، زوجته تعاني مشكلة حادة الآن ، فلمدة تسع سنوات ظلت تدرس لغة شعب كمبوديا ، لغة صعبة والمتخصصون فيها نادرين ، طبعاً ألمانيا الشرقية كان لها علاقات وثيقة بكمبوديا ، الآن .. ما الحاجة إلى مثل هذه اللغة ، قالوا لها : نحن لا نحتاجك . ماذا تفعل إذن ؟ إنها تتقن الفرنسية أيضاً ، اقترحوا عليها أن تعمل جرسونة في فندق سياحي ، وقبلت ، فليس هناك بديل .

المثقفون عامة والكتاب خاصة بدأت معاناتهم ، فالكتاب والفنانين كان لهم وضع متميز في النظام الاشتراكي ، يعيشون شبه متفرغين ، أعرف روائياً ألمانياً أصدر كتاباً واحداً ، استطاع أن يعيش منه لمدة ثلاث سنوات ، تحول إلى فيلم ، إلى مسلسل تليفزيوني ، كثيرون كانوا يحصلون على منح تفرغ ، الآن .. وضعهم غامض ، لابد أن يعملوا في مهن محددة حتى يمكن لهم العيش .

* * *

في السوق بمدينة ليبزج أوقفني شاب ملتحي ، قدم إلى جريدة من أربع صفحات ، يوزعها مجاناً ، سألت مرافقي عن مضمونها ، قال إنها ناطقة باسم جماعة ماركسية أصولية ، ترى انه من الضروري العودة إلى الأصول ، وتمجد ستالين باعتباره زعيماً شيوعياً عظيماً بنى الدولة الاشتراكية وحافظ عليها في ظروف بالغة الصعوبة ، كان ذلك مثيراً لي ، بعد أن كان الشيوعيون في السلطة ، ينقسمون إلى جماعات ، ويوزعون منشوراتهم في الشوارع ، إلى متى تسمح

السلطة الجديدة بذلك ، وهؤلاء الماركسيون الأصليون ، هل تنمو قوتهم في المستقبل ، أم يتحولون إلى شكل من الفولكلور السياسي ؟

* * *

في برلين الشرقية مضيت بصحبة عبد الرحمن منيف لزيارة النصب التذكارى للجنود السوفييت ، عشرون ألف ضابط وجندى سقطوا في برلين قرب نهاية الحرب العالمية الثانية ، النصب شيد في زمن ستالين، في مكان تحيطه الأشجار العالية ، ساحة عريضة تؤدي إليه ، تمثال لأم روسية تنحن باكية ، ترثى ابنها ، وتمثال لكبار القادة وأشهر المعارك ، في النهاية تمثال ضخم لجندى سوفيتي يطأ بقدمه الصليب المعقوف ، المكان موحش جداً ، عليه سمات المقابر ، متوارئى عن الأبصار رغم ضخامته ، لاحظنا وجود حراسة مشددة ، السبب أن أعضاء الحزب النازي الجديد غاضبون بسبب التمثال الذى يطأ الصليب المعقوف ، بعضهم يجيء ويصق عليه ، على النصب كله ، وهناك تهديدات بنفسه . وفي تقديرى إن هذا النصب سوف يختفى خلال سنوات قلائل ، لن يستمر مع المرحلة التاريخية الجديدة ، عند إنصرافنا منه ، تساءلت بصوت مرتفع ،

- ترى .. بعد توحيد ألمانيا ، كم من السنوات ستمضى ليظهر هتلر جديد ؟

قال لى عبد الرحمن منيف

- تصور .. هذا ما كنت أفكر فيه بالضبط

طفل .. ضال

١٩٩٠

كنا ثلاثة

الروائي العربي عبد الرحمن منيف ، والدكتور نشأت الحمارنة وهو طبيب وسياسي سوري قديم ، هجر الطب والسياسة . وتفرغ لكتابة وتدوين تاريخ الكمالة العرب كما عرفوا في الزمن القديم ، أو أطباء العيون كما يعرفون الآن . من أجل ذلك يقيم الدكتور نشأت هنا في برلين - التي كانت شرقية - منذ عدة سنوات .

دعانا الرجل إلى إحدى ضواحي برلين ، للأسف لم أدون اسم المكان في مفكرتي ، ربما شغلني جماله وتفرد ، فثمة بحيرة مترامية الأطراف تحيط بها منطقة خصبة الخضرة ، كثيفة الأشجار ، تتخللها فنادق أنيقة لا يتجاوز ارتفاعها أربعة طوابق ، كانت مخصصة كاستراحات للعاملين في المؤسسات والمصانع لقضاء أوقات الاجازات ، أما الآن فقد تم بيعها إلى إحدى المؤسسات الفندقية الغربية ، ارتفعت أجور الإقامة بها ، وبدأ يفد إليها الاثرياء من الغرب ، وظهرت في صالات الاستقبال الصحف الغربية كلها بما فيها المجلات الجنسية العارية التي كانت ممنوعة في زمن الاشتراكية المندثر .

كنت أتطلع إلى مثل هذه المنشآت ، وأردد لازمة ساخرة كان يبتسم لها عبد الرحمن منيف :

«طبيب ومالها الاشتراكية... ما عملت حاجات كويسة برضه أه!!»
كان المؤرخون العرب القدامى عندما يموت شخص ما ، يعدون محاسنه

ومساوئه ، خاصة إذا كان حاكماً أو سلطاناً ، ولو اتبعنا نفس الطريقة مع النظام الاشتراكي ، فسوف نجد المحاسن والمساوئ . والحديث في هذا يطول ، ولكنني اكتفى بالقول معلقاً على ما جرى من تحولات أن القول العربي القديم « راحت السكرة وجاءت الفكرة ينطبق الآن على الناس في ألمانيا الشرقية » ، المهم.. إننا كنا نتبادل الحوار حيناً . أو نصمت في معظم الوقت بتأثير الخضة الكثيفة ، والهدوء الطاغى ، والجمال المنتشر ، كان الوقت قد تجاوز العصر ، وحضور الناس قليل جداً ، وفي إحدى الممرات التي تتخلل الغابة ، ظهر طفل صغير ، ربما في العاشرة ، أو التاسعة ، اعترض طريقنا ، كان يمسك بين أصابع يديه بضعة ماركات معدنية ، وعندما مشى بمحاذاة متطلعاً إلينا . سألت الدكتور نشأت عما يقول : فأجابني إنه يريد منا أن نعطيه قليلاً من المال لأنه جائع ، ويريد طعاماً .

هذا غير مألوف في ألمانيا الشرقية ، هل من المعقول ظهور اعراض الرأسمالية بسرعة هكذا ؟ ، حتى في الغرب لا أذكر أنني رأيت شحاذين يمدون الأيدي ، خاصة الأطفال الصغار .

أبدى الدكتور نشأت اهتماماً ، وبدأ يتكلم مع الطفل الذي بدا ذكياً ، ولكنه يعاني حالة من الإهمال الشديدة ، فشعره الأشقر الغزير مرتب ، متسخ ، وقميصه ممزق عند الكتف ، وحذائه كالح الجلد ، قال عبد الرحمن منيف إن حالته غير طبيعية ، وعندما إنتهى الدكتور نشأت إلينا ، سمعنا منه ما أثار شفتنا وأحزاننا ..



قال الدكتور نشأت إن الطفل يمر بحالة نفسية صعبة ، أفقدته مناطق من الذاكرة ، فهو لا يعي إلا أنه من إحدى القرى الصغيرة الواقعة على الضفة الأخرى من البحيرة ، لكنه لا يذكر اسمها ، وأنه اضطر إلى مفارقتها أمس ، جاء إلى هنا بالعبارة ، لماذا قارقها وهرب منها ؟

بصعوبة ، وفي جمل مشتتة ، قال إنه كان يعيش مع أمه في شقة صغيرة ، في بيت من طابقين ، لا يذكر والده ، ولم يره في حياته ، كانت أمه عاملة في إحدى المؤسسات الصغيرة ، لا يذكر اسمها أيضاً ، ولكنها لا تفيق من الخمر ، تشرب دائماً ، معظم الوقت لا تفيق . في الطابق العلوي يسكن رجل مع أسرته ، يضايقونها دائماً . وأول أمس عادت الأم مخمورة ، نامت ، وفي الليل استيقظ الطفل على صمتها ، وليس على ضجيجها ، أو شخيرها المعتاد .

لسبب ما شعر بالقلق ، وعندما نظر إلى مرقد أمه شعر أنه يواجه شيئاً ما لم يسبق له أن عرفه ، أو اطلع عليه ، ناداها فلم تجبه ، لمسها فلم تبد رد فعل ، دفعها فلم تتحرك ، أصيب بحالة من الرعب . صرخ ، صرخ ، جاء الجار غاضباً ، لماذا يثير الضجيج في الليل ؟ ، دخل الرجل مع امرأته إلى الشقة الصغيرة ، وبدلاً من إسعاف الأم ، أو محاولة طلب إغاثة ، إنطلقا في المكان الضيق يقربان الأشياء ، يبحثان عن أى شيء مخبأ ، مخفى ، وعندما التقت عيناه بعيني الطفل المرتع ، حذق إليه بقسوة جعلت الصبي الصغير يرتجف رعباً وفزعاً ، تراجع خطوتين ، وبما تبقى فيه من طاقة إنطلق يجرى محاولاً الاختفاء عن العيون ، مفارقاً المكان كله .

* * *

إن حالته النفسية سيئة جداً .

عبثاً حاولنا عن طريق الدكتور نشأت - الوحيد منا الذي يجيد الألمانية كإهلها - أن نعرف أى تفاصيل أخرى ، كانت نظراته شاردة ، يتحدث وهو يتطلع حوله خائفاً ، ثم يضحك فجأة ، اتفقنا على أن الطفل يعاني صدمة عصبية شديدة ، خاصة عندما يذكر الجار الشرير الذي سرق كل ما تحتويه الحجرة قبل تفكيره في إنقاذها ، أو تغطية وجهها !

أى شر تحويه الدنيا ؟

أى مأساة حية ألقت بها المقادير فى طريقنا ، نحن الذين
ماجئنا إلى هذا المكان إلا لتمضية ساعة أو ساعتين قبل عودتنا إلى
مقر إقامتنا فى برلين .

الواجب الإنسانى يدعونا إلى إنقاذ الطفل ، لا ندرى ماذا سيحدث له ،
خاصة إن الليل يقترب ، وهو جائع ، وحيد ، كما يبدو أنه اثتنس بنا ، إذ راح
يتطلع إلينا بود ، وأحياناً يبتسم .

خطوة أولى ، لابد أن يتناول طعاماً ما ليسد جوعه . اتجهنا إلى داخل
الفندق القريب ، المطعم أغلق ، قص الدكتور نشأت على موظفة الاستقبال
الشابة ما جرى للصبي ، أبدت تأثراً ، دخلت إلى الغرفة الملحقة بالمكتب ، رجعت
بزجاجة مياه غازية ، وبسكويت ، ربتت عليه ، قال الصبي إنها المرة الأولى فى
حياته التى يدخل فيها إلى فندق .

اصطحبته الموظفة إلى إحدى غرف الطابق الأول الخالية ، بعد ذهابهما
تساءلت عن الخطوة التالية ، قال الدكتور نشأت إنه ملتزم بإنقاذ الطفل ، لن
يتركه ، وإذا تعذر الوصول إلى قريته من خلال حديثه ، فسوف يصحبه معه إلى
اسرته حيث يقيم ويحيطه بالرعاية حتى يتجاوز صدمته .

قلنا إن هذه أفكار جيدة ، ولكن ألا توجد جهة رسمية يمكن أن نضع أمامها
حالة الطفل .

قال نشأت ، طبعاً يوجد البوليس .

تبادلنا الرأى ، واتفقنا على ضرورة إبلاغ الشرطة ، قالت موظفة الإستقبال
إن الطفل يمكن أن يبقى بصحبته فى أمان ، ولكن من الأفضل الإتصال
بالبوليس ، فمراكز الشرطة لديها بيانات بالمتوفين ، وبأسماء المواطنين
ويمسكنهم بسهولة التوصل إلى معرفة اسم اسرته . وأقاربه إذا كان ثمة
أقارب .

قام الدكتور نشأت إلى الهاتف ، أجرى اتصالاً ، ثم إتصلاً آخر ،
كان الطفل يتابع ما يجري وكان الأمر يخص غيره . وبدأ أمنا ، سعيداً
بوجوده في الفندق ، قال إن الغرف نظيفة جداً ، وأن المكان جميل ، ثم قال إنه لم
يرقد فوق سرير مثل الذى رآه .
ودمعت عيني موظفة الاستقبال . وإنابتنا جميعاً حالة من
الأسى .

وعندما قال الصبى إنه يريد الذهاب إلى دورة المياه ، اشارت الموظفة إلى
الباب المرسوم فوقه رجل . بعد لحظات عاد الصبى ، قال بمرح إنه وضع
ماركا في الطبق الصغير الموضوع فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للبَاب ، أدرك
أن هذا هو المتبع فامتثل .

تحدثت إلى الصديقين عن إستعداد الولد الخلقى ، والذكاء
البادى من عينيه . تساءلت حائراً ، كيف يجهل اسم والده ؟ ، كيف لم يلج
إليه ؟

قال الدكتور نشأت ، إن النظام الإجتماعى في اوربا الآن مختلف ، فعندما
تنجب امرأة طفلاً . لا يسألها أحد ، ابن من هذا ؟ . ليس ضرورياً أن تكون
متزوجة أو لا ؟ ، وفي الدول الغربية حيث يتناقص عدد السكان ، ما يهمهم هو
أن يأتى الطفل ، وليس مهما الطريقة التى جاء بها ، وفي كثير من الأحيان تكون
الأم جاهلة بوالد الطفل لتعدد علاقاتها الجنسية ، حتى إذا كانت تعرفه فلأنها
تعطى ابنها الاسم الذى تحدده هى ، وفي الغالب لا يكون اسم الأب . هذا وضع
شائع جداً الآن في اوربا بشرقها وغربها ، وخلال زيارتى الاخيرة لباريس ،
رأيت في محطة التلفزيون الامريكية ان . ان . سى والتي تبث أخباراً لمدة أربع
وعشرين ساعة . رأيت برنامجاً عن أب أمريكى في الثالثة والأربعين متزوج من
ابنته _ تسعة عشر عاماً _ وخلال البرنامج كان المذيع يسأل عن أدق التفاصيل،
وشكل العلاقة ، والمشاهدون يتصلون على الهواء مباشرة ، ليسألوا الأب

والابنة التي كانت الأم قد منحتها اسماً آخر بعد انفصالها عن والدها . كان واضحاً من ملامحهما أنهما يمثلان حالة مرضية ، ولكنها في تقديرى ليست حالة فردية ، ولكنها حضارة بأكملها تتحلل خلقياً وإجتماعياً .

أخيراً .. وصل البوليس ..

* * *

سبحان مغير الأحوال :

كان مجرد ظهور رجال البوليس الألماني الشرقي بزيهم الرمادي ، والنجمة الحمراء التي تتوسط غطاء الرأس يثير الرهبة والحذر ، نزل من السيارة ثلاثة ، تقدم أعلاهم رتبة ، كانت تفوح منهم رائحة عرق ، وكان يبدو عليهم الضجر ، واللامبالاة ، لاحظت أن ملابسهم غير معتنى بها .

راح الضابط يصغى إلى الدكتور نشأت ، كتب بعض المعلومات في مفكرته ، قدم نشأت بطاقته ، وأكد على ضرورة الإتصال به عند التوصل إلى أى نتائج محددة ، لم يفت نشأت أيضاً أن يكتب اسم الضابط ورقم هاتفه .

صافحنا الصبي ، رحت أتأمل هذا الكيان الإنساني الصغير الذي جاء إلى العالم ربما كنتاج لحظة ضجر ، أو ملل ، أو علاقة عابرة ، وفي مكان ما الآن يسعى والده المجهول ، كنت أفكر في وحدته ، ورعبه كلما تذكر الجار الشرير ، عندما إستقر في المقعد الخلفي للسيارة كان مبتسماً ، راضياً ، لوحنا له . ولوح لنا حتى دارت السيارة عند المنحنى .

* * *

العاشرة ليلاً في منزل الدكتور نشأت . نتأهب للإنصراف عبد الرحمن منيف وأنا إلى مقر إقامتنا .
رن الهاتف .

إتجه نشأت إليه ، راح يصغى ، وتعبيرات عديدة تتوالى عليه ، لسبب ما
خمنت إن المكالمة لها علاقة بالصبي ، بعد أن وضع السماعة ، وبعد لحظات
صمت .

- فعلاً ، الشرطة كانت تتكلم . لقد عرفوا إسم الصبي ، وتوصلوا إلى والديه ،
الآب والأم .. نعم ، فالصبي اعتاد الهرب منهما ، وتلك هى المرة الثالثة التى
تعيده الشرطة ، والموت المفاجئُ للآم المخمورة ، والجار الشرير ، والصدمة ،
والقرية النائية ،

قال عبد الرحمن منيف ..

- تصورا !

ولم أعلق !

* * *

مقتنيات .. باريسية

مارس ١٩٨٢

« .. باريس للمرة الأولى »

كان ذلك في عام ١٩٧٩ ، ما أسرع مرور الزمن ، فقد مضى ثلاث سنوات كاملة منذ ذلك الحين ، وخلال هذه الفترة ترددت على باريس خمس مرات ، وفي كل مرة كنت أقضى مدة تتراوح بين خمسة عشر يوماً ، وشهر ، وكانت الزيارة الأخيرة في فبراير الماضي ، كنت شأن معظم أبناء جيلي ، لم تتح لنا فرصة التعليم في أوروبا الغربية كما أتاحت لعدد من كتاب الأجيال الماضية ، الذين كانت ظروف أسرهم تسمح بإرسالهم إلى الغرب على نفقتهم ، أو من خلال البعثات الدراسية ، وعندما عملت في الصحافة لم تتح لي الفرصة للسفر إلى الغرب ، فالتفت عندنا له مقاييس أخرى ، إما بحكم العمل ، أو تغدق فرصه على المصطفين والمحظوظين ، وهؤلاء لسنا - والحمد لله - منهم ، اقتضى مني الأمر إخار طويل ، حتى وضعت قدمي لأول مرة في أغسطس عام ١٩٧٩ ، في الطائرة المتجهة إلى الغرب ، إلى لندن ، ثم إلى باريس .

وعلى الرغم من زياراتي التي تكررت منذ ذلك الحين ، فلم أستطع أن أكتب كلمة واحدة عن هذه المدينة التي طالما حلمت بزيارتها ، والتجول فيها ، والوقوف عند مظاهر الحضارة الغربية فيها ، وكثيراً ما يفاجئ الحنين الإنسان إلى مكان عرفه وعاش فيه في وقت يكون بعيداً عنه ، ربما هذا الحنين هو ما يدفعني الآن إلى استدعاء تلك المقتنيات الباريسية .



.. باريس مدينة تستقر بالقرب من سقف العالم ، تلك السماء المفتوحة ،
المضيئة ، حتى في أيامها الشتوية ، الرصاصية اللون ، تذكرة عبارة «مدينة
النور» هذا الوصف الذى قرأناه في لغتنا العربية مراراً ، في النهار يتدفق الضوء
حتى إلى الشوارع الضيقة وفي الليل تتلألأ المدينة بالاضواء الصناعية ، الطرق ،
المباني ، الآثار التاريخية ، وأن كانوا أخيراً بدأوا في إطفاء العديد من هذه
الاضواء قبل منتصف الليل توفيراً للطاقة ، وهكذا يتحول برج айفل إلى شبح
هائل في الظلام تلمع فوقه لمبة حمراء لتحذر الطائرات المقتربة فقط .

في الزيارة الأولى التقيت بالصدیق الكبير أحمد بهاء الدين ، قال لى ضاحكاً :
- لكم أود أن أسمع انطباعاتك عن باريس ..

كان يعرف القاهرة القديم الكامن في أعماقى ، والذى يرى هذا العالم
الفسيح بعيني ابن الجمالية ، وقصر الشوق ، وصحبته طويلاً خلال شوارع
الحى اللاتينى ، والمقاهى ، .. لقد كان دخولى إلى باريس ، وجواز مرورى إلى
قلب المدينة ، أو جواز مررها إلى قلبى ، تلك المقاهى ، عندما تجولت في لندن ،
شعرت بأن ثمة شيئاً ينقصنى ، شىء مبهم غامض ، ثم عرفته في باريس ،
لندن مدينة بلا مقاهى ، والمقهى عندى يعنى الرصيف والونسة والفرجة على
العالم ، والرائح والغادى ، صحيح إن البيت الإنجليزى له عالم خاص ، ولكنه
مغلق ، مفتوح إلى الداخل ، والزبائن فيه يتبادلون الحديث أو يصمتون ولكنهم
يقفون ولا يجلسون ، القاعدة هناك الوقوف ، وكثيراً ما كنت أتأمل أحد
الإنجليز يمسك بكوب البيرة الضخم ، ويقف وحيداً ، صامتاً ، ينقل ثقل جسمه
من ساق إلى أخرى ، بينما يحملق إلى الفراغ ، أو ينظر إلى بعض المتحدثين بينما
تتغير ملامح وجهه من حين إلى حين ، وكأنه يشاركهم الحديث بالنظر ،
وأحياناً تجيئ فتاة فتجلس في ركن معتم قليلاً ، وتشرب بسرعة من فنجان
القهوة ، أو كوب البيرة ، أو كأس الويسكى ، وتقلب مجلة بسرعة ، ثم تمضى ،
في باريس يختلف الأمر ، فثمة عدد كبير من المقاهى ، تمد في الرصيف مقاعدها

في العراء ، وفي الشتاء يرى الجالسون فيها المارة من خلال حاجز زجاجي شفاف أنيق ، المقاهى الباريسية أنيقة جداً ، خاصة تلك التي تقع في الشانزليزيه ، ومونبارناس وميدان الأوبرا ، كثيراً ما قرأت مقالات عديدة لكتابنا حول تلك المقاهى ، وقد أمدتني بإمكانية الجلوس فوق الرصيف ، والتطلع إلى المارة ، أو لقاء بعض الأصدقاء ولكن فيما عدا ذلك فقد ازداد حنيني إلى المقهى العربى ، في القاهرة اعتدت إرتياد عدد من المقاهى ، الزبائن يعرفون بعضهم ، وصاحب المقهى يبلغ رسالة من هذا لذاك ويستقسر عن زبون اختفى أياماً ، بالطبع اتحدث عن المقاهى القديمة العريقة ، في المقهى القاهرى يمكن للزبون أن يقضى ساعات طوال لم يتناول فيها إلا مشروباً واحداً ، شاي قهوة، نرجيلة ، يمكنه أن يشتري طعاماً من مطعم مجاور ويأكل ، وبمجرد أن يلمح الجرسون لقافة الطعام يأتى على الفور بأكواب المياه ، ولكن في مقاهى باريس يختلف الأمر ، فالفترة الزمنية التي يقضيها الجالس لابد ان تصاحبها نسبة معقولة في عدد الطلبات ، والمقاعد الأنيقة جداً - معظمها يتخلله الخيزران ومذهبة - مصفوفة بحيث إن كل الجالسين ينظرون إلى الأمام مباشرة ، ولا يتواجهون ، أما الجرسون نفسه فمظهره أنيق ، بإختصار «بك» ، ولاحظت أن نوبات عملهم تتغير كل ساعتين تقريباً ، أين ذلك من مقاهينا نحن ، حيث تمتد النوبة إلى اثنتى عشر ساعة ، وفي نهاية الأسبوع كان عم عبد الحميد جرسون مقهى الفيشاوى القديم ، يتسلم عمله لمدة أربعة وعشرين ساعة كاملة ، يقف ، يروح ويجىء ، يلبي طلب هذا ، ويرضى ذاك ، وكثير من الزبائن في مقاهينا لا يدفعون الحساب إلا آخر الليل ، ويتعين على الجرسون العربى أن يكون حديدى الذاكرة ، فاذا أبدى الزبون شكاً عند نقطة معينة يذكره الجرسون مثلاً : «انت طلبت هذا الشاي عندما جاءك فلان وكنت تجلس هنا» الأمر مختلف في المقاهى الباريسية ، فالطلب يجىء ومعه ورقة صغيرة مطبوع عليها الثمن ، ومضاف إليه نسبة مقابل الخدمة ، ويتحرك الجرسون الأنيق الذى يرتدى

الجاكت الأبيض والبنطلون الأسود ، والبابيون ، أنيقاً ، صامتاً ، لا يستجيب لدعابة ، ولا يتبادل حواراً مع أحد الجالسين ، وكل ما يلفظه بعد قبض الحساب «مرسى» ، ولكن هناك ثمة فروق طفيفة بين عدد من المقاهى ، فالمقاهى التى يرتادها السياح ، أى ما يطلق عليه فى مصر «مقاهى الزبون النقالى» ، تجد فيها الخدمة سريعة ، وبدون عناية ، والوجوه متجهمة دائماً ، أما المقاهى غير المطروقة من جانب الأجانب ، وتلك موجودة فى الضواحي ، أو فى الأحياء البعيدة عن البؤر السكنية ، فتلك يمكن .. يمكن أن تشعر فيها ببعض الدفء خلال التعامل ، ولكنه دافئ لا يصل إلى حد التواصل ، المثقفون فى العاصمة الفرنسية يشيرون بإعتزاز إلى بعض المقاهى ، هذه المقهى فى مونبارناس كان يجلس فيها سارتر ، وهذا المقهى فى موغادتر كان يرتاده بلزاك ، وهناك مقاهى معروفة ببعض الرواد دون غيرهم ، فمقهى الفوكية بالشانزليزيه يرتاده رجال المخابرات ، جميع المخابرات العربية والإيرانية ، وربما .. الاسرائيلية ، ومقهى التر كاديرو ، معظم رواده من الايرانيين ، وبجواره مقهى آخر معظم زبائنه من اللبنانيين ، ومقهى جورج سائك لبعض السياسيين العرب المنفيين أو الذين اختاروا النضال فى باريس ، عندما كنت أجلس إلى أحد الأصدقاء ، وأتحدث بصوت مرتفع معبراً عن مكنون رأى ، فهنا على بعد آلاف الأميال من مقاهينا التى ينتشر فيها البصاصين ، وهنا بلاد أجنبية ، وأنا أجنبى فيها ، ولغتى بالتأكيد غير مفهومة إلا لمن يعرفها ، ومشكلتى أننى لا أستطيع الهمس ، فوجئت بصديقى العربى يقول لى ..

.. خللى بالك ..

وتساءلت :

.. من ؟

قال محذراً ..

.. فى هذه المقاهى من يصغى .. ثم يكتب التقارير ..

وصحت مفتاظاً ..

— هنا أيضاً ؟!

من الواضح أن أشهر المقاهى الباريسية يستمد قيمته من التاريخ ، من الكتاب والفنانين ، والتاريخ هنا قشرته رقيقة ، ولأسف ينقصنا في بلادنا الوعي به ، في بداية ١٩٦٩ أصدر محافظ القاهرة قراراً أحرق بهدم مقهى الفيشاوى القديم ، وتحول المقهى العريق إلى مسخ شائه الملامح ، وفي هذه الأيام تجهز المعاول على مقهى ماتاتيا بميدان العتبة حيث كان يجلس جمال الدين الأفغانى ، وسعد زغلول ، والشيخ محمد عبده ، وتحول معظم مقهى عربى فى العباسية إلى بوتيك ، واندثرت مقاهى أخرى هامة ، فى الوقت الذى بدأت تنتشر فيه دكاكين اشبه بالمقابر مكيفة الهواء ، ألوانها صارخة ، ومناضدها متقاربة ، وتتردد فى أرجائها أنغام الديسكو الصاخبة ، وهذه المحلات بدأت تظهر فى باريس ، محلات السندويتشات السريعة ، إنه تأثير الحياة الأمريكية ، لكنه مكروه هنا ، وينتقد بشدة ، أما نحن فى القاهرة فنقلده تقليداً أعمى ، المشكلة ، هى الوعي بالتاريخ .

* * *

كنت أقف على رصيف المترو ، عندما ظهر فجأة قبل الرصيف بمسافة قليلة ، بينما يمتد النفق المظلم فى جوف الأرض إلى مسافات بعيدة ، العجلات مغطاة بطبقة من الكاوتشوك حتى يخفف من تأثير الضجة التى تحدث عندما تحتك بالقضبان لكن عند إقترابه يصدر عنه صوت ثقيل الوطأة ، يتوقف ، تفتح الأبواب ، أسرع بالصعود إلى العربى ، أملاً فى الجلوس ، ولكننى أرى عدداً من المقاعد الخالية ، وكثرة من الواقفين ، فى المرات الأولى جلست ، ولكننى لم أشعر بعد ذلك بالحاجة إلى الجلوس إلا إذا كنت متعباً ، فى المترو يجلس أو يقف الجميع ، محمقين إلى الامام ، الأحاديث المتبادلة نادرة ، الجميع صامتون ، وفى خضم هذا السكون الآلى نجد رجل وامرأة إنهما فى عناق محكم وقبلات طويلة

«يعنى حبكت»، وأعجب من هذه القبلات الطويلة وهذا الهدوء الذى يظل يكسو وجهى الرجل والمرأة على السواء ، بينما لو وقفت عند بداية هذه القبلة فقط فيسشتعل كيانى الجسدى بالنار فوراً ! .

بمجرد أن يفتح الباب ، يندفعون كأن آلات خفية مخبأة فى أجسادهم ، الخطى سريعة ، إيقاعها متشابه ، نفس الإندفاع إلى السلالم المتحركة ، حيث تؤدى الممرات إلى خطوط مترو أخرى ، أو إلى سطح الأرض ، أرى أحياناً بعض العازفين ، كمان أو جيتار فى الأغلب ، يؤدون بعض المقطوعات ، ثم يمرون على الركاب ، يمدون كيساً صغيراً من القماش لتلقى قطع معدنية صغيرة ، فى خطوط المترو الباريسية يبدو التقسيم الطبقي واضحاً والذى يجعل من باريس عدة مدن فى مدينة واحدة ، لاحظت أن عربات المترو التى تعمل على خطوط الأحياء الأنيقة أحدث طرازاً ، وأنظف ، وأوثر ، أما العربات التى تمر بالأحياء الفقيرة ، فمن طراز متخلف ، وتبدو أكثر قذارة ، وتعمل هذه العربات على الخط الذى يمر بمحطة باربايس حيث يوجد تجمع للعمال الجزائريين والمغاربية الفقراء ، وتتغير أيضاً نوعية الركاب فى خطوط المترو طبقاً للأحياء التى يمر بها ، ويبدو التقسيم الإجتماعى الحاد هنا أيضاً من خلال التجول فى أحياء المدينة ، فى منطقة بلغيل الفقيرة حيث ولدت اديت بيباف المغنية الكبيرة ترى الوجوه غير حليقة اللحى ، والقمامة فوق الأرصفة ، والسحن متعبة ، هنا يتواجد العمال المهاجرون من بلاد عديدة ، خاصة شمال افريقية ، وهنا أيضاً يتواجد عدد كبير من اليهود ، أما فى باربايس التى تقع على بعد عشرات الأمتار من البيجال ، حيث المولان روج ، ودكاكين الجنس ، وحانات الدعارة ، حى تجارة الجسد ، فى باربايس يتدهور المستوى الإجتماعى إلى حد كبير ، سكان المنطقة أغلبية من الفقراء ، وإلى أعلى ، تطل على المنطقة كنيسة القلب المقدس التى تشرف أيضاً على حى مونمارتر ، حى الرسامين ، وهكذا تتجاوز المناطق الفقيرة والغنية فى باريس ، ولكن ثمة خط غير مرئى يفصل كل منطقة عن

الأخرى ، وإن لم يمنع هذا تداخلهم أحياناً ، ذات ليلة في شارع الشانزليزيه أشهر شوارع الدنيا ، في خضم المارة وإعلانات السينما ، وتلؤلؤ الأضواء رأيت رجلاً عجوزاً يبحث عن بقايا طعام في إحدى علب القمامة ، وفي محطات المترو خاصة في الليل ، يتمدد الكثيرون فوق المقاعد المتجاورة ليقضوا ليلهم ، وهؤلاء إما أغراب يلا مأوى ، أو من هذه الطائفة التي يسمونها هنا «الكوشار» ، وهم يعيشون في انفاق المترو ، وانفاق المجارى ، في محطات المترو يصبح الشعور بالأمان ضعيفاً ، خاصة في الليل ، فوق الأرصفة شبه الخالية إلا من المتسكعين أو في تلك الممرات الطويلة ، الملتوية التي تصل الأرصفة ببعضها ، ويتضاعف هذا الإحساس بالنسبة للأجنى ، ويتعاظم عند الأجنى القادم من العالم الثالث ، تذكرت ما جرى لى في لندن ، عندما كنت متجهاً إلى منزل الصديق مجدى نصيف ، والواقع في ضاحية هيبز قرب المطار ، يبدو اننى شردت بتفكيرى ، فنزلت من القطار في محطة (ساوث هول) التي تسبق (هيبز) ، ولأن محطات القطار متشابهة ، والشوارع المؤدية إليها أيضاً ، فقد خرجت من محطة القطار ، ومشيت ، وطال مشيى بدون أن أصل إلى منحنى ، كنت احتفظ بمعاله جيداً ، ثم لاحظت أن الوجوه متغيرة ، فمعظمها لهنود وباكستانيين ، وأدركت اننى ضللت الطريق ، دخلت إلى كشك التليفون ، الأحمر ، الحديدي ، وبدأ عبر الأسلاك أصف للصديق مجدى المنطقة التي أتواجد فيها ، وفوجئت به يقول :

ـ ما الذى ذهب بك إلى ساوث هول ، إنها منطقة صراع عنصرى حاد بين الملونين والبيض .. وكانت مسرحاً لاشتباكات عنيفة منذ اسبوعين ..
وتذكرت ما قرأته في الصحف عن مقتل البيض ، وجرح الآخرين ، واشتعال الحرائق ، وعندئذ قلت لمجدى ..

ـ خذ عربة أجرة وتعال إلى ساوث هول .. وحتى ذلك الحين لن أخرج من كشك التليفون ، خاصة وإننى لاحظ بعض البيض ينظرون إلى شزرأ خارج الكشك ..

وضع مجدى السماعه ، واستمرى في التظاهر بأننى أتكلم ، وأشير بيدي ، وأضفى تعبيرات مختلفة على وجهى ، بينما النظرات تتزايد تجاهى فى الخارج ، وكلهم بيض ، وعندما لمحت مجدى فى السيارة خرجت ، وبالطبع كان الواقفون ينتظرون أن يتحدثوا فى التليفون ، والبعض يتسكع ، قلت لنفسى .. ولو .. لكن الاحتياط واجب ! ، وفى باريس ، أو لندن ، كنت ألاحظ أننى عندما أسأل أحد المارة عن شارع قريب ، كان يقف ويفكر طويلاً ، ثم يعتذر بأنه لا يعرف ، أو يخرج الخريطة من جيبه وبعد تدقيق كبير اكتشف أن الشارع الذى أسأل عنه على بعد خطوات ، وتذكرت فتاة إنجليزية سألتها أحد زملائها عن حاصل ضرب ٦×٥ ، فأخرجت الآلة الحاسبة ، وبدأت تضغط الأزرار ، تذكرت ابن البلد فى مصر عندما تسأله عن شارع معين ، فيصفه لك بدقة إذا كان يعرفه ، وقد يسألك (عايز مين هناك؟) ، وإذا ذكرت له ، تكتشف فى معظم الأحيان أنه يعرفه ، أعتقد أن دخول الآلة إلى الحياة الغربية ، بدأ يضيف نوعاً من الكسل على ملكة التفكير ، وشيئاً فشيئاً تنوب عن العقل الإنسانى ، آلة حاسبة ، وآلة تدفع اليها بالعملة فينزل منها المشروب الذى تريده ، وآلة تدفع إليك بتذاكر المترو ، وآلة تقدم لك الساندويتش ، وآلة أخرى لزجاجات الكوكاكولا ، وتندرج الآلة حتى تصل إلى تلك العقول الالكترونية التى تدير كل شىء فى المفاعلات الذرية ، وتصلح الخلل فى الطائرات الجبارة أثناء الطيران .



الكونكورڊ ، من أجمل ميادين العالم وأفسحها ، تتوسطه المسلة المصرية المشهورة ، استقرت فى معبد الأقصر لمدة ثلاثة آلاف وثلثمائة سنة ، ثم اختلعت فى عهد محمد على باشا ، وأهداها إلى شارل العاشر ملك فرنسا فى عام ١٨٢٩ ، وأقيمت فى باريس فى عهد الملك لويس فيليب ، تزن مائتان وعشرين طناً من الجرانيت ، وعلى قاعدتها رسم مذهب يوضح الطريقة التى نقلت بها عبر البحر ، المسلة هى مركز الميدان ، وإذا وقفت خلفها ونظرت اتجاه قوس النصر ،

عبر شوارع الشانزليزيه الشهير ، ستجد أن كلا الأثرين الهامين ، القوس ، والمسلة يقعان على خط واحد ، يبدأ الطريق صعوده من أمام المسلة ، وينتهي عند قوس النصر ، الذى يلامس زرقة السماء ، فيبدو من هنا وكأنه بوابة مؤدية إلى اللا نهائية ، أطوف بالمسلة ، وأتذكر بأسى أحوال آثارنا المهمة في مصر ، والتفريط فيها ، وتبديدها ، في المتحف البريطاني توقفت في متحف الإنسان بباريس توقفت مدداً أطول ، أمام المومياءات الفرعونية ، التي كشفوا عنها أغطية التوابيت وبدت الأربطة الكتانية ، والجلد البشرى ، في نفس هذا المتحف ، رقدت مومياء ملك مصر رمسيس الثانى ، عندما فرط فيها رئيسها السابق ، وأمر بقرار منه بسفرها إلى باريس بحجة العلاج ، وفي إحدى الغرف التي تقع في هذا المتحف دخل موسى ديان وزير حرب العدو الاسرائيلي على مومياء رمسيس الثانى ، ولا أدري ماذا فعل ، ولا أى شئ قاله ، ما أعرفه أن اليهود يظنون أنه هو الملك الذى أخرجهم من مصر ، وعادت المومياء إلى مصر ، وحتى الآن لا يدري أحد ماذا جرى لها بالضبط ؟

توقفت أمام المومياءات المصرية في متحف اللوفر ، هل كان هذا الإنسان الذى عاش منذ آلاف السنين ، ثم انفق أهله على تحنيط جسده ما انفقوا ، هل كان يظن أنه سيعرض يوماً في لندن ، في باريس ، في بودابست ، في الارميتاج ببلينجراد ؟ عندما مات لم تكن هذه المدن قد ظهرت إلى الوجود بعد ، ومن يدري.. ربما توقف طويلاً أحد أحفاده أمام موميائه ، تأمل باعتباره سائحاً ، ثم مضى ، إن رؤية الأثر الذى ينتمى إلى بلدى في مدينة أجنبية تضيف أبعاداً عديدة على تلك الرؤية ، توقفت طويلاً أمام تمثال صغير من الخشب لأم مصرية تحتضن طفلاً ، التمثال لا تجاوز طوله عشرون سنتيمتراً ، لكنه آثار عندي الحنين إلى الأمومة كما عرفتها ، وكما رايتها على ضفتى النيل ، لكم حزنت في البداية وأنا أتأمل تلك التحف الرائعة التي نهبت منا ، وتذكرت حملة اليونسكو لاعادة هذه الآثار إلى أصحابها ، ومن حنقى وغيظى هلى ما يجرى لآثارنا من

تلف ، وسرقة ، واهداءات ، لشدة حنقى ، فقد قلت لنفسى ، إننى ضد حملة اليونسكو هذه ، إن الآثار لمن يحفظها ويصونها وليست لمن يملكها . للأسف وصلت إلى هذه الدرجة من اليأس وأنا أتجول في اللوفر ، ومتحف الإنسان ، بباريس .

أعود النظر إلى المسلة المصرية في ميدان الكونكورد ، الميدان فسيح ، وكثير من الذين يمرون فيه ، قد لا يعلمون إنه كان من أشهر ميادين الثورة الفرنسية ، شهد الميدان زواج لويس السادس عشر ، ومارى انطوانيت ، وفي يوم الأحد ٢١ يناير عام ١٧٩٣ ، نصب الجيلوتين في نفس الميدان ، في موقع أحد التماثيل التى تقف الآن وإليه ساقوا الملك لويس السادس عشر عبر الشارع الملكى ، وبخطوات بطيئة صعد سلالمة الجيلوتين ، ويقال أنه لفظ عدة كلمات تعنى (يا شعبى ، أنا برىء من كل الجرائم التى اتهمت بها ، دمائى من أجل سعادة فرنسا) ، وفي نفس الموقع قطعت مئات الرؤوس ، منها رأس مارى انطوانيت ، مدام بارى ، وشارلوت كوردائى ، ودانتون ، ومدام رولاند ، وروبسبير ، خلال هذا الزمن البعيد ، كان أشهر صوت يسمع في الميدان ، صوت نزول المقصلة ، تفصل الرقاب عن الأجساد ، الآن ، يموج بجميع أجناس الأرض ، وخطو العشاق ، وانبهارات السائحين ، من ميدان الكونكورد ، تبدأ حدائق التوليدى ، ولأن اللون الأخضر يتقلص في عواصم بلادنا ، وتحل محله مواقف السيارات ، فقد قضيت وقتاً طويلاً في حدائق باريس ، حدائق التوليدى ، وحديقة النباتات التى يوجد بها متحف كبير جمع نباتات الأرض كافة ، وحديقة البالاس رويال الرقيقة التى تقع قريباً من متحف اللوفر ، حديقة رقيقة ، لأشجارها خضرة زاهية ، تتوسطها نافورات صغيرة ، ويخيم عليها هدوء معقم ، أما أرضها فتغطى بحصى صغير ، وحديقة اللوكسمبورج في حي السان ميشيل ، وهذه الحدائق الصغيرة التى تتخلل البيوت ، والشوارع ، حيث الأرائك لراحة المارة ، والتى لا تخلو من العجايز ، الرجال والنساء ، يقضون

الساعات الطوال ، ويحملقون في الفراغ ، ويصحبون كلابهم في هذه الحداثق الجميلة ، والملاحظ هنا ذلك التدليل الذى تحظى به الكلاب ، والعناية ، والحرص الشديد على اصطحابها لتتسم الهواء عصر كل يوم ، وإن كان ذلك يعكس في رأى الاحساس بالوحدة الإنسانية الشديدة ، الحياة ايقاعها سريع ، والدقيقة هنا لها ثمن ، حتى دعوات العشاء ، تتم لمصالح معينة ، للتعرف ، لعقد الصفقات ، أذكر صديقاً عربياً يقيم في لندن منذ سنوات ، وكان له محاولات لتكوين نشاط مسرحى ، في أحد الأيام دعا مخرج مسرحى إنجليزى إلى الغداء ، وقبل المخرج الدعوة ، وكان الهدف عملياً بالطبع ، إلا أن صديقى أمسك بالتليفون في الصباح الباكر وأجرى أكثر من عشرين مكالمة ، وكان في بداية كل منها يقول «أصلى أنا عازم النهارده المخرج .. على الغداء» وشعرت بالفضيحة للرجل الإنجليزى ! كثيراً ما كنت أرقب امرأة عجوز أو شابة ، رجل ، في تلك الحداثق يجلس صامتاً محملاً إلى فروع الأشجار ، في صمت تام ، ثم يمضى بدون أن يتحدث إلى إنسان ، في هذه الحداثق ، وفي الخريف ، حيث اللون الأصفر يتسرب إلى أوراق الشجر ، بينما ضباب خفيف يتخلل الفراغات ، وقد تسرب إلينا مثل هذا المناخ في السبعينيات بعد بدء ما يسمى بسياسة الإنفتاح الإقتصادى ، وبدء تغير القيم في المجتمع ، حتى أواخر الستينيات كنا نجتمع في مقهى لمناقشة كتاب ، أو للسهر حول موضوع معين ، أو للصحة ، وأذكر ليالى عديدة قضيناها في مقهى الفيشاوى ، وكان عدد الموجودين يتجاوز العشرين ، منا كتاب القصة ، والشعراء ، والنقاد ، والصحفيين ، وكان المناخ حميماً ، والصحة عميقة ، الآن اختفى هذا ، انشغل كل واحد عن الآخر بالجري وراء الرزق ، الحياة أصبحت صعبة ، وبدلاً من الجلوس إلى أحد الأصدقاء وإنفاق الوقت في الحديث ، لماذا لا يكتب موضوعاً يقدمه إلى أحد الدكاكين التى تمول الصحف والمجلات ، لماذا لا ينجز عملاً يكسب منه قرشين ؟ ، أحد الأصدقاء قال لى : «إن ساعتى الآن تساوى خمسين جنيهاً ، فلماذا أضيع هذا المبلغ في

جلسة ثرثرة؟»، هكذا تتبدل القيم ، وهكذا يصبح المال مقياساً وبديلاً لكل شيء ، حتى الصداقة ، والعواطف ، وهذا جانب سلبي من الحياة الغربية وفي هذا التقدم في العمر ، في باريس لازال بعض الأصدقاء المصريين الذين يعيشون هنا منذ سنوات يحتفظون بالزمن العربي الجميل في أعماقهم وفي حياتهم ، ويبدو التناقض واضحاً في أسلوب الحياتين المتجاورتين ، في منزل الصديق علي الشوباشي الكاتب والصحفي بوكالة الأنباء الفرنسية تبدأ السهرات بعد التاسعة ، وفي نفس الوقت أسمع إصطدام الملاعق بالأطباق في الساعة ، أصوات العشاء عند الأسر الفرنسية ، حيث ينام الجميع مبكرين ، وإن نبدأ نحن سهرنا ، وتعلو أصواتنا بالحديث ، يشير علي الشوباشي قائلاً : [خفضوا أصواتكم ، إن الجيران نائمين ، ونوم الجيران يجب أن يحترم ، فلا ضحك بصوت عال ، ولا مشي إلا على أطراف الأصابع ، وفي بعض المنازل التي ترن فيها الجدران يصبح الاستحمام بالدش في المساء أمراً صعباً ، لأن الجيران من حقهم أن يستدعوا البوليس لمعاقبة مصدر الضجة ، وفي إحدى المرات طلب جار فرنسي من صديق عربي يسكن فوقه أن يخفض من صوت سعاله لأن ذلك يقلقه ، الكل ينام مبكراً ، وفي ساعة محددة ، أحد أصدقائي الفرنسيين دعوته إلى سهرة مع أصدقاء عرب ، وبعد الساعة التاسعة بدأ يتتأب في الوقت الذي كنا نبدأ فيه السهرة ، المهم أنه صمد حتى الثانية عشر ، وفي اليوم التالي قابلته في الثانية ظهراً ، كنا نقصد إحدى المكتبات ، وإذا بعيني حمراويتين ، ورأسه مصدع ، ولا يقدر على المشي ، قلنته مريضاً ، ولكنه أخبرني أن سهرة الأمس آلمته ، أرقته ، سألته عن عدد الساعات التي يعمل خلالها في الأسبوع ، فقال ، عشرين ساعة ، موزعة على خمسة أيام ، وهناك يومين عطلة ، السبت والأحد ، وتذكرت سهرنا ، وساعات عملنا الطويلة ، والليالي التي نقضيها بلا نوم ، طبيعة الحياة هنا ، والجري المستمر ، وإنشغال كل إنسان بذاته ، يضيف هذه القشرة السمكية على الوجوه، تلك القشرة التي

أراها في المترو ، وفي المكاتب ، وفي دور العمل ، وفي الشوارع ، وفي وجوه هؤلاء الذين استعاضوا برفقة الكلاب عن البشر ، وقد يبدو الإنسان الأوروبي للوهلة الأولى فقط ، قاسياً ، ولكن إذا استطعت أن تتفقد عبر هذه القشرة ، وهذا صعب ، فستلمس الأعماق الإنسانية الحقيقية ، لكن هذا يقتضى زمناً ، وتجربة ، وطول معايشة ، بينما نجد الأمر عكس ذلك في عالمنا العربى ، لهذا كنت أجاور دائماً الأصدقاء المنبهرين بالغرب ، وأقول لهم إن الركائز الحضارية عندنا أقوى ، وأعمق ، ولكننا حتى الآن لم نجد الصيغة التى نزواج فيها بين هذه الركائز ومنجزات الحضارة الغربية ، وتبقى الوحدة أصعب ما يعانيه الإنسان هنا .

في حدائق باريس ، كثيراً ما كنت أرقب امرأة عجوز ، وشاب أو رجل ، في تلك الحدائق يجلس صامتاً ، محملاً إلى الفراغ ، الصمت تام ، والجسور مقطوعة ، في الخريف حيث اللون الأصفر يتسلل إلى أوراق الأشجار ، بينما ضباب خفيف يتخلل الفراغات ، وتكتسب الأشياء لون الحلم ، وأضع يدي على مصدر الاتجاه التأثيرى في الرسم ، أتذكر لوحات سيزان ، وبيسارو ، وفان جوخ ، التى توقفت أمامها طويلاً في متحف الانطباعيين ، تماماً كما ذكرتني وجوه الغانيات في البيجال بلوحات تولوز لوتريك أقرب الفنانين الفرنسيين إلى نفسى ، وهنا يبدو الفن إنعكاساً صادقاً للواقع ، في هذه الحدائق رأيت الأصل الواقعى للعديد من تلك اللوحات ، وفهمت أيضاً أسرار عزلة الفن التشكيلي في وطننا العربى ، عندما نقل بعض الفنانين هذه المذاهب الفنية وقلدوها بشكل ميكانيكى ، وأغلقوا العناصر المحلية ، والتراثية ، في واقعنا ، ويستمر رحلي عبر الحدائق الفرنسية ، غابات بولونيا ، وتلك الضيعة الجميلة التى تقع في الريف الفرنسى القريب من باريس ، ضيعة (المولان) حيث توجد أقدم طاحونة مائية على نهر السين ، ومجموعة من البيوت الخشبية الجميلة ، تملكها مركيزة حقيقية ، أى تنحدر من أسرة أرستقراطية قديمة ، المكان جميل ، أنفاق من الخضرة ، وأشجار متشابكة ، وسلالم حجرية منحوتة في الحجر ، وثمار

الكثرى ملقاة على الأرض ، لا تجد من يتناولها ويأكلها ، ونهر السين يتدفق مستكيناً ، هادئاً ولكن ليس في هيبة النيل ، ولا في عنفوان دجلة ، تأملت الطبيعة الجميلة ، وقطرات الندى التي تبلل أوراق الأشجار ، وأسراب الطيور التي تتجمع في السماء لتهاجر إلى بلادنا نحن حيث الدفء والشمس .

قلت لصديقي نبيل درويش ، المذيع بإذاعة مونت كارلو ، الفلسطيني ، والذي يعيش منذ سنوات طويلة في باريس ، يحمل في عينيه حزناً دفيناً ، بالغاً ، ويدارى ما يشعر به من مأساة ، برغبة عارمة في الصلعة ، والتصلع .. قلت له :

..إذا كانت بلاد هؤلاء القوم بهذا الجمال ، فلماذا تركوها وسرحوا علينا ، وعلى آسيا ، يحملون الموت والخراب ؟

وضحك نبيل !

* * *

.. في باريس التقيت بالدكتور مصطفى صفوان ، عالم النفس المشهور ، وصاحب السمعة العالمية الناصعة ، تأملت ملامحه العربية ، وأسلوب نطقه للغة العربية المشبع بروح إسكندرانية لم تتغير برغم السنوات الطوال التي قضاهما في باريس ، وتذكرت أنني في أواخر الخمسينيات ، وقع في يدى كتاب تفسير الأحلام لسيجموند فرويد ، كان مترجماً إلى العربية ، صادراً عن دار المعارف ، استعرتة من دار الكتب المصرية ، كان الكتاب ضخماً يقع في حوالى ستمائة صفحة ، وكان ثمنه مائة وخمسون قرشاً ، وكان سعراً رخيصاً جداً بمقاييس أيامنا الحالية ومرتفعاً جداً بالنسبة لإمكانياتى وقتئذ الكتاب تأثراً عميقاً ، أردت اقتنائه .. ولما كان ذلك أمراً صعباً ، فقد قررت أن أنقله ، وبالفعل نقلت الكتاب كلمة ، كلمة ، حتى الهوامش ، وها هي الايام تدور ، وأتعرّف إلى الدكتور صفوان في باريس ، الرجل الذى أصبح العلم بمثابة وطناً له ، في إحدى الأمسيات اصطحبني إلى مطعم أنيق ، عتيق ، ولاحظت أن الخدم يعرفونه ،

ويحبونه بود كبير وجاءت قائمة الطعام ، ولاحظت أنه عند الإختيار تحدث مناقشة طويلة بين الجرسون والزيون ، مناقشة حول نوع اللحم ، ودرجة شيه ، وشكل تقديمه ، ويكتسب وجه الجرسون تعابير جادة أثناء المناقشة ، ثم يبدأ تقديم الطعام ، وقبله النبيذ ، والنبيذ الفرنسي أنواع لا حصر لها ، ولكن هناك النبيذ الذى يقدم قبل الطعام ، ويكون بمثابة الإفتتاحية ، ثم النبيذ الذى يشرب أثناء الأكل ، ورأيت الجرسون الأنيق يأتى بزجاجة فاخرة ، يفتحها بعد عملية معقدة بواسطة فتاحة خاصة ثم يصب منها فى كأس الدكتور صفوان مقداراً صغيراً ، وهنا يتعين على الزبون أن يمسك الكأس بين إصبعيه الإبهام والسبابة ، يرفعه ببطء إلى شفتيه ، ثم يتذوق المشروب على مهل ، ويتوقف هنيهة ، ثم يومئ برأسه إذا أعجبه ، وعندئذ يملأ الجرسون الكأس إلى الحافة ، وإذا بدا الإمتعاض يبدل الزجاجة بأخرى ، وعندما جاء دورى ، غمرت للجرسون بعينى ، أن يملأ الكأس ولا داعى لهذه الطقوس التمثيلية ، لم أكن مقتنعاً بأن الزجاجة ستغير بعد فتحها ، ومن سيتحمل ثمنها ، غير أنه ظل واقفاً كجلمود صخر حط من عل ، لم يفهم المداعبة ، عندئذ اضطرت إلى أن أرفع الكأس بمهل عظيم ، ثم أتذوقه على مهل أشد ، ثم أهز رأسى فى أناة موافقاً ، بعد إنتهاء الطعام يجيء لوح من الخشب يشبه «قرمة» الجزار ، عليه أنواع شتى من الجبن ، والجبن الفرنسي أصناف عديدة ، قال شارل ديغول يوماً ، كيف أحكم شعباً يأكل ثلاثمائة نوع من الجبن ؟ وهنا يبالغون فى مسألة التغليف ، قطعة الجبن الصغيرة التى تأكل بلقمتين من الخبز تجدها ملفوفة فى البلاستيك ، ثم ورق معدنى شفاف ، أما السندويتش السريع فيوضع فى علبة أنيقة من مادة تشبه الفبر ، وكثيراً ما كنت أتخيل هذه العلبة فى متناول إحدى نساء بلدتنا القرويات ، كانت ستحتفظ بها وتضع داخلها إير الخياطة ، والكستبان ، وبعض العملات المعدنية ، جميع الفوارغ هنا تلقى فى الزبالة ، زجاجات المياه الغازية الضخمة ، لا وقت لاعادتها ، وفى صناديق القمامة تجد

أشياء لها العجب ، تليفزيون ملون ، ماكينة خياطة ، حقيبة فارغة ، أو ثلاجة بأكملها ، حذاء أنيق ، أى عطب يدفع بصاحب الشيء إلى التخلص منه ، لا يوجد من يصلح ، الأسهل ان يشتري آخر بديلاً عنه ، في باريس لاحظت أن وهنا أصاب حذائي ، وسالت عن اسكافى قريب ، وضحك صديقى ضحكة عالية ، يوجد اسكافى واحد في منطقة تبلغ في مساحتها منطقة الزمالك ، وهو يمارس عمله ببطء شديد ، والحذاء يستغرق اصلاحه شهرين ، وقد يقف بعض المارة للفرجة عليه باعتباره اثراً متخفياً من الماضي ، هذه إحدى خصائص المجتمع الاستهلاكي ، عدت أنظر إلى الدكتور مصطفى صفوان ، أتأمل وجهه ، وأتذكر الأيام الطوال التي قضيتها أنسخ الكتاب الذى ترجمه هو ، غير أن مانقص على هذه السهرة ، تفكيرى المستمر في معطى ، فعند دخولى المطعم ، انحنى لى الخادم انحناء عميقة ثم أقبل يساعدنى على خلع معطى ، وأخذ منى ، وكنت قد تركت محفظتى التى تحوى كل ما أملك وجواز السفر ، داخل جيب المعطف ، إلا أن خجلاً منعنى من سحبها أمام الخادم ، ربما يكون ذلك مخالفاً للأصول ويعنى اتهاماً غير مباشر ، على اية حال في نهاية الليل وجدت المحفظة وجواز السفر في باريس تعرفت إلى الدكتور جمال الدين ابن شيخ ، أستاذ الأدب العربى بجامعة باريس الثامنة ، تعرفت إليه بعد أن علمت انه اختار روايتى (الزينة بركات) للترجمة إلى اللغة الفرنسية ، ولم يكن قد التقينا من قبل ، انه جزائرى الأصل ، من الشعراء المرموقين الذين يكتبون باللغة الفرنسية ، كما أنه يتقن اللغة العربية اتقاناً رفيعاً ، وهمه الأكبر ، تقديم الادب العربى إلى القارئ الفرنسى ، أنه واحد من العلماء العرب الذين لم تهن روابطهم بجذورهم ، بل على العكس ، وفي مقابلة تذكرت كاتب عربى اضطر إلى الإقامة في باريس ، التقيت به في إحدى العواصم العربية ، كانت غرفته إلى جوار غرفتى ، ولاحظت منذ الوهلة الأولى أنه طلق الوطن من داخله ، وإن كان يبدى بعض الملاحظات التى اعتبرها من الحنين المسكن ، أو الحنين المظهرى ، طرقت باب

غرفته يوماً فقال بالفرنسية - انتر (ادخل) قلت ربما إعتاد لسانه الفرنسية مع أننا في بلد عربي ، وفي اليوم التالي كنا نجلس بينما تدور المناقشات، وفجأة قال معرباً عن دهشته : «أو .. لا لا لا ..» وهو تعبير فرنسي عن الدهشة ، فيه بالنسبة لي ميوعة ، وعندما اسمعه خاصة من عربي استهجنه، البعض ممن قابلتهم إنغمس تماماً في الحياة الفرنسية ، وأصبحت إهتماماتهم بما يجري في الوطن الأم مثل إهتمامات صحفى في اللوموند ، إهتمامات خواجه ، والبعض لا يبدى اهتماماً ، حدث أن دعاني أحد هؤلاء مرة إلى الغداء في بيته ، وذهبت إليه بصحبة صديقة تتأجج روحها بالإنتماء العربي برغم إقامتها الطويلة في فرنسا ، وتربطها بهذا الشخص صداقة عمر ، ونتيجة لجهلي بالشوارع الباريسية وصلت إليها متأخراً عن موعدى عشر دقائق ، وبدت قلقة، قالت إن صاحبنا هذا سيغضب لأننا سنصل إليه متأخرين ، وقلت لها إن ذلك مستحيل تصوره بالنسبة لي ، لأن الرجل هو الذى أصر على الدعوة ، ولأننا نذهب إليه في بيته وليس إلى الشارع ، ثم إننى متنازل عن بعض عاداتى ، لأننا في مصر لا نتناول طعام الغداء قبل الساعة الثالثة أو الرابعة ، والساعة الآن الثانية عشرة والنصف ، وهو ميعاد غداء الباريسيين ، وصلنا إلى البيت ، وقرعنا الجرس ، إلا أنه رفض أن يفتح لنا الباب لأننا تأخرنا حوالى ثلث ساعة، وكادت صديقتنا أن تجن غضباً، واعتبرت أن هذا قلة ذوق ، وجليطة ، كانت هى المقيمة في فرنسا منذ سنوات تتلقى ذلك برد فعل يتفق مع نشأتها والحياة التى عاشتها ونمت خلالها جذورها ، وكان الآخر يتصرف كخواجة فرنسي ، كثيرون ، كثيرون ، أولئك الذين قابلتهم يحملون الوطن بداخلهم ، ومعظمهم أرغموا على ترك أوطانهم الأصلية ، أو اضطرتهم الظروف المعيشية ، من هؤلاء أنكر الكاتب المصرى المشهور محمود السعدنى ، إنه يسكن في لندن عمارة ضخمة ، في شقة صغيرة بها ، وإذا كانت العمارة تقع في منطقة انجليزية أنيقة جداً ، ومدخلها لا يفتح إلا بواسطة ميكرفون متصل بكل شقة ، وسلامها مكسوة

بالسجاد ، ويتصدر المدخل بواب انجليزى يشبه مستر همدسون فى المسلسل
الإنجليزى المشهور «الناس الى فوق والناس الى تحت» ، إلا أن شقة محمود
السعدنى تقع فى ميدان الجيزة ، تفتح الثلاثه فتج ملوخية خضراء ، طازجة لا
ندرى من أين حصل عليها فى لندن وفول مدمس ، وعلى الجدران صور
للأهرامات ، وسيدنا الحسين ، وفوق أريكة عريضة يجلس السعدنى فى جلباب
أبيض وكأنه يجلس فى قهوة عبد الله ، وإذا أراد أن يشتري لحماً ، يركب المترو
لمسافة عشر كيلو مترات إلى جزار مصرى يعلق الذبيحة تماماً كما تعلق الذبائح
فى مصر ، ويقف السعدنى يشير إلى الفخذ أو الضلوع ليقول : اقطع لي من هنا ..
أو هات هذه القطعة ، ويرفض أن يشتري اللحم المعبأ فى أكياس من السوبر
ماركت الإنجليزى ، أما اللحظة التى أعول همها فهى لحظة مصافحتى له قبل
السفر عندما يهتز جسد السعدنى كله فى بكاء فظيع ، ويرجوك أن تذهب إلى
سيدنا الحسين ، لتقرأ الفاتحة ، وتذكره بمقهى الفيشاوى .. حقاً ما أقسى
الغربة (١) .

النموذج المقابل ، فتى فى السادسة عشر ، سنوات تكوينه عاشها فى
باريس ، طالب فى أرقى المدارس الثانوية الفرنسية ، ومع ذلك فإنه رافض
تماماً للحياة فى فرنسا ، ويريد أن يعيش فى مصر ، وفى الإجازة الصيفية
يسأله والده ،

- أين تريد قضاء الإجازة .. فى سويسرا ، أم ألمانيا أو مصر .

ويجيب :

- فى مصر ..

وفى مصر أرقبه ، أرقب نبيل الشوباشى ، حيث تتحسن صحته فى الصيف
القاهرى القاسى ، ويبدو منطلقاً ، يفيض بالحيوية ، أرقبه وأحاول أن ألتصق

(١) عاد محمود السعدنى إلى مصر فى مطلع الثمانينات .

جذور هذا الانتماء القوى ، تلك الجذور غير المرئية في هذا الفتى المصرى الذى رضع اللغة الفرنسية مع اللغة العربية ، وعاش سنوات مراهقته في باريس ، ومع ذلك تعلق قلبه بفتاة بالقاهرة^(١).

في باريس واحات عربية عديدة ، أخرج عليها في تجوالى الطويل ، منها مكتب الصديق الصحفى محفوظ الأنصارى مدير مكتب وكالة الأنباء القطرية ، وفي المكتب الذى يقع فى الكى دورسيه والذى أسميه أنا كورنيش النيل ، لأنه يطل على السين مباشرة فى أجمل موقع بباريس ، يلتقى الصحفيون العرب والكتاب الذين يزورون باريس ، أو يقيمون فيها ، وسرعان ما تبدأ المناقشات الثقافية ، ويعلو صوت الدكتور محمد جابر الأنصارى الذى تعرفت إليه في باريس ، وصلاح إبراهيم الشاعر السودانى ، ويرن التليفون فإذا بمصطفى نبيل يتحدث من الكويت ، وصديق آخر من بيروت ، والتليفون الدولى هذا جعل الجميع كأنهم يجلسون فى غرفة واحدة ، ذات مرة رن التليفون ، وقال الصوت:

- صباح الخير ..

وظننته يسخر ، لأن الوقت كان العاشرة ليلاً ، لكنه قال إن الصباح في بدايته الآن في سيدنى في استراليا ، وإنه جاء مبكراً إلى العمل ليتحدث في التليفون .

وفي أثناء تصعلكى بباريس التقى بوجه آخر للوجود العربى ، التقيت بعدد من الشباب المصريين الذين هجروا الوطن وجاءوا إلى أوروبا ، وجميع من التقيت بهم ، خريجو جامعات ، كليات الهندسة والزراعة ، والآداب ، ومعظمهم يعمل فى أعمال متواضعة جداً ، قابلت مهندساً زراعياً يعمل كبائع سندويشات ، وآخر خريج هندسة يعمل فى وظيفة غريبة ، يلف طوال اليوم على البيوت ويضع مظاريف إعلانات فى صناديق البريد ، الخاصة ، آخر يعمل

(١) نبيل الشوباشى استقر الآن فى اقاهرة تماما .

عند جزار ، ناقشتهم طويلاً ، لماذا فارقوا الوطن ، كيف يقبلون مثل هذه الأعمال التي لا تتفق مع ما تعلموه ، شعرت أن أغلى ما في بلادنا مطرود منها ، العقول والخبرة ، ولعنت الظروف ، وبرغم صعوبة الأحوال هنا إلا أن ثمة تضامناً قوياً يربط بينهم . ويبدو في هذه المساعدات التي يقدمونها إلى بعضهم ، ولكن مقابلتهم تثير الأسى .



يستمد الأثر المعماري قيمته من خلال الموقع الذي يوجد فيه ، وهكذا طبقت شهرة كنيسة نوتردام الآفاق ، وظل مسجد السلطان حسن مجهولاً في بلده ، لم تبهرنى العمارة القوطية ، أعجبت بنوتردام ، هذا حقيقي ، بعمارة قصر فرساي ، وعمارة كنيسة القلب المقدس ، ولكن هذه العمارة في مجملها ضاعفت عندي إحساسى بقيمة العمارة الإسلامية والعربية ، في مواجهة كنيسة نوتردام يجثم الأثر المعماري على النفس ، عمارة جميلة لكنها إرهابية ، عكس ذلك ما يشعره الإنسان أمام مسجد السلطان حسن ، في القاهرة ، العمارة الإسلامية شاهقة ، هذا صحيح ، ضخمة ، نعم ، ولكنها تأخذ الإنسان فيصبح شاهقاً معها ، تأخذه إلى أعلى ، لا تجثم فوقه ، ولا تشغله بالتفاصيل ، حتى المنمنمات المغربية تحدث في النفس تأثيراً صافياً ، ونشوة ، وداخل المساجد العربية الضخمة ، نجد الصحن الفسيح ، والفراغ الذي تبدو منه السماء ، بدون أن تقسمه حواجز ، ولكن داخل كنيسة نوتردام لا يمكنك أن ترى مساحة الصحن الداخلى في نظرة واحدة ، إنها أقسام طويلة وعرضية حيث الأعمدة الضخمة ، والحواجز الخشبية .

لماذا أصبحت كنيسة نوتردام أشهر من مسجد السلطان حسن في القاهرة ، أو مسجد الزيتونة في تونس ، أو المسجد الأموي في دمشق ، أو القرويين في المغرب ؟

لأن البلد الذى تقع فيه كنيسة نوتردام يشغل موقعاً أهم على خريطة العالم، ولأن ناس هذا البلد عرفوا كيف يبرزوا ما لديهم ، وكيف يحافظون عليه ، أما نحن فنهمل كل ثمين لدينا ، ونكثف ظلال الإهمال والنسيان ، ويكفى جولة واحدة فى مناطق القاهرة القديمة لكى نتأكد من صحة ما أقول .

إلى المطار ، كنت أفكر فى باريس ، باريس المضيئة ، حيث الفن ، والثقافة ، والسياسة ، والحرية ، وكل إنسان يمكنه أن يفعل ما يشاء ، أن يتظاهر فى الشارع ، أن يصرخ ، أن يرتدى أي ثياب يريد ، وخيل إلى أن باريس تعطى كل إنسان ما يشاء ، فإذا أردت أن تكون عالماً ، هنا الجامعات والمعاهد العريقة ، وإذا أردت أن تكون صعلوكاً ، هنا حياة الكوشار ، والهيبيز ، والصعلكة ، وإذا أردت أن تكون منفصلاً من كل قيد ، لك ما تشاء ، يمكن للإنسان أن يجرى فقيراً ، وبجده وجهده يدرس حتى يدرس حتى يتخرج من أرقى الجامعات ، ويمكن أن يجرى إليها مثقفاً كبيراً ، ثم يتحول إلى شطايأ آدمية ، وخففاً للجهد ، وللطاقة ، والامكانية .. ماذا تريد ؟ ستقدمه لك باريس ، فى المطار قال لى صديقى ..

.. يمكنك أن تعمل هنا .. المجالات العربية عديدة .. وهناك فرص أخرى .. فكرت قليلاً ، قلت له ..

— لا .. إننى أجيء إلى باريس فى إجازة ، لأقف قدراً امكانى على جوانب الثقافة ، لأتعرف إلى الآخرين ، لأرى الجديد .. لكن حياتى ضاربة بأعماقها هناك وستمضى هناك .. فى عالمنا العربى .. بكل ما فيه ، فهذا منشئى .. وقدرى الأبدى ، أما باريس فلا تصلح لى ولا أصلح لها ..

* * *

١٩٨٢

متناليات هنفارية

فبراير ١٩٨٢

- ١ -

.. منذ سنوات عديدة لم يتغير موعد الطائرة الهنفارية ، في الفجر ترحل من القاهرة ، من قبل عبرت هذا الطريق الفضائي مرتين ، المرة الأولى كانت بودابست مجرد محطة لتغيير الطائرة إلى وارسو ، والمرة الثانية لتغيير الطائرة إلى الغرب، لندن وباريس ، ثم التوقف خلال العودة ، في هذه المرة أقصد عاصمة الدانوب، أ تأمل الجبال المكلفة بالثلوج البيضاء ، والغمامات البعيدة ، نفس هذا الطريق الجوى سلخته مرتين من قبل ، يعبر الإنسان الفراغ ، ولا يدع خلفه آثاراً تدل عليه .

- ٢ -

.. ميعاد الوصول دائماً في مطلع النهار ، حراس المطار في أزيائهم العسكرية، يتدشرون باللباس الثقيل ، الكل يرتدى المعاطف وأغطية الرأس الثقيلة ، ترى كيف تكون درجة الحرارة تحت الصفر ؟ مررت بصالة المطار الصغيرة ، نفس الرائحة التي نغذت إلى أنفى منذ خمس سنوات عندما وطئت قدمائى لأول مرة أرضاً أوروبية ، مزيج من رائحة أخشاب مصقولة ، وعطور نساء مررن من هنا ، وقهوة تعد في البوفيه ، يتفحص ضابط الجوازات أوراقى ، ثم يتأملنى ، أواجهه بملامحى ، يختم الجواز ، أفاجأ بالضابط الهنفارى يقول لى باللغة العربية ..

- أهلاً وسهلاً ..

- ٣ -

.. البرد ، الضباب ، يلفان المدينة في الصباح الباكر ، النوافذ كلها مغلقة ، والمارة فوق الأرصفة خطواتهم سريعة ، معظمهم يمشون منحنيين إلى الأمام ، وكان أيدي خفية تدفعهم ، وسرعان ما يذوبون في الضباب ، ليجئ غيرهم ، لا تتوقف الحركة ، الكل مسرع ، ما من تسكع ، وإذا اقترب من الأرصفة تبدو الملامح جادة ، بينما غصون الشجر كلها عادية ، تقترب السيارة من الدانوب ، أعبر كوبرى اليزابيث والذي يصل شطرى المدينة ، بوداوبست ، كانا في الأصل مدينتين إلى أن توحدتا في منتصف القرن الماضى ، يؤدى كوبرى اليزابيث إلى سفح جبل جيليرث ، منذ قرون عديدة عاش فوقه القديس (جيليرت) ، أعدمه الرومان بطريقة بشعة ، وضعوه في براميل ملء بالأسنة البارزة والقوة همن فوق الجبل متدحرجاً حتى السفح ، ثم أطلق إسمه على الجبل ، عادة يتم تكريم الإنسان بعد فوات الأوان ، بعد أن يصبح رمزاً ، التكريم موجه إليه ، لكنه هولا يدرى شيئاً ولا يعى ، تعمى البصائر الإنسانية عن فهم القيمة الحقيقية لإنسان ضحى من أجل الكل ، ثم يفيق الضمير الإنسانى ولكن بعد فوات الأوان .. في الصباح الباكر الهنغارى ، قلت بصوت عال .. بودابست .. لهفى على أمة قتلت راعيها ، بالطبع أقصد امتى أنا ، وليست الأمة الهنغارية ..

- ٤ -

هذه الوحشة التى تعم الإنسان إثر الوصول إلى بلد غريبة عنه ، في الوطن يصبح السفر أمنية ، كذلك يطول الحلم بالمدن البعيدة ، والغابات النائية وعند السفر يشتد الحنين إلى الوطن ، وتكتسب أشد الأشياء عادية قيمة كبرى ، ويهفو الإنسان إلى المقهى ، وإلى الناس الذين اعتاد رؤيتهم كل يوم ، مع أن الغيبة بالنسبة لى لا تطول عادة أكثر من اسبوعين ، ما بين حنينين تتحير المشاعر ، الحنين إلى السفر ، والحنين إلى العودة ، في هذا الصباح الهنغارى الباكر ، كدت أدمع وأنا اذكرك محمد ابنى الصغير عندما كان يصمت ثم يقول فجأة ..

- حنوحشنى يا حبيبى ..

- ٥ -

البحث عن المعارف والأصدقاء ، في مساء اليوم الأول ألتقى بالشاعر الفلسطيني الصديق مريد البرغوثي ، وزوجته الدكتورة رضوى عاشور الناقدة المعروفة وأستاذة الأدب الانجليزي في جامعة عين شمس ، مريد هو المسئول الاعلامي عن مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بودابست ، كثير من الاصدقاء الحميمين أصبحت الآن لا ألتقى بهم إلا في المدن الأوروبية والعربية ، بعد أن كانت مقامى القاهرة تضح بنا ، إلى مقهى هنغارى قديم ذهبنا ، مقهى البيفاكس من عصر الامبراطورية الهنغارية ، بنى في القرن الماضي ، ولا زال مثقلاً بالفخامة ، والروح الكلاسيكية ، وأثار هذا العصر الذى أطلق عليه صديق هنغارى «العصر الذهبى» ، في صالاته الفسيحة ، وزخارف سقفه الفنية ، ومرايا جدران العريضة أستطيع أن ألمح الاصل الواقعى للعديد من اللوحات الفنية الموجودة في متحف الفنون الجميلة ببودابست ، حيث النساء اللواتى يرتدين الفساتين الواسعة الفضفاضة ، والرجال بقبعاتهم العالية ، وعازف للبيانو في الركن الاقصى ، مع مريد ورضوى دبت إلى الونسه ، تحدثت عن مصر وعن أمل عارم يسرى في أفئدة الناس ، وأصغت رضوى ، كذلك أصغ تميم الصغير ابنيهما الذى يتحدث الهنغارية بطلاقة ، وكان يتحدث إلى الجرسونة الحسناء نيابة عنا ومترجماً لنا ، جاءت امرأة هنغارية عجوز ، راحت تداعب تميم ، للطفولة قدسيته هنا ، وعندما عرفت أننا عرب مصريون قالت إنها عاشت في الاسكندرية زمناً ، وراحت تتحدث عن الشاطبي والإبراهيمية ، تسأل وتستقصى بحنين عظيم ، انصرفت ملوحة وعدنا إلى الحديث عن القضية ، وعن الوطن ، وعن فلسطين ، وعن المستقبل ، وعن الآمال والخاوف .

- ٦ -

إلى القلعة .

للمرة الثانية أرى شوارعها المبلطة بالحجارة العتيقة ، قلعة بودا ، أو كما

يسمونها هنا قلعة الصيادين ، يتدرج الطريق في الارتفاع من ميدان موسكوفيا حتى يستقر في الساحة التى تقع أمام كنيسة الماتياشى ، أجمل كنائس هتغاريا وأرقها ، تقوم القلعة هنا منذ القرن الثالث عشر الميلادى حيث بدأ تأسيسها ، تبدو الأماكن التاريخية مجرد حجارة صماء إذا عزلت عن تاريخها وعن الأحداث التى مرت بها ، فى هذا الموضع كان يحلو للإمبراطور الرومانى المشهور ماركوس أوريليوس التأمل ، ولاشك أنه ذواق للجمال ، التل ينحدر إلى الدانوب مكسو بالأشجار ، والنهر ينساب هادئاً فى وقار ، عريض لكنه أقل إتساعاً من النيل ، معارك عديدة نشبت هنا ، عندما استقر العثمانيون لمدة قرن ونصف فى هذه البلاد كانت القلعة مقراً للحكم ، والمكان لا زال يحمل آثار هذه الفترة ، فى الملامح المعمارية حيث البيوت قديمة ، ذات مداخل فسيحة تذكرنا بالوكالات العتيقة فى منطقة القاهرة القديمة ، كذلك النوافذ الخشبية ، والزخارف المعمارية التى حافظت عليها عمليات الترميم التى أجريت بدقة بالغة ، يحمل النصب التذكارى لرجال الحرس الوطنى ، أربع لوحات من البرونز ، صورت المعارك التى جرت بين الأتراك ، والجيوش الهتغارية ، وتبدو الأزياء الشرقية والمعائم ، وبجوار المتحف الحربى ، وعند أقصى الطرف الشمالى للقلعة ، حيث يطل الواقف على تلال مدينة بودا ، يقوم شاهد قبر ، رخامى ، تعلوه عمامة عثمانية منحوتة ، وتحت الشاهد لوحة من الرخام تحمل عبارات كتبت باللغة التركية ، آخرها سطر باللغة العربية «رحمة الله عليه» ، العبارات تعنى أن هذه المقبرة لعبد الرحمن باشا ، آخر باشا عثمانى حكم مقاطعة بودا قبل رحيل الأتراك عن هتغاريا ، توقفت طويلاً عند اقتراب فى العراق ، فى درجة حرارة تصل الى خمسة عشر تحت الصفر ، هذا الباشا الذى لا أعرف ملامحه ، والذى دفن فى مكان يشرف على المقاطعة بأكملها ، إنه مهجور من قومه الآن ، مجرد أثر ، أعود للتجول فى الشوارع الضيقة والتى يجرى الحفاظ على مبانيها بدقة بالغة ، المباني الحديثة متنوع اقامتها هنا إلا وفقاً للطراز السائد ، وعندما أقيم فندق الهيلتون بجوار كنيسة الماتياش ، صمم طبقاً لطراز

العمارة السائد في منطقة القلعة ، بل ان لون الاحجار جاء متوافقاً مع نفس الالوان القديمة ، أما النوافذ المستطيلة للفندق فقد غطيت بزجاج قاتم يعكس الكنيسة ومباني القلعة المحيطة ، انه درس للدول الغنية بالآثار ، والمناطق القديمة التي يشوهها العمران الحديث ، في الطرف الآخر من القلعة يقوم القصر الملكي والذي يضم ثلاثة متاحف ، متحف لتاريخ مدينة بودابست، والمتحف الوطني ، ومتحف للرسم والنحت الهنغاريين ، من القلعة يتحدد طريق يؤدي إلى بودا ، طريق تتخلله درجات سلالم حجرية وممرات عبر الأشجار ، في الليل تتعانق أضواء النيون والوان الشجر ، وتبدو بعض نوافذ البيوت القائمة على السفح مجللة بالاستائر السمكية والاسرار ، اخترقت هذا الطريق مراراً في زيارتي الأولى عام ١٩٧٩ ، وفي ساعات مختلفة من الليل ، وعلى الرغم من عدم وجود رجال البوليس المكثف إلا أن الإحساس بالأمن متوفر ، في الغابة التي تغطي المنحدر ، كنت ألح اثنين يتبادلان الحب ، أو فتاة تجلس وحيدة ، منطوية ، أو عجوز غارق في تأملاته وذكرياته البعيدة ، الوحدة الإنسانية ، يلمح من ملامح الحياة الأوروبية في شرق القارة أو غربها ، عند الوصول إلى السفح ، ومن أمام محطة الديلي ، حيث تقوم القطارات المؤدية إلى الجنوب ، أتأمل القلعة ، وتبدو المباني عند القمة شبيهة جداً بمباني قلعة الجبل في الخضرة ، الفارق انه هنا الأشجار والبرد تغطي السفح ، وفي القاهرة تقوم القلعة على صخور المقطم، والدفء لا يتبدد أبداً ..

- ٧ -

الطريق إلى مدينة (بيتش) يمضى جنوباً ، ولأن الجنوب مرتبط في الذهن بالخشونة ، ومحدودية اللون الأخضر ، فقد كنت أتطلع مبهوراً إلى تلك الكثافة من الغابات الغارقة في ضباب كثيف القوام كاللبن ، خلاله تلوح الأشجار النحيلة ، الفارعة ، التي لم تكتسى بعد بالاوراق الخضراء ، بينما الجليد يغطي جداول المياه الضيقة ، التي تتلوى عبر الجسور ، والجذوع ، لازال الشتاء ممتداً

بأيامه الباردة في هذه الأيام الأخيرة من فبراير ، في الطريق يتوقف الأوتوبيس بمقهى صغير ، أو بمعنى أدق بار ، إذ أن المقاهى بالنسبة لى تعنى تلك المقاعد المتراسة فوق الأرصفة ، حيث يطلو لى متابعة حركة البشر ، وفي البلدان الأوروبية الباردة تختفى أرصفة المقاهى ، وتصبح مفتوحة على الداخل ، ثم بيوت قليلة متناثرة في المنطقة المحيطة بالمقهى ، كل بيت محاط بحديقة صغيرة ، جميع النوافذ مغلقة على مئات الأسرار الصغيرة ، والحبوات التى لا تفصح عن نفسها ، رحت أمشى في الدروب الضيقة حيث الحشائش التى تقاوم برد الشتاء الهنغارى القارس ، تصحبنى صديقة عربية تدرس السينما في بودابست ، إنها منفية من بلدها العربى ، ثم أسباب سياسية ، وهى معزولة عن اسرتها ، لا تصلها أخبارهم ، ولا تعرف عنهم شيئاً ، تقيم مع أسرة هنغارية في بودابست ، تحب شاباً عربياً من بلدها يكتب الشعر ، هو الآخر منفى في باريس ، حدثتني عن لقاءاتهما التى تتم مرة كل عدة شهور ، ولبضعة أيام فقط ، وعن خطاباتهما إليهما ، وعن خطاباتهما إليه ، في كل مكان تذهب إليه هنا ، يتطلعون إلى وجهها العربى الجميل ، وإلى عينيها الواسعتين ويبادرونها بالسؤال : ليس لك صديق هنا .. كيف وأنت جميلة ؟ وتحاول أن تدفع عن نفسها الفضول ، وأحياناً تحاول قطع الطريق على محادثتها ، فتذكر شيئاً ما عن صديقها العربى المقيم في باريس ، باريس .. ولكن باريس نائية ، وهذه اللقاءات متباعدة ، كان المنطق يبدو غريباً في أذان مستمعيها ، ولكننى كنت أشعر من خلال حديثها بما تعنيه ، في الغربة ، أو المنفى ، يصبح الإنسان متعلقاً ، مشدوداً بالوطن ، والوطن يتمثل في إنسان قد ترتبط به ، وإذا ما كان هناك ، رجل وامرأة اضطر كل منهما إلى العيش في المنفى ، منبع ظروفهما واحد ، بلدهما واحد ، فإن كل منهما يمثل الوطن بالنسبة للآخر ، حتى وإن لم يلتقيا ، وإن قامت بينهما المسافات ، هذا ما كنت أدركه جيداً ، وأنا أصغى إلى حديث هذه الفتاة العربية المنفية عن صديقها الشاعر المنفى ..

أخيراً ، مدينة بيتش ..

زرتها في عام ١٩٧٩ ليوم واحد ، وتكر الأيام لتقع عيني عليها مرة أخرى ، كلما زرت بلداً نائياً ، أقول لنفسى وأنا أفارقه ، ترى هل سآراه مرة أخرى ، وإذا حدث .. فمتى ، وكيف ؟

أعود إلى بيتش ، وأرى مرة أخرى مسجد الغازى قاسم ، يتوسط المدينة ، يحتفظ بطابعه الأصلي على الرغم من تحويله إلى كنيسة بعد إنتهاء الاحتلال التركى للمجر في القرن السابع عشر ، نتجه إلى فندق «بانونيا» الحديث ، حيث سيقم الصحفيون والمخرجون والممثلون الذين سيحضرون المهرجان السينمائى للأفلام الهنغارية ، والذى تنظمه في كل عام مؤسسة (هنغارو فيلم) ، فوجئت أن الفندق يقع في مواجهة مسجد حسن ياكوفيل ، أرق المساجد التى رأيتها في خلال تعرفى الذى بدأ منذ سنوات طويلة على الآثار الاسلامية في مختلف انحاء العالم الإسلامى ، أرق المساجد وأغزرها حزناً ، بجارته الرمادية ، ومئذنته الشاحبة ، وحجمه المحدود ، وزخارفه الدقيقة المقتصدة ، الجميلة ، طابعه حزين ، ربما لأنه مهجور ، بلا مسلمين ، لكن ثمة شيء ما في العمارة ، في أحد أيام القرن السادس عشر ، وقف هنا حسن باشا ياكوفيل ، وكما يدل إسمه فهو من بلدة في يوغسلافيا تحمل نفس الاسم «ياكوفيل» ، وقف وأشرف على أعمال البناء ، ثم صلى في يوم إفتتاح المسجد ، صلى ومعه دراويش طائفة المولوية الذين بنى لهم تكية ملحقة بالمسجد ، ضاعت كل معالمها الآن فيما عدا عدد ضئيل من شواهد قبورهم لا تزال قائمة في الفناء الذى يقع خلف المسجد ، حيث يمكن رؤية المئذنة الملتصقة بالمسجد كاملة ، في ذلك العصر البعيد كانت (بيتش) مدينة هامة جداً ، إنها أول المدن الهنغارية بعد إجتياز الحدود اليوغسلافية ، وحالياً هى ثالث مدن هنغاريا ، في العصر التركى كان تعدادها أربعة آلاف فقط ، ولم يكن مسجد حسن ياكوفيل وحيداً ، كان

هناك مسجد الغازى قاسم الذى يتوسط المدينة حتى الآن وتبقى ظلاله سارية
أينما ذهب فيها يمنحها ذلك الظل الشرقى الأصيل حتى فى مواجهة مبانيها
العتيقة باروكية الطراز ، كنيسة الفرنسيسكان القائمة الآن كانت أصلاً
مسجد، وأكبر كنيسة فى مدينة بيتش كانت أصلاً مسجد السلطان سليمان ،
وكان فى المدينة سوق شرقى مغطى ، وعدد من الحمامات التركية يصل إلى
واحد وعشرين حماماً ، أمام فندق بانونيا مباشرة يقع جزء كبير من السور
القديم للمدينة ، وإلى جوار الفندق يمتد شارع ساليا ، شارع عتيق ، مبطن
بالحجارة ، لا تمر به العربات ، جميع المباني المطلّة على جانبيه تنتمى إلى القرن
الثامن والتاسع عشر ، فى النهار تتزايد الحركة فيه ، وإن يقترب الليل تضيقه
مصابيح قديمة الشكل ، ترسل ضوءاً أصفر حاد ، وتبدو حركة المارة فيه غير
واقعية ، كأن أيدى مجهولة تحرك الجميع ، أما صوت الأقدام فلا يسمع قط ،
يصل الشارع بين الميدان الرئيسى ، والجزء الغربى من المدينة ، وفى العصر
العثمانى كان هو الشارع الرئيسى ، وكانت أبواب المدينة تقع فى نهايته ، الباب
الشرقى يؤدى إلى بودا ، والتي تمثل الآن نصف العاصمة بودابست ، الباب
الجنوبى يؤدى إلى مدينة سيكلوشى ، وعلى مقربة منه الباب المؤدى إلى
سيجتغار ، تجاه هذا الباب تقع إحدى الضواحي وكان فيها مسجد ، ومدرسة
للمذاهب الإسلامية ، ثمة ضاحية أخرى على مقربة كانت تحتوى على جزء
عثمانى أيضاً ، انتهى العصر العثماني لهنغاريا فى نهاية القرن السابع عشر ،
وتبقت منه هذه الآثار الاسلامية التى أعيد ترميمها بدقة كبيرة ، وعناية فائقة ،
وأشرف على هذه العمليات البروفيسور يوسف جورى عالم الآثار الهنغارى ،
المسلم ، والذى جاء من بودابست ليعرفنى بأدق تفاصيل الآثار المتبقية فى
بيتش وسيجتغار ..

بالتاريخ الممتد خلفها ، عندئذ تندفق حياة بأكملها ، هكذا في طفولتي كنت أرى المساجد القديمة في الجمالية ، وفي القاهرة القديمة ، ولا أعرف عنها إلا أسمائها ، كذلك أسماء الشوارع ، والطرق ، حتى تقدم العمر ، رحلت عبر التاريخ ، فتدفقت الحياة في الحجارة الرمادية ، وأصبح الوقوف أمام بقايا مبنى قديم يثير العديد من المعانى ، ويفجر القدرة على التأمل ، تذكرت ذلك وأنا في مدينة بيتش ، كنت أمر يوميا في شارع ساليا ، بجوار مطعم غريب يقع تحت الأرض (مطعم المثنة) بقايا بناء قديم يتوسطه كشك خشبي أحمر اللون ، وبدا لي غامضاً ، بلا معنى ، حتى صحبني البروفيسور يوسف جورى عبر آثار بيتش الاسلامية ، واتجه بى الى شارع ساليا ، ثم توقف أمام هذه البقايا ، إنه الحمام التركى الرئيسى للمدينة ، حمام ادريس بابا كما كان يعرف في العصر التركى للمدينة ، ومن بقايا الحمام القديم ، بدأ الحفر والكشف عن الخطوط العامة للبناء ، والمورد الرئيسى للمياه ، ثم الموقد حيث عملية التسخين ، والفتحات في الجدران حيث يتدفق الماء المغلى إلى أحواض صغيرة ، ومنها يتصاعد البخار ، هذا نظام حمامات البخار ، ثمة نوع آخر من الحمامات كان مخصصاً للاستحمام بالماء فقط ، والقاعة من الرخام ترتفع عن أرضية الحمام ، يجلس فوقها المستحمون ، في إستسلام وتراخى لتدفق البخار ، أما في حمامات المياه فتوجد مغاطس مستطيلة الشكل ، ممدودة المساحة ، ينزل فيها المستحم ، تجولت مع البروفيسور يوسف جورى والصديق يوهانس أرنو أحد تلاميذ المستشرق المجرى الكبير عبد الكريم جرمانوس والمسئول عن العلاقات الثقافية الخارجية ، عرفت أن هذا البناء الأحمر الذى كان يحيرنى ما هو إلا خزان الحمام الرئيسى للمياه المغلية ، بجوار بقايا البناء متحف صغير يشرح نظم الحمامات ، ويعرض اللوحات التى رسمت في العصر العثمانى للحمامات ، وجمالها الداخلى ، في هتافاريا بقايا العديد من الحمامات التركية ، حمام شانازار ، وحمام كيرالى ، وحمام روداش ، وحمام راشى ، وحمام السلطان في ايسر ،

وحتى الآن لازال حمام بودا في العاصمة بودابست يعمل ، وفي مدينة شبكستغار يوجد حمام رستم باشا .

من مدينة بيتش ، ركبنا السيارة إلى مدينة سيجنغار القريبة ، الطريق ممتد فوق بساط من الخضرة ، إلى درجة أن لون الأسفلت الأسود يكاد لا يبدو ، من بعيد تلوح الكنيسة ، بطرازها السلالي ، تلك القبة المستوحى شكلها من ثمرة البصل ، والبرج النحيل ، ذو القمة المدببة ، الكنيسة أول بناء يطالع الإنسان عند اقترابه من أى مدينة هنغارية ، سيجنغار مدينة صغيرة ، تخترق شوارعها الرئيسى إلى القلعة التى تقع خارجها ، نجتاز البوابة الضخمة التى تتخلل أسوارا ضخمة من الطوب الأحمر اللون ، في هذا المكان جرت أحداث بعيدة ، لا يدرى عنها معظم العابرون شيئا ، حتى أولئك الذين يعملون ، وقضوا أعمارهم في دراستها مثل البروفيسور يوسف جورى ، فانهم يدرسون أو درسوا الخطوط العامة .. والتواريخ ذات الدلالة ، وربما تفاصيل المعارك ، لكن ملايين التفاصيل الإنسانية اندثرت تماما ، كآلام جندي جرح هنا ، أو أشواق اضطرمت في صدور إنسان ما ، وقد اتيح لى أن أعيش الفترتين ، والموقعين المتقاربين ، وكنت استدعيهما إلى ذهني وأنا أمشى مع صديقتي الهنغارية من الأعوام الممتدة بين ١٩٦٨ ، و ١٩٧٠ ، عشت حرب الاستنزاف التى شنها الجيش المصرى العظيم ضد اسرائيل ، في اكتوبر عشت الحرب يوماً بيوم منذ يوم الأحد السابع منه ، في حرب الاستنزاف كان اقترابنا من مياه القناة لا يتم إلا عند الغسق ، أو في الليل ، ويتم في صمت ، لأن أى صوت كان العدو يصوب إلى مصدره ، وكان إذا أخبرنى إنسان ما إنه زار الجبهة فاسأله هل وصل إلى المياه (قناة السويس أعنى) ، ومن الإجابة كنت أدرى مدى جدية الزيارة ، في تلك الأيام نزلت جروح عديدة ، وتدفقت أحاسيس شتى ، وودعنا الفرق العابرة إلى مواقع العدو نهائياً أو ليلاً ، وخفنا ، وقلقنا ، وسررنا ، وتحمسنا ، في اكتوبر ١٩٧٣ ، دار قتال ضارى ، وهرست جنازير الدبابات الاسرائيلية

أجساداً حية .. وأمسك إبراهيم زيدان بالعلم المصرى ، وكما يقولون «مات عليه» ، لم يتركه وهو ينزف حتى أغمض عينيه إلى الأبد ، فيما بعد ذلك بسنوات، مررت بقناة السويس ، ورأيت بقايا حفر الجنود مغمورة بالمياه ، وسفن عابرة ، ومنافذ جمركية إلى المنطقة الجمركية في بورسعيد ، وتساءلت «من يذكر تلك الأيام؟ من» .. في هذا المكان النائي عن بلادى المدثر بالشتاء ذكرت تلك الأيام ، فهي أيامى وأيام من أحببت ، وتساءلت من يدري اننى ذكرتهم هنا ، أو من يدري اننى أنكرهم في نفس الموضع الذى استشهدوا به (ما معنى الاستشهاد ؟ إذا كان قاتلى يطأ المكان الذى استشهدت فيه بحذائه ، ويجيء معزراً مكرماً) عدت إلى لحظتى الحاضرة ، كان البروفيسور يوسف يشير بيده إلى أحد أركان القلعة ... كان يتحدث عن بطل هنغارى ظل يقاوم الأتراك حتى اللحظة الأخيرة ، لم أسمع إسمه ، إسم البطل ، هو بطل في نظر قومه ، وكافر في نظر الأتراك ، المسائل نسبية ، والتأثير ، والحقائق العظمى أيضاً .. أليس كذلك؟

- ١٠ -

.. صعدنا سلماً يؤدى إلى أعلى سور القلعة .

في سبتمبر ١٥٦٦ ، استولى الأتراك عليها ، إزدحمت هذه السهول المحيطة بجيش السلطان العثمانى العظيم سليمان القانونى ، لم ير سقوط هذه القلعة في نقطة ما ، في موضع ما بين أشجار السرو هذه مات ، أغمض عينيه إلى الأبد ، نتيجة جالطة في المخ ، وفي موضع ما دفن لا زال مجهولاً ، ربما في بقايا مسجده القائم في وسط القلعة ، وفي موضع ما قرر الوزير الأكبر سوكونلى أن يخفى موت السلطان ، عن الجنود والضباط ، حتى لا تتأثر معنوياتهم ، يوجد مكان قريب اسمه توربيك والمرجح — كما يقول البروفيسور يوسف جورى — أن السلطان مدفون فيه ، لأن أصل الاسم ثرية أى مدفن ، استولى الأتراك على القلعة ، وسرعان ما شيّدوا في أركانها أربعة حصون ، وزودوها بأماكن

لإطلاق المدافع ، والبنادق ، كما توسعوا في بناء مخازن العتاد ، والاسطبل ، رأيت هذه المخازن الآن مستغلة ك فندق سياحي صغير ، بعد المعركة بحوالى مائة سنة ، هاجم زرينى الثانى ، - بطل هنغارى - المكان واستولى عليه بجيوشه ، في وسط الحديقة تمثال لـ زرينى يمتطى جواداً ، التمثال بالحجم الطبيعى ، أقيم في عام ١٩٦٦ بمناسبة مرور أربعمئة سنة على المعركة ، ولنفس المناسبة أعيد ترميم القلعة ، والكشف عن أجزائها الداخلية ، أشار البروفيسور جورى إلى جسر قديم ..

- من المحتمل أن بقايا الجيش المجرى المتبقى بعد الهجوم الطويل خرج كدفعة واحدة من هذا الجسر أمام الأتراك ..

أعيد بناء السور في القرن الثامن عشر ، أضيف مبنى لسكنى الجنود ، في وسط القلعة بناء محدب السقف ، يبرز منه برج ، وسرعان ما تكتشف بقايا المسجد في البناء ، البرج هو الجزء الأسفل من المئذنة ، النوافذ لا تزال تحتفظ بزخارفها ، أما الردهة الداخلية فهي قاعة الصلاة ، المقرنصات الجصية في أركان القاعة ، وفي الجنوب الشرقى بقايا المحراب ، وعلى الجدران كتابات باهتة قديمة ، قديمة ، كتابة عربية ، الله ، لا إله إلا الله ، علي كرم الله وجهه ، الحسن ، الحسين ، وقفت وبى خشوع أمام الكتابة القديمة ، وأنا أحاول جاهداً أن أتخيل الأيدى الإنسانية التى خطتها ، هؤلاء الذين انتسب اليهم بشكل أو بآخر ، لابد أنهم جنود عرب من مكان ما ، وثمة ظروف لن تعرف قط لأشد المدققين بحثاً قادتهم إلى الإلتحاق بالجيش العثمانى ، وخطوا فوق الجدران هذه الكلمات المقدسة .. خرجنا من القلعة ، مشينا بجوار نهر أولماشى الذى يخترق المدينة ، مرة اخرى نتوقف أمام كنيسة كانت في الأصل مسجداً ، مسجد حاجى ابراهيم ، ويشرف الآن البروفيسور جورى على أعمال ترميم الغرض منها استعادة هيئة المسجد الأصيل ، طوال فترة الاحتلال التركى لم يقم المسلمون بتحويل أى كنيسة إلى مسجد ،

وبعد انتهاء الاحتلال ، تحولت المساجد إلى كنائس ، الا يدل ذلك على سماحة الإسلام وعظمته ؟

- ١١ -

بيتش مرة اخرى ، في الميادين الرئيسية لافتات تعلن عن أفلام المهرجان السينمائي السنوى ، يعقد خصيصاً للأفلام الهنغارية ، وتتم دعوة أشهر نقاد السينما من العالم ، والكتاب ، وبعض المخرجين ، والممثلين ، حتى يتعرف العالم على السينما الهنغارية ، وهى سينما متميزة ، وقدمت أعمالاً هامة ، آخرها فيلم (مانيفستو) الذى حصل على جائزة اوسكار عام ١٩٨٢ لأحسن فيلم أجنبى ، وفيلم (شونتغارى) عن حياة الرسام الهنغارى الكبير شونتغارى الذى زار فلسطين والقاهرة في بداية القرن ، وسجل زيارته في لوحات ضخمة تحتل معرضاً كبيراً في بيتش ، يقاچى الزائر العربى عند الدخول إليه بلوحته لمدينة القدس تبلغ أبعادها أربعة أمتار في سبعة أمتار ، وهناك العديد من الأفلام الأخرى الهامة ، عرض في المهرجان عشرون فيلماً ، وهذه الأفلام تحتاج إلى دراسات عديدة ، ولكن يمكن القول أن مواضيعها تتناول عدة مداخل تاريخية مختلفة من التاريخ الهنغارى والأوروبى ، ولكن هناك تركيز على المرحلة التى تقع بين الحرب العالمية الثانية وبين عام ١٩٥٦ ، وهنا أدانة شديدة لهذه المرحلة ، حيث تصور الأفلام عمليات القهر الإنسانى ومصادرة الحريات ، وتذكرنا هذه الأفلام بفيلم الكرنك الذى ظهر في بداية السبعينيات في مصر ، ثمة آلام أخرى تنقد الواقع المعاصر بشدة ، بل تكشفه وتعريه ، مثل فيلم (كابالا) لإخراج يانوشى روزا ، ولقد كان مستوى الرؤية النقدية للواقع مفاجأة لى ، خاصة وأن الدولة تنفق على هذه الأفلام وتنتجها ، وتتولى الدعاية لها ، خصصت إدارة المهرجان أربعة قاعات للسينما تعرض نفس الأفلام ، ولكن في ترجمات إنجليزية تقع في ضاحية ريفية من ضواحي مدينة بيتش ، هادئة ، أنيقة ، بيوت صغيرة ، يحيط بكل منها حديقة ، القاعة نفسها ، التى تعتبر

سينما القرية ، قاعة مزودة بالآلات الحديثة ، من النظرة العابرة تبدو الحياة هادئة ، والاحتياجات الضرورية متوفرة ، لكن بعض الأفلام التى رأيتها تقدم وجهاً آخر ، وتذكرت فتاة مجرية على قدر عال من الثقافة ، كانت تحدثنى فى بودابست عن أمريكا بانينهار ، تركزت حياتها حول حلم السفر والعيش هناك..

ويبدو أن الإنسان لن يرضى ، ولن يهدأ ، هنا أو هناك !!

- ١٢ -

من قاعة السينما المظلمة أخرج إلى الريف الهنغارى الجميل ، أعود إلى مدينة بيتش ، إلى مسجد الغازى قاسم الذى حولوه إلى كنيسة بعد إنتهاء الاحتلال التركى ، ولازال الهلال والصليب يتعانقان فوق القبة ، لاحظت الحارسة وهى امرأة تجاوزت الستين ترووى اليومى ، اسمها كوفاتاج فاندال ، جاءت إلى المجر من ثلاثين سنة ، ذهب زوجها إلى رومانيا فى رحلة سياحية ، إلى اقليم ترانسلفانيا الذى هو أصلاً جزء من هنغاريا ، وبالمنااسبة هناك أجزاء كبيرة من هنغاريا أكبر من مساحة هنغاريا نفسها ، تعتبر الآن أجزاء من رومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا اقليم ترانسلفانيا فى رومانيا ، وأقليم براتسلافا فى تشيكوسلوفاكيا ، لا أحد يثير هذه القضية الآن ، فالكل دول اشتراكية ، لكن ألا يثير هذا التساؤلات العديدة حول مبدأ الأمية ، إذا كانت هذه الأقاليم الهنغارية ، وسكانها هنغاريون ، ولغتهم هنغارية ، وقوميتهم هنغارية ، فلماذا لا ينضمون إلى البلد الأم هنغاريا ، ولماذا تثير هذه النقطة المشاكل إذا تحركت ، إذا كان مبدأ الأمية أحد الأسس الهامة فى المبادئ التى تحكم تلك البلاد ؟ ألا يتسرب الشك إلى الأسس ؟ المهم .. ان الرجل الهنغارى الذى ذهب سائحاً إلى ترانسلفانيا الرومانسية عاد ومعه زوجة ، إنها حارسة مسجد الغازى قاسم الآن ، لابد أنها كانت جميلة ، هكذا تشى ملامحها العجوز ، أنجبت منه ابنة واحدة ، والابنة أنجبت ثلاثة أحفاد ، كانت تعمل سكرتيرة ، وبعد أن بلغت سن التقاعد عملت كحارسة فى المسجد .

في مواجهة مسجد الغازی قاسم تمثال من نحاس للقديس هونياد يانوش ، كان قسيساً أسره الأتراك ، وأخذه إلى فهيرفار ، أو بلغراد ، أو القلعة البيضاء كما يعنى الإسم ، وجرت العادة أن تقرر أجراس الكنائس في الساعة الثانية عشر ظهراً في العديد من البلدان الأوروبية تحية لهونياديانوش ، في مدينة بيتش معبد يهودى قديم أيضاً ، إنها المدينة الأوروبية الوحيدة التى تتمثل في آثارها القديمة الأديان الثلاثة .

- ١٣ -

من مقهى النادور القديم يبدو بناء مقابل في الطرف الآخر من الميدان ، لون طلائه أخضر فاتح ، لقد بنى في القرن الثامن عشر ، بنى من أحجار مسجد تم هدمه بعد ذهاب الأتراك .
لا شئ يبقى مع الزمن ..

- ١٤ -

في الليل تقلع الطائرات الهنغارية إلى عالمنا العربى ، إلى بيروت ، إلى دمشق ، إلى الكويت .. إلى القاهرة .
أجتزت الحاجز المؤدى إلى الجوازات ، رفعت يدى بالتحية ، الصديق يوهاس أرنو الصديق توكاى اندراشى مسئول العلاقات الثقافية مع العالم العربى ، عدد من الأصدقاء المصريين الذين يدرسون في بودابست ، والذين أصروا على أن يصحبونى إلى المطار في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، الشاعر محمد أبو دومة ، والدكتور محمد عظيم الذى يدرس الزراعة ، وآخرين تشعب اسمائهم في ذاكرتى ، لوح الجميع ، وتواريت عن الأنظار ، وعندما إرتفعت الطائرة ، وفارقت عجالاتها الأرض ، تساءلت كعادتى كلما فارقت موضعاً بعيداً عن موطنى :

- ترى .. هل سارى كل ما رأيت مرة أخرى ؟؟؟

* * *

متناليات عذاري ..

فبراير ١٩٨٩

هذا العدد الهائل من النجوم !

أين يختفى في سماء المدن ؟ كيف لا نراه ؟ البعض خافت ، والبعض لامع ، تجمعات ، فرادى ، رفع الصديق الأديب حسن سلمان كمال إصبعاً مدربة ، خبيرة ، راح يخبرني بأسماء النجوم ومواقعها ، تلك التي تلوح في سماء جزيرة البحرين .

كنا نقف في البادية ، أشعر بإمتداد الصحراء وهيبتها وإن كنت لا أطلع على حدود واضحة للرؤية . بالقرب منا خيمة منصوبة . قضينا بصحبة عدد من الأصدقاء ساعات من الليل حميمة . صفت الحشاييا والوسائد كنا نجلس متواجهين ، متجاورين . نتبادل الحديث ، ونتذكر أبيات الشعر العربي القديم ، ويتخلل فترات الصمت صوت أم كلثوم ، بينما يقوى حضور الليل الصحراوي بيننا ، تلك لحظات من المودة لن أنساها أبداً ، يخرج بعض من سكان المدن إلى البادية ليالي الاجازات ، يضربون خيامهم ، يتسامرون يتحدثون ، يدفعهم حنين إلى الأيام الخوالي عندما كانت الحياة كلها تمضي هنا .

الليل بارد ، احدى ليالي فبراير الماضي ، لكن الهواء يشف فيشى بمزيد من النجوم ، وعندما فارقت البحرين بعد أيام ستة قضيتها في صحبة أدبائها . كانت الصور الغالبة ، تلك الشفافية التي تميز الفراغ ، والضوء الصاحي ، ربما لأن البحر محيط ، وجوده قوى ، تدرك أنه هناك حتى لو جلت بعيداً عنه ، أيضاً كثافة الخضرة وعناقيتها ، ما من نبات أو شجر يوحى الى الثبات والأزل

مثل النخيل ، إن في رسوخه أو ميله ، في انفراده أو تجاوره . تتخلل البحرين مساحات من الخصرة القديمة الأصيلة ، كنت استعيد نخيل قرىتي النائية في جنوب مصر ، وشيش سعف النخيل ، ورائحة التين العسلية . ربما بسبب هذه الخصرة كانت البحرين محطاً للطيور المهاجرة من برد الشمال إلى دفء الجنوب . منذ الأمد البعيد اشتهرت أيضاً بعيون المياه العذبة .

قال الصديق حسن

«تعال نذهب إلى عذارى ..»

بحريني الأصل هو . ابن بحر ، يعشق الصيد . من هنا جاءت خبرته بالنجوم . والأحياء البحرية ، أطلعني على مخطوط يضم مشاهداته وخبرته في مرات صيده ، يجمع بين الجانب العلمي والعمل ، كما إنه ابن بر أيضاً . في طفولته وشبابه كان يسبح في «عذارى» . عين الماء القوارة ، القوية ، التي تتدفق منذ أمد سحيق .

كم الساعة ؟

الثانية صباحاً ، إلى اليسار جدول طويل ممهد يمضي فيه الماء إلى مسافات بعيدة . الأراضي المجاورة للعين مرتفعة ، لذلك لا تروى البساتين المطلة عليها ، إنما تمضي أرى الأراضي النائية عنها . في البحرين قول شائع ، مثل يقول .

«نشقى والنعيم لغيرنا ، فكان الحال مثل عذارى»

* * *

وقفنا عند الحافة .

الليل جاث ، والصمت مكتمل ، والنخيل المحيط يثبت أركان الكينونة ، العين شبه مستديرة ، ليس لتدفق المياه صوت . لكن يقال ان قوة إندفاع المياه من الأرض يدفع بالسباحين إلى أعلى إذا شرعوا في الغوص ، ظلال النخيل تضيء على المياه لوناً أخضر ، إلى اليمين يقوم مسجد مكشوف . دائماً تجد المسجد بجوار عين المياه ، الصلاة تقام على مقربة من مصدر الحياة ، النبع ، قرب عين

«عذارى» مسجد الخميس أقدم مساجد البحرين ، يقال إنه بنى في عصر الخليفة عمر بن عبدالعزيز . مثذنتاه متميزتان ، بارزتان ، باقيتان ، أما بقيته فطل مع ان محاولة جرت لترميمه عام ١٩٧٦ .

نواجه عين عذارى ، الملح أطيافاً من البخار النابع من سطح الماء الذى يتدفق فاتراً في الشتاء . وينقلب بارداً في الصيف ، ما أعجب وما أغرب ، في هدوء الليل حدثت صاحبي عن عينين متجاورتين في واحات مصر الداخلة ، متجاورتان ، إحدهما تصب ماءً ساخناً ، دافئاً . والأخرى تدفق ماءً بارداً ، حدث اثناء زيارتي للواحات المصرية عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين إن سمعت القوم يتحدثون عن واقعة جرت ، ذلك ان عاملاً فقيراً جاء في ترحيلة من قرى الصعيد ، نزل للاستحمام في العين الدافئة ، سبغ لفترة ، تخلل جسده خلالها خدر لذيذ ، استسلم له ، حتى أدركه النعاس وهو في اللجة ، عندئذ ثقل جسده ، ونفذ الماء إلى صدره . وحمله التيار الدائى عبر القناة الممتدة بعيداً بعيداً جداً ..

في عمق الماء الصافي . من خلال سحببات البخار تلمع سمكة متوسطة الحجم ، تشق طريقها في خيلاء ، في كهرياء ، تحرك ذيلها يميناً وشمالاً ، تمضى حتى تبلغ الحافة ، تم تستدير مرة أخرى لتغرب في إمتداد القناة التى تحمل مياه «عذارى» إلى الأرضى البعيدة التى تروىها . سمكة وحيدة ، لأى غرض تسعى ؟ لا أدري ..

تستمر «عذارى» في تدفقها الهادئ ، الصامت ، غير الملحوظ .



في البحرين عدد كبير من عيون المياه العذبة مثل «عذارى» . إحدى الحكايات المتوارثة تقول إنه في عهد الخليفة الاموى أراد رئيس قبيلة في القطيف أن يقزوج فتاة جميلة هى ابنة شيخ القبيلة في البحرين ، عندما رفض طلبه قام بشن حرب على الجزر ، واستولى على عيون الماء التى كانت تزود الجزيرة الكبيرة لكن

العناية الإلهية فجرت نبعاً من الماء العذب في البحر بالقرب من جزيرة المحرق
ثانى أكبر جزر البحرين الثلاثة وثلاثين ..

هذا من أغرب ما عرقلته ، تلك العيون العذبة التى تتفجر في مياه الخليج
المالح . مازالت الذاكرة الجماعية هنا تعي تلك الأيام التى كان الرجال يخرجون
فيها للبحث عن الماء في الينابيع تحت البحر العميق حيث يغوصون ليمالوا
القرب بالماء العذب ويطفون على السطح ممسكين فوهات القرب من أعلاها لكي
لا ينسكب الماء الذى جمعه بعد جهد جهيد . كانت جزيرة المحرق تحصل على
مددها من الماء بهذا الإسلوب الغريب ، وكان يوجد نبع من الماء العذب إسمه
(يمعاب) في قلب البحر . وعندما يبلغ المد أعلى مستوى له يقوم الغواصين بجلب
المياه ، أو يدفعون عصا من الخيزران المجوف يندفع خلالها الماء إلى أعلى . وعند
الجزر يقوم النسوة بالخوض في ماء البحر إلى أن يصلن إلى النبع ، ويملأن
أوانيهم الفخارية .

«عذارى» هى أشهر عيون البحرين ، لكنها ليست أهمها ، كان هناك عين «أم
السجور» التى تقع إلى الجنوب الشرقى من قرية الدراز ، «أم السجور» طمرت
الآن ، أما الحفريات الحديثة فكشفت عن وجود ضريح مقدس عند عتبات
العين. دائماً مكان العبادة عند حافة الماء . بالقرب منه ، كان ذلك في القديم ،
ومازال .



الوقوف أو الجلوس عند الماء يضعف الإحساس بالوقت ، ربما لأن الماء
مثير للتأمل . خاصة إذا كانت عينا عتيقة ، موجلة في القدم مثل «عذارى» ، والتى
يرتبط إسمها بالعذرة ، وترتبط في وجدان كل من قابلت من صحبى الأدباء
بالاكتشاف ، والمغامرة ، وأوقات الصفو ، ومروج العواطف وتتابعها
وتقبلها .

هكذا ، بعد ما يقرب من نصف ساعة ، في ليل شتوى بارد ، فارقت حافة

«عذارى»، التى يتدفق نبعها من وقت بعيد إلى وقت قادم ، محاطاً
بأسرار النخيل العتيق ، وإن كانت الإطلالة قد انتهت عند حد ، فإن
صوراً خصبة علقت بالذاكرة ، صافية كسماء هذا البلد العربى ، الصغير ،
الجميل . تتخللها سهسات السعف ، وتدفق المياه العذبة ، وحركة السمكة
المجهولة ، والأفسق اللانهائى ، والهموم المشتركة ، ومن قبل ومن بعد ..
مودة الأصدقاء .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
متتاليات مغربية	٩
أسفار المشتاق	١١
فاس القديمة	١٧
من الرباط إلى مراكش البعيدة عن الزمان والمكان	٢٥
الحرف التقليدية الإسلامية في العمارة المغربية	٣٥
ساحة الفنا	٤٥
البيعة	٥١
الوقوف عند حد المحيط	٥٧
أصيلة	٨٣
متتاليات مكسيكية (عبور المحيط)	١١١
توهم الصلات !!	١١٩
موريليا	١٢٧
متتاليات هولندية	١٣٥
في بيت الخالة	١٥٥
متتاليات سويسرية	١٦٢
القمامة السويسرية	١٧٢

الموضوع	الصفحة
القطارات السويسرية	١٨٣
وجوه من الرحلة	٢٠٩
متتاليات تونسية	٢٢٧
متتاليات ألمانية	٢٣٥
غرائب الاتفاق	٢٣٧
في رحاب الملكة	٢٤٥
إبادة الاشتراكية	٢٥٣
طفل .. ضال	٢٦٩
متتاليات باريسية	٢٧٧
متتاليات هنغارية	٢٩٩
متتاليات عذاري	٣١٥

● جمال الغيطانى ..

- ولد عام ١٩٤٥ ، التاسع من مايو . فى قرية جهينة ، محافظة سوهاج ، بصعيد مصر .
- نشأ فى منطقة القاهرة القديمة ، فى أسرة رقيقة الحال ، كان والده عاملاً فى وزارة الزراعة .
- له ثلاثة أشقاء ، أصغر منه ، أخ ضابط مهندس بالقوات المسلحة ، وشقيق درس بكلية الآداب وتخرج منها ، وشقيقة خريجة حقوق .
- تلقى تعليمه الإبتدائى فى مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، ومدرسة الجمالية الإبتدائية .
- تلقى تعليمه الإعدادى فى مدرسة محمد على الإعدادية .
- بعد حصوله على الشهادة الإعدادية (١٩٥٩) التحق بمدرسة الفنون والصنائع بالعباسة ، حيث درس فن تصميم السجاد الشرقى ، وتخرج فى عام ١٩٦٢ .
- عمل رساماً للسجاد بالمؤسسة المصرية العامة للتعاون الإنتاجى منذ عام ١٩٦٣ ، وحتى عام ١٩٦٥ ، ثم عمل مشرفاً على مصانع السجاد بمحافظة المينا لمدة سنة حتى عام ١٩٦٦ .
- عمل سكرتيراً للجمعية التعاونية المصرية لصناع وفنانى خان الخليلى ، منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٦٩ .
- فى عام ١٩٦٩ . انتقل ليعمل فى مؤسسة أخبار اليوم الصحفية .
- عمل مراسلاً حريباً فى جبهة القتال . منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٤ . ثم

عمل بقسم التحقيقات الصحفية ، ثم أصبح رئيساً للقسم الأدبي بالأخبار عام ١٩٨٥ ، ومستشاراً ثقافياً لمؤسسة أخبار اليوم .

● متزوج ، وأب لولد وبنت .

يمكن اعتبار جمال الفيضاني عصامياً في ثقافته ، فدراسته فنية ، ويعتبر من أوائل المبدعين العرب الذين تعمقوا في التراث العربي وبحثوا في جذوره عن أسس خاصة للإبداع .

● كتب أول قصة عام ١٩٥٩ ، وكان عنوانها (نهاية السكر)

● نشر أول قصة قصيرة في يوليو ١٩٦٣ . في مجلة الأديب اللبنانية وفي نفس الشهر نفسه دراسة عن كتاب (القصة النفسية) تأليف ليون أيدل في مجلة الأدب القاهرية التي كان يصدرها المرحوم الشيخ أمين الخولي .

● منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٦٩ ، نشر أكثر من خمسين قصة قصيرة في صحف ، المساء المصرية ، والأديب اللبنانية ، ومجلة الجمهور الجديد ، وجريدة المحرر اللبنانية وكان يشرف على ملحقاتها الأدبية الشهيد غسان كنفاني ، ونشر في مجلة (المجلة) المصرية . كما نشر قصة طويلة بعنوان (حكايات موظف كبير جداً) . في جريدة المحرر اللبنانية .

● في مارس ١٩٦٩ ، أصدر أول كتاب له ، (أوراق شاب عاش منذ ألف عام) وضم خمس قصص قصيرة فقط ، كتبت كلها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وقد أثارت المجموعة ضجة كبيرة . وكتب عنها العديد من النقاد . واعتبرت مرحلة جديدة في القصة القصيرة .

● حتى عام ١٩٨٨ ، أصدر القائمة التالية من المؤلفات :

صدر للمؤلف

١ - أوراق شاب عاش منذ	الف عام	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٦٩	
الطبعة الخامسة	١٩٨٧	(صدر في بغداد - بيروت - القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١	عن الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢ - أرض .. أرض		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٢	الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ - الزويل		قصة طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	بغداد وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	القاهرة مكتبة مدبولي
٤ - الزينى بركات		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	دمشق - وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥	القاهرة - مكتبة مدبولي
الطبعة الثالثة	١٩٨٥	القاهرة - دار المستقبل العربي
الطبعة الرابعة	١٩٨٨	كتاب اليوم - مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩	دار الشروق - القاهرة
الطبعة السادسة	١٩٩١	دار الجنوب - تونس

دار الشؤون الثقافية - بغداد	١٩٩١	الطبعة السابعة
رواية طويلة		٥ - وقائع حارة الزعفراني
القاهرة - دار الثقافة الجديدة	١٩٧٦	الطبعة الأولى
القاهرة - مكتبة مدبولي	١٩٨٦	الطبعة الثانية
بغداد - دائرة الشؤون الثقافية	١٩٨٧	الطبعة الثالثة
مكتبة مدبولي	١٩٩١	الطبعة الرابعة
مجموعة قصصية		٦ - الحصار من ثلاث جهات
اتحاد الكتاب العرب - دمشق	١٩٧٥	الطبعة الأولى
دار المسيرة - بيروت	١٩٨٠	الطبعة الثانية
الهيئة العامة للكتاب	١٩٩١	الطبعة الثالثة
مجموعة قصصية		٧ - حكايات الغريب
كتاب مجلة الإذاعة - القاهرة	١٩٧٦	الطبعة الأولى
دار المسيرة - بيروت	١٩٧٠	الطبعة الثانية
الهيئة العامة للكتاب	١٩٩١	الطبعة الثالثة
مجموعة قصصية		٨ - ذكر ما جرى
مكتبة مدبولي - القاهرة	١٩٧٨	الطبعة الأولى
دار المسيرة - بيروت	١٩٨٠	الطبعة الثانية
الهيئة العامة للكتاب	١٩٩١	الطبعة الثالثة
رواية		٩ - الرفاعي
الهيئة العامة للكتاب	١٩٧٨	الطبعة الأولى
دار المسيرة - بيروت	١٩٨٠	الطبعة الثانية
الهيئة العامة للكتاب	١٩٩١	الطبعة الثالثة
رواية		١٠ - خطط الغيطاني
بيروت - دار المسيرة	١٩٨٠	الطبعة الأولى

- الطبعة الثانية ١٩٩١ مكتبة مدبولي - القاهرة
١١ - كتاب التجليات الطبعة الأولى ١٩٨٣ دار الوحدة العربية - بيروت
١٢ - كتاب التجليات الطبعة الأولى ١٩٨٥ دار المستقبل العربي - القاهرة
١٣ - كتاب التجليات الطبعة الأولى ١٩٨٧ دار المستقبل العربي - القاهرة
● كتاب التجليات صدرت الأسفار الثلاثة في مجلد واحد عن دار الشروق ١٩٩٠ .
١٤ - اتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان مجموعة قصصية الطبعة الأولى ١٩٨٥ دار المستقبل العربي
١٥ - رسالة في الصبابة والوجد رواية الطبعة الأولى ١٩٨٧ روايات الهلال
الطبعة الثانية ١٩٩٠ دار الشروق
١٦ - رسالة البصائر في المصائر رواية الطبعة الأولى ١٩٨٨ روايات الهلال
الطبعة الثانية ١٩٩٠ مكتبة مدبولي
١٧ - شطح المدينة رواية الطبعة الأولى ١٩٩٠ روايات الهلال
الطبعة الثانية ١٩٩١ دار الشروق

● مختارات قصصية

١٨ - منتصف ليل الغربية

١٩٧٤ - مختارات فصول - الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩ - أحراش المدينة

١٩٨٥ - كتاب اليوم - مؤسسة أخبار اليوم

● دراسات ومشاهدات :

٢٠ - المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر

١٩٧٤ - كتاب روزاليوسف - مؤسسة روزاليوسف

٢١ - حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقي في حرب أكتوبر)

١٩٧٥ - مكتبة مدبولي - القاهرة

١٩٧٥ - طبعة ثانية دار الطليعة - بيروت

٢٢ - نجيب محفوظ يتذكر

طبعة أولى - دار المسيرة - بيروت ١٩٨٠

طبعة ثانية القاهرة / مؤسسة أخبار اليوم ١٩٨٧

٢٣ - مصطفى أمين يتذكر

مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٨٠

٢٤ - ملامح القاهرة في ألف عام

القاهرة - كتاب الهلال ١٩٨٣

٢٥ - أسبلة القاهرة

القاهرة - مكتبة مدبولي ١٩٨٤

● تقديم وتحقيق تراث :

٢٦ - مقامات بديع الزمان الهمذاني تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده دراسة

ومراجعة جمال الغيطاني صدر عن مؤسسة أخبار اليوم ١٩٨٨

● أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية :

الزيني بركات ترجمت وصدرت عن :

EDITION DU SEUIL	دار	الطبعة الفرنسية
NORESTAD & SON	دار	الطبعة السويدية
PENGIN	دار	الطبعة الانجليزية
UNIEBOEK	دار	الطبعة الهولندية
ASCHEOUG	دار	الطبعة النرويجية
LENOS - سويسرا	دار	الترجمة الألمانية
رادوجا	دار	الترجمة الروسية
الدولة	دار	الترجمة البولندية

● وقائع حارة الزعفراني

- صدرت ترجمتها إلى اللغة الانجليزية ، في سلسلة الادب المعاصر .
- عن الهيئة العامة للكتاب في القاهرة . صدرت باللغة الألمانية عن دار فوك اندفلت
- قصص قصيرة ترجمت متفرقة إلى اللغات ، الفرنسية ، الإنجليزية ، الإيطالية ، الأسبانية ، العبرية ، الألمانية .

● جوائز :

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الاولى .
- وسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس ١٩٨٧
- أعدت دراسات عن أعماله ، في جامعات ،
- القاهرة ، السوربون (باريس) - بيركلي (أمريكا) ، محمد الخامس (الرباط) -
- جامعة لندن - جامعة مارتن لوثر (هاله بألمانيا الديمقراطية) . - جامعة
- ليبيج . - جامعة ارلينغن بألمانيا الغربية .

دار سعاد الصباح

هيئة المستشارين :

د . جابر عصفور

أ . جمال الغيطاني

د. حسن الابراهيم

أ . حلمي التوني

د . سعد الدين ابراهيم

د . سمير سرحان

أ . يوسف القعيد

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية
مسجلة بدولة الكويت
وجمهورية مصر العربية
وتهدف إلى نشر ما هو
جدير بالنشر من روائع
التراث العربي والثقافة
العربية المعاصرة والتجارب
الإبداعية للشباب العربي
من المحيط إلى الخليج وكذا
ترجمة ونشر روائع الثقافات
الأخرى حتى تكون في
متناول أبناء الأمة فهذه الدار
هي حلقة وصل بين التراث
والمعاصرة وبين كبار المبدعين
وشبابهم وهي نافذة للعرب
على العالم ونافذة للعالم على
الأمة العربية وتلتزم الدار
فيما تنشره بمعايير تضعها
هيئة مستقلة من كبار
المفكرين العرب في مجالات
الإبداع المختلفة .

دار سعاد الصباح

ص.ب : ٢٧٢٨٠

الصفحة ١٣١٢٣ - الكويت

ص.ب : ١٣ المقطم - القاهرة



دار سعاد الصباح